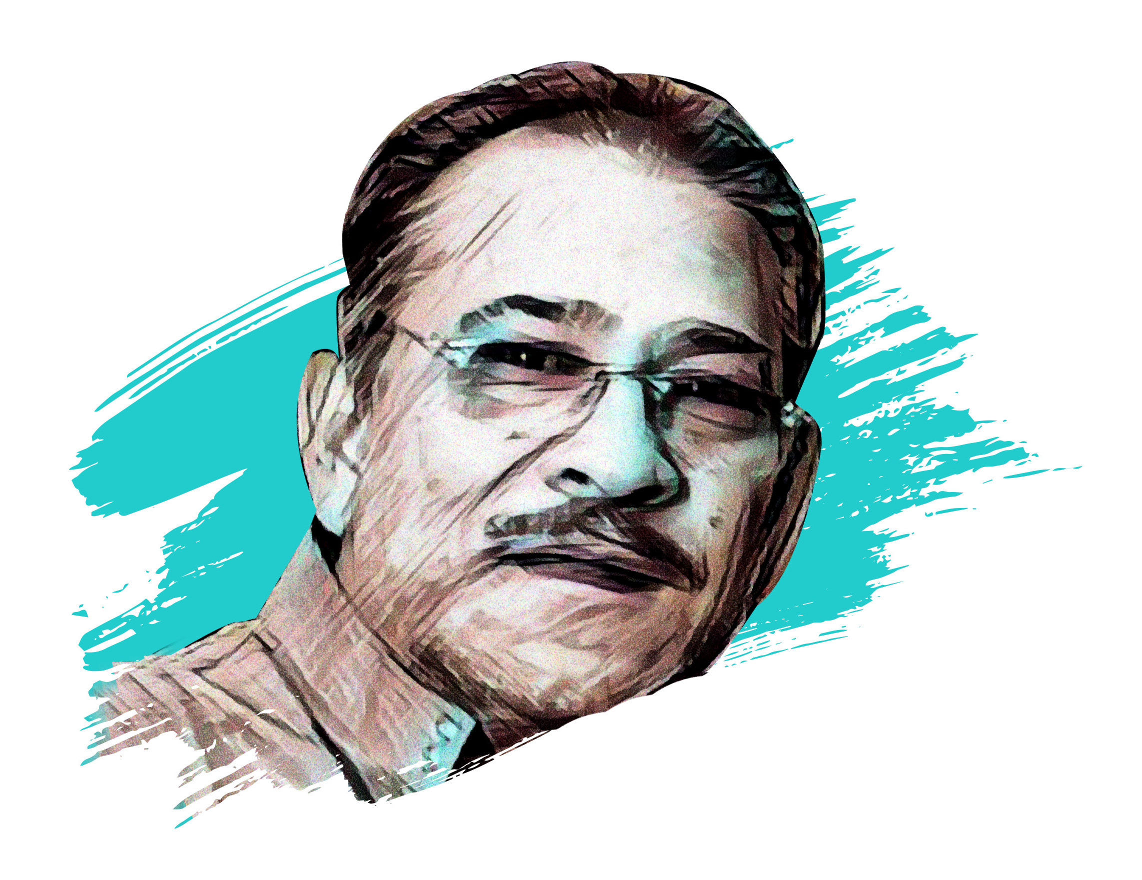
حروب
دولة الرسول

(الجزء الثاني)



سيد القمني

حروب دولة الرسول (الجزء الثاني)

تأليف
سيد القمني



حروب دولة الرسول (الجزء الثاني)

سيد القمني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٩١٤ ١

المحتويات

التأسيس ٧

مسار التاريخ والتأسيس التاريخي للأمة ٩

الوسطية بين النقائض ١٩

صحيفة المعاقل ٢٩

الباب الأول: دِيَة بني عامر ٣٩

غدر العربان ٤١

غزوة النضير ٥١

تأديب العربان ٥٩

غزوة الخندق ٦٥

الباب الثاني: الاعتراف بقيام الدولة ٩٥

إخضاع القبائل ٩٧

غزوة المصطلق ١٠١

غزوة الحديبية ١٠٩

فتح خيبر ١٢٧

الباب الثالث: فتح الفتوح ١٤٣

الإسلام وقاء ١٤٥

مكة: فتح الفتوح ١٥٥

سرايا خالد بن الوليد ١٧١

غزوة هوازن ١٧٧
حصار الطائف ١٨٥

الباب الرابع: قيام دولة العرب الموحدة ٢٠١
البراءة ٢٠٣
عام الوفود ٢١٥
المصادر ٢٢٩

التأسيس

مسار التاريخ والتأسيس التاريخي للأمة

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

(الشورى: ١٣/قرآن كريم)

كان تراكُم الثروات العظيمة لدى الأرستقراطية المكية عشية الإسلام بحاجة إلى وسائل تنموية متعددة، بينما الواقع المُتشظِّي بضآلة وسائل الإنتاج فيه قد جعل تلك التنمية شبه معدومة، فظلت الثروات في حالة كنز وكمون لا تتحرك إلا مع موسم التجارة، دورة واحدة دون حراك حقيقي يعود بفوائد على المستوى القاعدي الأوسع لأفراد مختلف القبائل.

وللحفاظ على الثروات الكامنة تم كنزها في شكل معادن ثمينة، وهو ما أدَّى دورًا مُعطِّلًا لدورتها الإنتاجية المُفترَضة، كما أدَّى بالتجار الوسطيين وبعض أفراد الأرستقراطية الواعية إلى قراءة آفاق المستقبل وممكناته، بينما ظل أغلبية الملأ على حالهم المُحافِظ الرجعي بالاكتناز حتى موسم التجارة.

ومثل تلك المقدمات تُفسِّر لنا إسلام بعض التجار الوسطيين مثل أبي بكر بن أبي قحافة ومن كان على رأيه وقت كان الإسلام ينادي المُستضعَفين، حيث كان هؤلاء الوسطيون أقدر على قراءة حركة الواقع قراءة واعية بحكم موقعهم الاجتماعي. تلك القراءة التي أدركت غاية خط سير التطور، حتى يمكن أن يتحول أمن البيت المكي لأهله من الجوع والخوف إلى أمن لعرب الجزيرة جميعًا، بتوحدٍ ينتهي إلى قوة واقتدار، ويُؤدي إلى نظرة طموح نحو الإمبراطوريتَين المُتهالِكتَين.

كذلك تُفسِّر تلك المقدمات، تلك اللغة القوية الجديدة التي أخذت تسري مع سفي الرياح في فيافي الجزيرة، وأوردنا لها نماذج في الجزء الأول من هذا العمل. ونعضده هنا بإضافة ما وجدناه مُجدَّدًا عند «الدينوري» في «الأخبار الطوال» وهو يحكي عن

«النعمان بن المنذر»، ملك الحيرة العربي المسيحي، المنوب عليها من قبل كسرى فارس. ذلك الرجل الذي ظهر شعوره القومي العربي تجاه قومه، فقام يُساعِد «سيف بن ذي يزن» العربي اليهودي الذي ثار في اليمن على الاحتلال الحبشي المسيحي لبلاده، فتوسَّط النعمان لدى كسرى ليمد «سيف بن ذي يزن» بالسلاح والجند، حتى تحررت اليمن من الحبش، لكن لتسقط في تبعية الفرس.

ولو تم تفسير موقف النعمان بأنه كان يُوطِّئ لجيوش الفرس في اليمن لظلمناه ظلمًا بينًا؛ لأن ذلك التفسير سيُجافي ما حدث بعد ذلك ويُنافيه تمامًا، فقد استمرت سياسة النعمان في موالاة القبائل العربية، حتى توجَّس منه كسرى الذي وعى بدوره شكل التحولات التي تجري في الجزيرة ونذرها، فتخلَّص منه. وأوجز سبب قتله في خلاصة واضحة مُعبِّرة تمامًا عن خط سير الأحداث، حيث قال:

> وأما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر، وإزالتي الملك عن آل عمرو بن عدي، إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وآل بيته قد واطَئوا العرب وأعلموهم توكُّفهم خروج المُلك عنا إليهم، وكان لهم في ذلك كتب، فقتلته، وولَّيت الأمر أعرابيًّا لا يعقل من ذلك شيئًا.[1]

وقد تتالت الأحداث إثر ذلك، فأخذت بكر تُغير على سواد العراق كرًّا وفرًّا،[2] ثم تصاعَدت المُناوَشات بين قبائل إياد والفرس، ليُهزَم العرب هزائم مُتتالية.[3] حتى تأتي موقعة ذي قار حيث تُحقِّق القبائل العربية أول نصر عظيم لها على جيش الإمبراطورية؛ ذلك النصر الذي دوَّى أمره يرجع صداه بين مضارب القبائل الساهرة تسمر حول أخباره، مع فرح عامٍّ شمل الجزيرة جميعًا عبَّر بوضوح عن بدء شعور العرب بوحدة جنسهم، وعن ظهور نزوع قومي واضح لا شية فيه، ليُلقي بصداه في سمع الأجيال وهي تُنصِت إلى

[1] الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط١، القاهرة، ١٩٦٠، ص٦٣، ١٠٩، ١١٠.

[2] الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، ط٢، النجف، ج٢٠، ص١٣٢.

[3] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ج١، ص١٢٩.

مُوحِّد العرب، النبي محمد ﷺ وهو يُعقِّب على نصر ذي قار قائلًا: «اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا.»[4]

وفي مكة، كان أبرز من وعى ممكنات المستقبل وهي تُلقي بمقدماتها أمام سادة مكة، رجل من الملأ حكيم، هو عتبة بن ربيعة، الذي وقف يطلب من قريش الكف عن محمد؛ لأن ما سيكون له من شأن سيكون شأنهم، وما سيُحقِّقه من عز وملك سيكون ملكهم وعزهم، لكن إصرار الملأ على المنافع الضيقة واستدامة الأرباب القبلية جذبًا للتجارة، أدَّى بذلك المُتغيِّر الآتي إلى أن يفرض وجوده فرضًا، ليصل خط التطور نحو غايته الحتمية.

وعليه فقد نهض بإتمام التطور وأخذه إلى نهايته الناضجة، لصالح الطبقة التاجرة، ذلك الفرد المُنتظَر، نبي الإسلام الكريم ﷺ الذي نشأ يتيمًا فقيرًا كادحًا، من البيت الهاشمي الذي حاز شرف النسب، لكن مع تواضُع مادي، بل كان من الغصن رقيق الحال في ذلك البيت، غصن عبد المطلب وأبي طالب. ومع تجاوزه الصبا إلى اليفوع والرجولة، تحوَّل محمد إلى التجارة لصالح أثرياء مكة، ثم تزوَّج من الشريفة الثرية السيدة خديجة بنت خويلد — رضي الله عنها — فخبر الأمرَين، وعاش الحالَين، وعاين الطبقتَين، مما كان كفيلًا بوعي نافذ، كان وراء دفع الأمر نحو غايته ونتائجه الحتمية.

وإعمالًا لما سبق، وبسبيل الاتساق مع السير الصحيح لوجهة التطور التاريخي، بدأ النبي ﷺ دعوته بالمجاهرة بضرب المصالح الأنانية الضيقة لملأ مكة، ابتداءً بضرب التعدد القبلي الربوبي، بهدف التوحيد الآتي. ومن ثَم كان إعلانه كفران قريش ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ …﴾، وسلبها لقبها الذي شرفتها به العرب «أهل الله»، وتسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، مع رفضه الصارم لقواعد التجارة التي قعَّدوها، التي كانت تُعطِّل سيولة رأس المال وتُجمِّد دورته التنموية، فقام يُهاجِم كنز الذهب والفضة بأوامر وحي يُساير سنن الكون التاريخية ويلتقي معها، حتى وصل في مغالاته إلى ذم المال في ذاته، وهو ما جاء في رواية ابن حنبل: «إن النبي قال: تبًّا للذهب، تبًّا للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أي مال نتخذ؟ فقال عمر رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك. فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أي مال نتخذ؟ قال: لسانًا ذاكرًا وقلبا شاكرًا وزوجة مؤمنة تُعين أحدكم على دينه.»[5]

---

[4] خليفة بن خياط: الطبقات، تحقيق أكرم العمري، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٦٧، ص٤٣.

[5] ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص١٩.

وتكرَّر موقفه من المال في مواقف من أصحابه من التجار الوسطيين، فقال يومًا لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «ما بطَّأ بك يا عبد الرحمن؟ قال: ما ذاك يا رسول الله؟ قال ﷺ إنك آخر أصحابي لحوقًا بي يوم القيامة، فأقول: ما حبسك عني؟ فيقول المال: كنت مُحاسَبًا محبوسًا حتى الآن.»[٦]

وكان طبيعيًّا أن تُسفِر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفوة، أدَّى بالنبي ﷺ إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجي الطويل، تحوَّل بموجبها نحو المُستضعَفين والمُعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب والامتلاك، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشي، إنها كنوز كسرى وقيصر؛ بهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس، وعليه كان إعلان الوحي: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥).

ويروي البلاذري: «كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه؛ عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة، وأشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد منَّ الله عليهم من بيننا.»[٧]

وإعمالًا لذلك بات واضحًا أن المستضعفين هم من سيُشكِّلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون القادة والأئمة، وهم من سيرثون الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، يُوحِّد ولا يُفرِّق، يجمع أصحاب المصلحة في التغيير في مصهر واحد، عبَّرت عنه الآيات الكريمة بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣). ومن هنا، وفي تلك المرحلة قام الإسلام بضرب القبلية، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أي ولاء آخر، وهو ما دعا إليه الوحي في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣).

وقد أفصحت الصحيفة التي عُقِدت بعد ذلك بزمن بعد الهجرة إلى يثرب، عن قرار بقيام الدولة على نظام اجتماعي جديد، يُميِّزها كأمة أخرى تمامًا دون بقية الأعراب، ووضعت أول مبدأ للأمة المُوحَّدة، مُعبِّرة عن التجمع الحضري الكيفي المتجاوز للتجمع

---

[٦] الشيباني: الاكتساب في الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحة، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٩.

[٧] البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج٢١، ص١٥٦.

القبَلي الكمي. وهو المبدأ الوارد في نصها المضيء في مبتداها: «هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس.»[٨]

وتسارعت الخطوات بعد الهجرة بادئةً بالمهمة الكبرى، وهي إسقاط نظام الملأ المكي وحكومته شبه الجمهورية، وضرب ذلك النظام في أساسه الخرساني بقطع طريق الإيلاف التجاري المار قرب يثرب، بحروب بدأت رحاها بسرايا وغزوات، كانت الحروب التأسيسية لقيام دولة الرسول في يثرب.

وهكذا كان الانقلاب العظيم الذي جاءت به الدعوة، يتمثل في رفض النموذج البدوي للإنسان العربي في المرحلة القبل إسلامية، ومن ثَم جاء الانقلاب ليُسارِع في تفجير الأطر القبلية، ويبني نموذجًا جديدًا لإنسان الجزيرة، ويضعه ضمن منظومة اجتماعية جديدة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة إلى الولاء للأمة القومية، تلك الأمة التي كان عمادها الرئيس عقيدتها الجديدة.

وإذا كانت ترميزات الوحي المجازية قد جعلت من إبراهيم الخليل أمة وحده، كأب لجميع الأنبياء ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠)، فإنها جعلت من محمد ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم؛ ومن ثَم كان محمد بدوره أمة. وإذا كان هو كل الإيمان وكل الأنبياء في دين واحد وذات واحدة، فلا شك أن المؤمنين به سيكونون بإيمانهم محمديين؛ أي سيكونون بدورهم أمة؛ لذلك جاءت الآيات تقول:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الأنبياء: ٩٢).

وكان الشرط ليكونوا أمة هو الاعتراف بمحمد رسولًا خاتمًا، وبمن سلف من أنبيائهم، أنبياء وأسلاف الأمة وتاريخها، وبالله الواحد ربًّا جامعًا لوحدتهم في كيان اجتماعي عقدي واحد.

---

[٨] ابن هشام: السيرة النبوية، ضمن كتاب السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرءوف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، مج٢، ص٢٤١.

ومن البداية كان واضحًا أن هذه الأمة الجديدة هي الأمة الجامعة لعربٍ بدءوا منذ وهلة فقط قريبة جدًّا يشعرون بوحدة جنسهم وبقوميتهم إزاءَ تفجُّر أطر القبيلة، وهو ما تمثَّل في موقفهم من تحرير اليمن، ومن انتصار قبائل الشمال على الفرس في ذي قار.

ومن هنا أضحى أن مصطلح أمة في العقيدة الجديدة يعني كيانًا اجتماعيًّا جديدًا شديد الصلة بمعنًى يُناقِض البداوة والقبلية، ويتماهى مع معنى المدينة والحضارة.

ومنعًا لأي التباس في عروبة تلك الأمة، مع وجود العبيد والموالي الذين دخلوا الإسلام من أصول غير عربية، جاء حديث سيد الخلق ﷺ يقول:

> أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هي لسان، فمن تكلَّم العربية فهو عربي.[٩]

كان التوحيد الربوبي ناتجًا لتطور ظروف المجتمع، لكنه أيضًا كان مُؤسِّسًا للدولة الواحدة، وكان لا بد أن يُرافِقه توحُّد إثني جنسي يُلغي أسلاف القبائل الذين هم أرباب في الوقت ذاته، لتتحقق الوحدة المرجوة؛ ومن ثَم كان تأكيد النبي على ما سبق وأعلنه جده عبد المطلب بن هاشم، أن جميع قبائل العرب وإن تفرَّقت قبائلها وتشرذمت، فإنها إلى أب واحد تعود، هو إسماعيل بن إبراهيم أبو جميع الأنبياء، الذين هم بدورهم مسلمون.

وهكذا كان التوحيد الربوبي يتمثل في الالتفاف حول لواء واحد هو قول لا إله إلا الله، والقبول بالانضواء تحت سلطة نبوية قائدة واحدة تتمثل في الشهادة لمحمد بأنه رسول الله، كأساس تنظيمي للحركة التاريخية نحو إقامة دولة مركزية للأمة الطالعة، وبحيث ينتقل العربان من الوضع القبلي إلى الوضع القومي.

ولتحقيق الهدف، كان لا بد من خروج الفرد من منظومته القبلية إلى رحاب القومية الأرحب، مما يعني انسلاخه الكامل فكريًّا وسلوكيًّا عن حالة التبدي والقبلية.

لكن تظهر الإشكالية الكبرى والمُستعصية، حيث لم تشعر شراذم العرب القبلية بوحدة جنسها إلا بشكل ابتدائي كلون من العصبية غير الواضحة والضبابية، ناهيك عن انقطاع تلك القبائل عن ماضيها وأحوال من سبقهم، وهو انقطاع تاريخي مع التأريخ لعوامل كثيرة معلومة، ليس هنا مجال عرضها، حتى إنهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، أو أن لهم أية علاقة بالحضارات السامية القديمة. ورغم أن البعض اليوم يُقعِّد تلك الحضارات

[٩] نقلًا عن ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص١٦٦، ١٦٩.

في مجلس التاريخ العربي، مع الإشارات إلى حضارات الجنوب اليمني، فإن هذا الاعتبار يقوم على الجغرافيا مع إسقاط الجانب اللغوي وخط الكتابة وغيره، وحتى ظهور الخط النبطي الذي تطوَّر عنه الخط العربي بعد ذلك بقرون، فإن عرب الجزيرة أنفسهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، ولم يبدأ ذلك الشعور جليًّا إلا مع دخول الرسملة وإفصاح المجتمع عن وجهه الطبقي، حيث بدت بوادره بفرح عمَّ جزيرة العرب عندما انتصر حلف قبائل الشمال على جيوش فارس في وقعة ذي قار، وعندما تمكَّن ابن ذي يزن من تحرير بلاده من الأحباش.

وهكذا كان لا بد للأمة من تاريخ يتصل بها، ويتواصل معها، ويجد لها موطئ قدم راسخ في عمق الزمان الماضي، فأي أمة لا بد لها من عراقة تاريخية عميقة، وتاريخ يضرب بجذوره في الماضي البعيد المُؤسِّس للتطور التالي المُنشئ للأمم أصلًا.

ومن هنا كان الاتجاه نحو العماد التأسيسي العقدي لإلقائه في رحم التاريخ القديم، بربط النبي محمد بتاريخ النبوة منذ بداياتها المعروفة في القصص الديني؛ ليُصبِح تاريخ الأمة الجديدة تاريخًا نبويًّا، ومعرفيًّا سماويًّا، فتتم أسلمة جميع الأنبياء السابقين، كما يتم تقديس لغة قريش تحديدًا باعتبارها اللغة العربية الكاملة، ويتم إعادتها إلى الزمن السماوي القبل خلقي، فتُصبِح لغة الملأ السماوي، ولغة آدم أبي البشر جميعًا في الجنة، ثم لغة جميع الأنبياء، ثم ستكون لغة أهل الجنة بعد.

وعليه تم وضع الأنبياء في سياق تاريخي كان هدفه النهائي هو قيام دولة الإسلام المحمدية، وبحيث يكون النبي ﷺ هو المحور والهدف الأول قبل آدم نفسه، ويظهر كل الأنبياء كخطوات تمهيدية تطورية تاريخية سابقة، كانت مهمتها التوطئة التاريخية لدولة النبي وأمة المسلمين، ويُصبِح جميع الأنبياء في بقاع مختلفة من عالم الشرق القديم، سواء من بني إسرائيل، أو من أنبياء عرب كصالح وهود في الشام واليمن، أو في العراق كما في حالة إبراهيم، أو في مصر كما في حالة موسى، يُصبِح كل هؤلاء بموروثهم النبوي، وجدلهم المعرفي والحضاري مع حضارات المنطقة، هم الامتداد التاريخي للأمة العربية الطالعة، وهو الأمر الذي سيلتقي تمامًا مع التوجهات المحمدية والتوجيهات لأتباعه بغزو تلك البلاد، باعتبارها ميراثًا تاريخيًّا تقوم شرعيته على فلسفة الإسلام التاريخية، وكما ورث محمد كل النبوات، فإن كل بلدانهم بالتبعية وبالضرورة هي ميراث أتباع محمد، الذين هم أتباع لكل الأنبياء في جميع الأمم.

ومن هنا تتالت آيات القرآن الكريم لتعزيز تلك «التاريخية» للأمة الطالعة، بما حوته من قصص الأنبياء؛ لتكون بمثابة إعادة اكتشاف للهوية التاريخية ولتشكيل ماضي الأمة.

ولأنَّ الغرض «توحُّد» في أمة «مُوحَّدة» في عقيدتها، فقد أصبح كل الأنبياء السوالف مُوحِّدين؛ ومن ثَم كان الهجوم التكفيري على بعض الآراء والعقائد في الديانات السابقة والتي دخلتها شبهة عدم التوحيد، كما في بعض حالات أنبياء اليهودية وفي حالة يسوع المسيح، لتُصبِح القيم التي مثلوها هي القيم التي تتساوق وتتناغم وتتضافر مع دعوة النبي التوحيدية المُوحِّدة لتوحيد قبائل العرب في دولة مركزية واحدة.

ومن ثَم تتالت الآيات القرآنية تُؤكِّد ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، وهي الآيات التي تعني أن تلك القبائل إنما كانت في الأصل على الدين النبوي التوحيدي الذي أَسَّسه سلسال الأنبياء السابقين، وأنهم انقسموا بعد ذلك قبائل وشيعًا؛ مما يعني أن الوحدة والتوحيد كانا الأصل، ومن ثَم ينقلب منطق التطور على عقبَيه لصالح التأسيس التاريخي للأمة، ومن ثَم كان نداء الآيات ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ (الشورى: ١٣).

ومن أجل تحقيق وحدة الجماعة المسلمة التضامنية في يثرب كان لا بد من مركز تأسيسي يُمثِّل المركز الحكومي الإداري، وفي ذات الوقت يجب أن يكون مركزًا مُقدَّسًا؛ ومن هنا أمر الرسول الأتباع عند دخوله يثرب بترك ناقته على حريتها قائلًا: «اتركوها فإنها مأمورة.» لتبرك الناقة فيتقدس الموضع الذي بركت فيه ويبني فيه المسجد الذي تقدَّس في حديث النبي ﷺ بقوله: «لَا يُشَد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا.» بل وحرَّم يثرب جميعًا لتُعادِل بحرمتها مدينة مكة.

وفي المسجد كان المسلمون يلتقون بزعيمهم ومنه يُوجِّههم، وفيه يتم توطيد انتمائهم العام للأمة، بإبعادهم عن المجتمع القديم وعزلهم عنه، كما تأكَّد المعنى المدني للدولة بإطلاق اسم المدينة على يثرب، مع هجوم عنيف على النزعة البدوية في آيات القرآن الكريم، ومن نماذجها:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ (التوبة: ٩٧).
﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ (التوبة: ٩٨).
﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ (التوبة: ١٠١).
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

ومن ثَم أصبح التمدن مُرادِفًا للإيمان، حيث المدينة تُؤكِّد الشعور بالانتماء والانتساب والمواطنة وبالهيبة الحضارية. لكن بينما كانت حاضرة مثل مكة قد تخلَّت عن الإغارات البدوية على القبائل الأخرى نهائيًّا، لظرفها الاقتصادي والمجتمعي، وتأكيد حرمة مدينتها وحرمها؛ فإن يثرب على العكس بدأت غاراتها العسكرية من الوهلة الأولى للحصول على المُقوِّمات الاقتصادية لبناء الدولة، حيث قال النبي ﷺ:

لم تحِل الغنائم لأحد قبلنا، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا.[١٠]

ومن ثَم تقدَّست أيضًا تلك الغارات، وشُرِعت الغنيمة وأصبحت بدورها حلالًا ومُقدَّسًا. أما قريش ومُشرِكوها فقد كانوا يُشكِّلون بوجودهم ضرورة لتحقيق الإسلام، حيث يبرز النقيضان ويتضحان، وكانت حربهم إزاء الحملات العسكرية اليثربية عليهم، مع الظفر الذي تحقَّق ليثرب، مدعاةً لأن يرى العرب فيها رعاية غيبية تقف إلى جوار المسلمين وتدعمهم، وهكذا أبرز ذلك التناقض النقيض المهزوم كنموذج منهار في طريقه إلى زوال.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، فقد زلف لسانه بعد ذلك بزمان طويل، يحكي عن حروب النبي ﷺ لقريش وحصارها اقتصاديًّا فقال: «كنا قومًا تجارًا، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى تهتكت أموالنا.»[١١]

[١٠] الثعلبي: قصص الأنبياء المُسمَّى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت، ص٢٤٩.

[١١] المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦، ج٢، ص٩٤.

الوسطية بين النقائض

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾

(آل عمران: ١٩/قرآن كريم)

كان يوم بعاث — وبعاث موضع بالمدينة — كانت فيه وقعة عظيمة، قُتِل فيه خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبقَ من شيوخهم إلا القليل. وقد روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: كان يوم بعاث يومًا قدَّمه الله لرسوله، قدِم رسول ﷺ إِلَى المدينة وقد افترق ملاؤهم وقُتِل سراتهم.[١]

هذا نص ابن كثير الواضح اللماح، الذي يُعلِن في إيجاز بليغ بلاغًا واضح المعاني، حول الظروف التي انعقدت فيها الاتصالات بين النبي ﷺ وبين أخواله من خزرج يثرب، ومن لحق بهم من بعض الأوس القليل، حيث يشرح ببساطة وضع عرب يثرب — من خزرج وأوس — المنهار والمُتفسِّخ، بعد مقتلة يوم بعاث بين القبيلتَين، وقتل الرءوس منهم والسادة؛ مما جعلهم فراغًا من أصحاب «الكاريزما» الرئاسية والحنكة المشيخية. وهو ما رآه ابن كثير ترتيبًا ربانيًّا قدَّمه الله هدية لرسوله، بقتل الرءوس الكبرى من كلتا القبيلتَين، مما هيَّأهم لقبول السيادة النبوية دون مشاكل كثيرة، ودون مُنافِسين أقوياء.

[١] ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨، ج٣، ص١٤٦.

وغني عن البيان أن عاملًا آخر أساسيًّا هيَّأ لذلك الحلف ومهَّد له، هو المُصاهَرة الوثيقة التي سبق أن تمَّت بين الخزرج وبيت النبي الهاشمي. ناهيك عن كون موقف الخزرج — تحديدًا، إضافةً لقرابة الخئولة — كان ردًّا واضحًا على قريش وسادة البيت الأموي، إزاء وقفتهم السابقة مع أوس يثرب ضد الخزرج، يومَي معبس ومضرس، وهي الوقفة التي عمد إليها ملأ مكة لتفتيت يثرب وتمزيقها شيعًا؛ كي لا تُشكِّل خطورة على تجارة مكة، لوقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامي، ولإجهاض قوتها حتى لا تُطالِب بنصيب من الجعالات التي كان يدفعها ملأ مكة للقبائل القائمة على الطريق التجاري، بحيث أسقطت مكة يثرب من حساباتها تمامًا، بعد تلك الوقائع الدامية بين بطونها. وتأسيسًا على ذلك استشرف خزرج يثرب الوعد النبوي بوعي نافذ، لوحدة تلمُّ الشمل، تقف بها يثرب كمنافس له شأنه أمام مكة وسادتها، وربما تكون عاصمة للدولة الكبرى الموعودة مع تداول الأيام، عندما يأتي الله بأمره.

ورغم أن كتب الأخبار الإسلامية والسير والتاريخ، وما تُقدِّمه وسائل التربية الإعلامية والدينية، تجعل يثرب جميعًا تستقبل سيدها الجديد المُهاجِر بالترحاب، وتصدح بنشيد «طلع البدر علينا» بعد أن امتلأت منهم الجوانح بالإيمان، فمنحوا النبي والمُهاجِرين بيوتهم ونساءهم وعقولهم وأرزاقهم؛ فإن العين الحصيفة المُدقِّقة، والقراءة المُحايدة المُتأنِّية، لا تجد ذلك الزعم أبدًا، حيث نجد وفد يثرب الذي التقى بالنبي في عكاظ، كان من بيت عبد الأشهل الخزرجي وحده وهم أخوال النبي، وأن اللقاء التالي بعد عام كان يضم اثنَى عشر؛ تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. وكان لقاء العقبة الحاسم قبل الهجرة يضم ثلاثة وسبعين؛ منهم أحد عشر أوسيًّا فقط، وستون خزرجيًّا. وهو ما يُشير إلى أن هؤلاء الأوس كانوا من عقلاء قومهم فأدركوا قيمة الدعوة وما سيتحقق بها، أو أنهم أهل سلام ومصالح ترتبط بذلك السلام، جعلهم يقبلون ذلك العقد مع صاحب الدعوة ويحضرونه. وفي مستوًى آخر — يأخذ بسوء الظن — يمكن احتساب أوس العقد دسيسة أوسية على ذلك الاجتماع التاريخي؛ لتسقط أخباره. وهو أمر وارد في ذلك الصراع، وتكشف عنه بعد ذلك الأعداد الكبيرة للأوس المنافقين بعد الهجرة ولزمن طويل، ناهيك عن كون وجود الجواسيس كان أمرًا مألوفًا، وكان بداخل المهاجرين أنفسهم جواسيس لملأ مكة، وهم من قال الوحي بشأنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

ثم هناك مستوًى ثالث في قراءة موقف الأوس، يتمثل في مُباعَدة أبي عامر بن عمرو بن صيفي الأوسي مع خمسين من أتباعه ليثرب بعد الهجرة، كارهًا للنبي والمهاجرين،

ومشاركته بعد ذلك في وقعة أحد ضد النبي؛ إلا أن الواضح الجلي هو أن النبي قد دخل يثرب في حمى أخواله الخزرج أساسًا، مع تعضيد من بعض عقلاء الأوس، وهو ما يُفصِح عن قدر شديد من المبالغة في روايات الإخباريين عن إيمان عرب يثرب جميعًا قبل الهجرة مباشرة. ويُدلِّل هذا التحليل ما حدث في وقعة بدر، حيث لم يتمكن النبي من جمع أكثر من ثلاثمائة رجل معه في الوقعة، مهاجرين وخزرجيين وأوسيين، وهو أمر ذو دلالة إن قارناه بما حدث بعد استتباب الأمر في المدينة للنبي، وقدرته على حشد قوة تُماثِل عشرة أضعاف ما جمعه في بدر، وهو ما يُشير إلى انضمام جموع أخرى مُتأخِّرة إلى حلف النبي اليثربي.

لكن ذلك لا يعني سوى أن يثرب قد استقبلت الرسول، مُتهيئة لذلك بحكم ظروفها وتكوينها، التي أُتيحت لها دون أي موقع آخر بالجزيرة؛ ففيها كان أخوال الرسول وحلفاء البيت الهاشمي، وفيها كان اليهود وحكاياتهم عن أنبيائهم مع كتابهم المقدس، وهو ما كان عاملًا جوهريًّا في وضع التاريخ الديني موضع احترام من عرب يثرب، إضافةً إلى النبوءة التوراتية التي كانت تتواتر هناك عن مَقدم نبي آخر الزمان، كما كان التوحيد اليهودي مَدعاة لاختلال علاقة عرب يثرب بالوثنية، وهو ما هيَّأهم لقبول فكرة التوحيد عندما جاءت عربية. وقد تهيأت يثرب بعد ذلك لأخذ دورها الريادي كعاصمة للدولة المُقبِلة، في تحوُّلها التدريجي للتوحُّد إيمانيًّا، بل وطبقيًّا، بذوبانها في مستوًى مادي مُتقارِب، كناتج للتوزيع العادل للغنائم. وتحوَّلت الجماعة الإسلامية إلى جيش مُتكامِل ووحدة عسكرية، مُقاتِلة، بدأت تُداهِم بدورياتها طريق الإيلاف الشامي؛ لتضرب حول مكة حصارها الاقتصادي.

فلم ينسلخ من الأيام سوى أشهر سبعة بعد الهجرة إلى يثرب، حتى خرجت دوريات المسلمين تقطع على قريش طريقها إلى الشام، وكان أولاها سرية حمزة بن عبد المطلب، وبعدها بشهر سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب، وبعدها بأيام سرية سعد بن أبي وقاص. ورغم أن كثيرًا من تلك السرايا الأولى لم تُحقِّق غايتها بالاستيلاء على قوافل قريش، فإنها وضعت تجارة قريش على حافة الخطر، وأشعرت الملأ أي أمر ينتظرهم من محمد، خاصة بعدما قام النبي ﷺ بنفسه يغزو الطريق بهدف آخر، هو إرهاب حلفاء قريش على طريق الإيلاف، لتفكيك الإيلاف بين تلك القبائل وبين قريش، وبعد النجاح الذي لاقته تلك الغزوات حيث تمكَّن النبي من سلخ إيلاف بني مدلج، وأخذ عليهم عهود المُوادَعة، كما تمكَّن من عقد عقود مكتوبة مع بني ضمرة بن بكر من كنانة.

وجاء أخطر إنذار لقريش، عندما تمكَّنت سرية عبد الله بن جحش من الاستيلاء على قافلة لقريش، ضربت أثناءها بالتحريم المكي للأشهر الحرم عرض الحائط، فقتلت،

وسلبت، وأسرت؛ لتُعلِن القوة الجديدة في يثرب عن رفضها لقواعد قريش الدينية، واستخفافها بتلك القواعد، بخاصة مع تلازم ذلك باتخاذ النبي للقدس قِبلة له وللمسلمين، وصيامه يوم الغفران اليهودي، ذلك الاستخفاف الذي استهجنته قريش تُعلِن في العربان أن محمدًا قد انتهك حرمة الأشهر الحرم، لكن ليرد النبي عليهم وحيًا يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وبينما ينقطع قمح يثرب عن مكة، وتخرج سرايا يثرب إلى ميناء الجار على البحر الأحمر لتمنع شحنات القمح المصري من الوصول إلى مكة، ودوريات المسلمين تنقض على طريق الإيلاف كل لحظة، كان صفوان بن أمية يُردِّد لسان حال قريش وهي تقول:

> إن محمدًا وأصحابه قد عوَّروا علينا مَتجرنا، فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوا محمدًا، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسكن؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء.[٢]

ولعل أهم وقعة كبرى حوَّلت بالفعل مسار التاريخ بعدها، كان سببها قافلة كبرى لقريش بقيادة صاحب اللواء أبي سفيان بن حرب، وهي وقعة بدر الكبرى، حين تحوَّل اتفاق الأنصار مع النبي في العقبة الثانية إلى غايته المُضمَرة، من ميثاق دفاعي إلى حلف هجومي مُحارِب، تحوَّلت معه عناصر الجماعة الإسلامية كلها — مهاجرون وأنصار — إلى دولة مُحارِبة هجومية، دولة عسكر ومغانم، كالقبيلة تمامًا، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحوَّل الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة، مُمثَّلة شخصيًّا في رسول الله ورمزيًّا في ذات الله، وإلى المصالح المادية المباشرة التي جمعت بالفعل أعضاء الدولة. وكان بدء الغزوات والمغانم نقطة التحوُّل الكبرى التي لعبت دورًا عظيمًا في جذب الأتباع من مُستضعَفِي القبائل ومُحارِبيهم، بعد أن ظل النبي ﷺ يدعو في مكة ثلاثة عشر عامًا دون إجابة، ولم يتبعه خلال كل تلك السنوات سوى حوالي المائة نفر، حيث كانت الدعوة تُؤجِّل الوعد بالنعمة إلى جنة الخلد، ولكن عندما تم الإعلان عن تحلَّة الغنيمة الدنيوية من أموال الآخرين المُخالِفين للدعوة ودولتها، أصبح حل مشكلة المُعدَمين حقيقة ملموسة،

---

[٢] أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص١٤٥٨.

ومكاسب عينية تدعوهم إلى الانخراط مع العصبية الإسلامية. وبعد فترة من الزمن ستُصبِح تلك المكاسب كبيرة إلى الحد الذي سيدفع رجالات قريش المُميَّزين إلى الانخراط في جيش المسلمين، وهو ما يُفصِح عنه إسلام «عمرو بن العاص» الذي ذهب إلى النبي ﷺ يُؤكِّد أن هجرته ليست للمال بل لله ورسوله، لكن ليُجيبه النبي ﷺ بكل صراحة ووضوح: «نعمًّا بالمال الصالح للرجل الصالح.» ثم أرسله قائدًا عسكريًّا غازيًا وهو يقول له: «إني أريد أن أبعثك وجهًا، يُسلِّمك الله فيه ويُغنِمك، وأزعب لك زعبة من المال.» ومن ثَم كان إعلان النبي ﷺ تميُّز عمرو بقوله: «أسلم الناس وآمن عمرو.»[٣]

ومع النصر البدري الساحق، أصبح النبي مرموق الود من القبائل، خاصةً المُتاخِمة ليثرب، مما وسَّع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل المُوادِعة لها على كافة الطرق، دون أن تُعلِن هذه القبائل ولاءها الديني لدولة النبي بإشهارها الإسلام. كان الغرض عسكريًّا وسياسيًّا في هذه المرحلة من مراحل بناء الدولة، بهدف مرحلي تكتيكي على الطريق الاستراتيجي الطويل، يهدف إلى إضعاف جبهة حكومة الملأ المكية، وتفكيك إيلافها مع القبائل، وإسقاط هيبتها أمام العربان. وقد لحق نتيجةَ ذلك ضرر جسيم بالعمود الخرساني لمنظومة مكة المُتمثِّل في ثروتها التجارية، وهو ما حدا بالقبائل إلى مُراجَعة موقفها من قريش، إزاء القوة اليثربية الطالعة، في الوقت الذي أخذت فيه أحوال المسلمين الاقتصادية في التحسُّن المُطرِد، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية؛ سلاحًا، ومالًا، ومنحتهم مزيدًا من الثقة النفسية في أنفسهم وفي مشروعهم وفي قائدهم، فامتلَئوا — بتلك القوة المعنوية — جرأة، وأخذوا بتأديب المُخالِفين في يثرب، وإلقاء الرعب في قلوبهم، بل وقتل أي شخص يتجرأ على مُعارَضة الدولة.

هذا — بالطبع — مع نتائج أخطر على مستوى الشكل الاجتماعي للدولة، كناتج طبيعي لتعزيز سلطة النبي الحاكمة، وهي النتائج التي أخذت تتضح في تراجعات الدولة الوليدة عن الأممية المُطلَقة والأخوة المُطلَقة التي كادت في بدئها أن تكون مَشاعًا؛ وذلك بعقد صحيفة المعاقل في مرحلة تالية، التي كانت إعلانًا مكتوبًا سافرًا عن سلطة النبي كسيِّد مُطلَق ليثرب جميعًا؛ ومن ثَم بدأت مع صحيفة المعاقل مرحلة جديدة بتكتيك تمثَّل في تراجُع دقيق ومحسوب عن الأممية المُطلَقة، لتأخذ الدولة السمت الوسطى بين الأممية، وبين الدعوة إلى صلة الأرحام والمحافظة على العلاقات العشائرية.

---

[٣] السهيلي: الروض الأنف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج٣، ص١٩٣.

وقد بدأت تلك السياسة الوسطية تتضح بعد غزوة بدر مباشرة؛ حيث لحظنا — كما شرحنا في الجزء الأول من هذا العمل — بداية توازُن الدولة بين النقائض، فكانت دعوتها لتوحُّد أممي تحت راية واحدة وفي ظل سيادة دولة مُوحَّدة وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، وضمت في شكلها الاقتصادي تقاربًا ماديًّا زاد من ذلك التوحُّد، لكنها إبان ذلك كانت تضم أيضًا الرقيق والعبيد مما حملها من الداخل للون طبقي. ومع التراجع عن التنديد بالثروة والأثرياء، وخفوت صوت المُستضعَفين في الوحي والأحاديث، بدأت الدولة تُفسِح بداخلها فجوات المجتمع الطبقي، ثم فجوات المجتمع القبلي معًا؛ حيث كانت الدعوة للرحم والعشيرة مَدعاة لوضوح شكل الدولة في أضمومات قبلية مُحزَّمة ومُوثَّقة بوثاق الدولة الواحدة. أما إذا تتبَّعنا أنساب العشرة المُبشَّرين بالجنة، فسنجدهم تمثيلًا قبليًّا وسياديًّا لأهم البطون القرشية؛ فهذا أبو بكر وطلحة يُمثِّلان تيمًا، وهذا علي يُمثِّل هاشمًا، وهذا عثمان يُمثِّل أمية، وهذا عمر وسعيد بن زيد يُمثِّلان عديًّا، وهذا عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص يمثلان زهرة وهذا الزبير يمثل أسدًا، وهذا أبو عبيدة يُمثِّل فهر بن مالك، وهو التمثيل الذي أصبح يُوازي في يثرب حكومة الملأ القرشية في مكة (وقد لُوحِظ ذلك بذكاء الباحث الأستاذ خليل عبد الكريم).

وتأسيسًا على كل ذلك، فإن غزوة بدر قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظري والعملي، وحدَّدت مواقف كثيرة كان الإفصاح عنها مُؤجَّلًا حتى يأتي الله بأمره، لكن أهم ما حقَّقته هو وضعها بداية النهاية لسيطرة الملأ القرشي، وسيادة حكومته البدائية شبه الجمهورية، بالقضاء على سادتها المُترَفين، أولئك المُنافِس الحقيقي لفكرة الدولة الواحدة. وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن بالاعتماد على التوازُن بين النقائض، في مملكة وراثية كبرى ستُمسِك بأعنتها قبيلة النبي، قريش، وهي العودة التي ما كانت لتتم لولا العودة إلى صلات الرحم والعشيرة، التي وضحت في تحرُّك رحم النبي لأهله الهاشميين في وقعة بدر، وأمره لرجاله بعدم قتل أي من بني هاشم؛ ليتوازن ذلك مع نقيضه من بعد، فيصبُّ الأمر كله بيد الطبقة التي سيتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، لتقف على رأسها الطبقي منظومة قريش القبلية؛ ليظل حال التاريخ العربي والإسلامي بعد ذلك حتى اليوم، إعمالًا للمُقدَّس واتباعًا له، يظل واقفًا على حافة الوضع الاجتماعي الاقتصادي المعروف بالإقطاع التجاري، ويبقى المأثور مُصرًّا على أن الخلافة من قريش، وليس من الأنصار.

ويتضح ذلك جليًّا عندما نقرأ المراحل اللاحقة في تطوُّر أحوال الأمة الطالعة، بعد أن استقام أمرها؛ حيث بدأت تفتح صدرها تمامًا للتجار، خاصةً بعد فتح مكة، وحيث احتلَّت طبقتهم في الإسلام مكانًا، كان مكانهم الطبيعي في الفرز التطوري. ولا ننسى أن النبي ﷺ كان هو من يُحاوِل دومًا جذب تجار مكة وأثريائها لدعوته. وبعد هذه النقلات سنلحظ دون عناء كيف خفَّفت السُّوَر اللاحقة والمُتأخِّرة — التي تناغمت بصدقها مع مُتغيِّرات الواقع — من حِدتها إزاء الأثرياء، وهدأ تنديدها بهم، مع خفوت مُتساوِق في الاهتمام بقضايا المُستضعَفين، وبعد أن كان هؤلاء المُستضعَفون المُقاتَلون مادة الحركة ووقود حروبها، تحوَّل من بقي منهم حيًّا إلى طبقة كبار المُلاك. وهو ما يكفي أن نذكر له مثلًا واحدًا فقط، يتعلق بأكبر الصحابة زهدًا وتقشُّفًا وورعًا، وكان أرقَّ نظرائه حالًا وأقلهم مالًا.

عن علي رضي الله عنه: «لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لتبلغ أربعين ألف دينار.»[٤]

ثم يمكننا أن نلحظ المال نفسه الذي كان محل هجوم شرس وضارٍ، وأُحِل للمسلمين مُصادَرته بالغزو، وهو يتحول ليُصبِح بالإمكان بقاؤه وتناميه، بعد تطهيره بالزكاة والصدقات، ويبيت كسبًا حلالًا، وتسعة أعشار الرزق في التجارة، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا. لقد كانت خطوات التاريخ في طريقها إلى إنضاج الطبقة التجارية — وليس إلغائها — في سبيل كيان سيادي يسد الفراغ السياسي تحت لواء عقيدة عقَدتها حتمية السنن الكونية.

وجولة سريعة للعين في كتبنا التاريخية ستلحظ دون عناء يُذكَر كيف أضحت التجارة في أحاديث النبي هي أطيب مكاسب المؤمن،[٥] و«أن التاجر الأمين مع الكرام البررة يوم القيامة»،[٦] ولما كانت الأمانة أساس التجارة القرشية، فقد طالهم الوعد جميعًا، ثم لا بد أن

---

[٤] الحلبي: سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨، مج٢، ص٤٧٣. ويشرح الحلبي أن تلك كانت صدقة العام الواحد فقط.

[٥] الشيباني: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢، ج٣، ص٢٠١٢.

[٦] الشيباني: الاكتساب في الرزق المستطاب، تلخيص محمد سماحة، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ط١، ١٩٣٨، ص٣٧.

نلحظ أنه لم تُفرَض ضريبة واضحة خاصة بالتجارة، أما أبو يوسف فيُورِد لنا حادثة لها في سياقنا هذا دلالاتها الواضحة، حيث يقول:

إن السعر غلا في زمن رسول الله ﷺ فقال الناس لرسول الله ﷺ: إن السعر قد غلا، فوظِّف وظيفة نقوم عليها. فقال: إن الرخص والغلاء بيد الله وليس لنا أن نجوز أمر الله وقضاءه.[٧]

أما العبيد فقد غامت قضيتهم تمامًا، بل ولم يُعطِهم النبي من أموال الفيء باعتبارهم في كفالة غيرهم من الأحرار،[٨] ثم نجد النبي بعد ذلك يُهدي بنفسه أعدادًا من العبيد لآخرين، كما في أمثلة عديدة، فقد أهدى العبيد لأخته من الرضاعة «الشيماء» ولغيرها، وكان يتقبل الهدايا عبيدًا أيضًا. وهو ما سنجده في مواضعه من هذا العمل.

ومن ثَم خرجت إلى تاريخ العرب تلك الحالة الوسطية التي تتوازن بين النقائض، على كل المستويات؛ بين القبلية وبين الطبقية، بين العشائرية وبين الأممية، بين الوحدة الشاملة وبين تضمُّن تلك الوحدة للقبائل في شكل حزم وأضمومات، وبين إلغاء الشفعاء واستبدالهم بشفيع واحد هو نبي الإسلام، وبين الوحدانية المُطلَقة للإله التي لا تقبل شراكة. ومن ثَم كانت التراجعات التي اعترفت بمُقدَّسات القرشيين والتي كانت تُعَد وثنيات، كالاعتراف بالكعبة، ثم في فتح مكة يتم تقديس الكعبة ذاتها وحجرها الأسود، وشعائر الوثنيين القديمة كالطواف والسعي، وتكريس المقامات والمواضع كالصفا والمروة وعرفات. لقد باتت الدولة بحاجة إلى معبد مؤسسي له تاريخه، بعد الرجوع عن القدس «أورشليم»، معبد يجتمع عنده جميع العربان، لكنه معبد قريش قبيلة الرسول في المقام الأول، وسدنته الهاشميين آل البيت.

كذلك تم الوقوف وسطيًّا بين نقائض أخرى، بين البدء بالدعوة إلى عتق الرقيق وجعلهم أنسابًا، وبين ما فرضته حروب الدولة من ضرورة استمرار ذلك النظام العبودي، مُتمثِّلًا في سبايا تأتي من الحروب وانتصارات الدولة. ثم بين الدعوة إلى عقيدة جديدة تُؤسلِم جميع الناس تحت رايتها، وبين ضرورات فرضتها الظروف، حيث تم ترك كثير من القبائل على عقائدها فترة من الزمن، لكن مع مُوادَعتها وعقد المُحالَفات بينها وبين دولة يثرب النبوية، إزاء حرب تلك الدولة مع مكة، مع ما فرضته ظروف أخرى مُتأخِّرة في

[٧] أبو يوسف: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٩.

[٨] ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ص٧٣.

غزوات النبي على أصحاب الأراضي الخصبة، وقيمة تلك الأراضي التي كان يمكن أن تبور تمامًا؛ مما أدَّى إلى قرارات باتفاقيات مع أصحابها، تُقرِّهم على دينهم وعلى أرضهم، على أن يدفعوا شطر المحصول لحكومة يثرب، وما تطوَّر بعد ذلك في نظام الجزية.

ثم تطوُّر آخر على ذات الخط بين النقائض، عندما صبَّ الأمر كله بيد دولة يثرب النبوية، وامتلأت خزائنها بالخيرات، ليأتي نداء جديد بأن من يُعلِن إسلامه مُعترِفًا بوحدانية الله وسيادة رسوله، يضمن سلامة حياته وماله، على أن يدفع الضرائب للدولة في نظامَي الزكاة والصدقة؛ وهي مجموعة الخطوات التي اقتربت مرة وتباعَدت مرة من القرار بأن الدين عند الله هو الإسلام، وهي مجموعة التوازنات الوسطية التي تأرجَحت مع المُستجَدات والتطورات على أرض الواقع، وتركت بصماتها بين نقائض خلقت فجوات دائمة في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية، كانت تختل معها أثقال الميزان فتتأرجح كِفتاه إزاء الموقف الوسطي على الخط الفاصل بين توازنات النقائض؛ مما أعطى الفرصة دومًا لأقدار السياسة وبحرفية وسطاء الساسة المُحترِفين من رجال الدين، لتبرير مواقف تجد لها بين كِفتَي الميزان أثقالًا مُناسِبة حسب تغيُّر الأحوال عبر السنين.

صحيفة المعاقل

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

نص بصحيفة المعاقل

بين بدر وأحد تتوقف سرايا المسلمين عن مُداهَمة طريق الإيلاف، لكن مع شن حملاتها التأديبية على القبائل، مع ظاهرة جديدة تمثَّلت في شرع نظام الاغتيال، باغتيال رءوس القبائل وأشراف الناس وسراتهم وحكمائهم، وبدأ تطبيق ذلك النظام باغتيال كعب بن الأشرف الذي رثى قتلى بدر شعرًا، وتبعه قطع عدد من الرءوس خاصة بعد وقعة أحد.

وعند العودة الظافرة من بدر الكبرى، كان الوحي يسترسل طالبًا من المسلمين اليقظة والاستعداد لقتال أعدائهم، وذلك في النص ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠)؛ فأما عدو الله وعدو المسلمين فمعروف، وهم ملأ مكة، أما من هم أولئك الآخرون غير الملأ المكي الذين يعلمهم الله ولا يعلمهم سواد المسلمين؟ إنه ما أوضحته الأحداث التالية بنداء النبي ﷺ لرجاله: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه.» وهو ما تم تنفيذه بالفعل في عدة رءوس يهودية، وهو المنحى الذي جاءت مفاصله في آيات تنسخ حرية الاعتقاد، لتُنهي العمل بآيات من قبيل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، وتُلغي الصفح الجميل والصبر الأجمل، لتُؤكِّد معنًى جديدًا هو ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩).

وهي السياسة التي ابتغت انضواء اليهود الكامل، السياسي والعقدي، تحت لواء الدولة الجديدة وسيادة مُؤسِّسها، أو استئصال شأفتهم من يثرب. وهو الأمر الذي كان

سببه الوضع الخاص جدًّا باليهود، كأصحاب كتاب سماوي ودستور عقدي وأيديولوجيا تاريخية مُوثَّقة، وهو ما جعلهم المُنكِر الديني الحي لنبوة النبي العربي، مما كان يُشكِّل خطرًا دائمًا وحقيقيًّا على الدولة الوليدة وأيديولوجيتها العربية. وهو ما صب في إعلان واضح يُسفِر عن الهدف، فيما جاء مرويًّا عن الزهري عن عروة:

> نزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨). فقال رسول الله ﷺ: أنا أخاف من بني قينقاع. فسار إليهم ولواؤه بيد حمزة.[١]

ومن ثَم انجلت غزوة قينقاع عن هجرتهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم إجلاؤها عن المدينة، مع استيلاء المسلمين على كراعهم وأسلحتهم وأرضهم. ولكن لأن الرياح لا تأتي عادة بما تشتهي السفن، فقد أجمعت قريش أمرها على قتل محمد، بعد أن طال حصاره لها حتى كاد يقضي عليها، وذلك في الوقعة المعروفة بوقعة أحد، التي انهزم فيها المسلمون هزيمة مريرة، أدَّت بالبيهقي إلى تصوير حال يثرب بعد الهزيمة بقول واضح يقول: «... وفارت المدينة بالنفاق فورَ المِرجل.»[٢]

وترنَّحت الدولة «الطالعة»، وكان لا بد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ودءوب لا يكل ولا يهدأ، لإصلاح ما أفسدته أحد، وذلك بضرب كل من سوَّلت له نفسه الطمع في النيل من سلطان الدولة. ولما لم يكن مُمكِنًا الخروج في ذلك الظرف إلى قريش، والجروح لم تزَل طازجة، ومعنويات المسلمين في حضيضها، فقد اتجه السيف الإسلامي إلى اجتثاث الرءوس التي أخذت ترتفع وتتطاول على السلطان المحمدي في يثرب أو خارجها؛ ومن ثَم تدحرجت رءوس عدة، منها رأس «سلام بن أبي الحقيق» المعروف بأبي رافع، و«أبي عفك عمرو بن عوف»، و«عصماء بنت مروان عقيلة بن خطمة»، و«خالد بن سفيان» سيد هذيل، و«فاطمة بنت ربيعة» زعيمة فزارة ومحل شرفها وفخرها؛ ليكون هذا المسلسل من العنف والاغتيالات والتصفية الجسدية، إعلانًا عن أن السيف المحمدي وإن كُسِرت منه الذؤابة في

---

[١] ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص٣٥٣.

[٢] البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ج٣، ص٢١٦.

أحد، فإنه ما زال قويًّا مُقتدِرًا بل وعنيفًا، إعلانًا عن إصرار لا يتزحزح على استدامة الدولة والحفاظ على مُستقبَلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة.

بهزيمة أحد كان لا بد من وقفة مُتأنِّية، تُؤجِّل — مُؤقَّتًا — بعض القرارات، حتى يأتي الله بأمره، ويستعيد المسلمون — إبان ذلك التأجيل — قوتهم وتعافيهم المعنوي. كذلك دفعت الهزيمة في أحد سيد يثرب ليُفصِح لرءوس قريش الصلبة عن الأغراض البعيدة للدعوة؛ كي لا تتكرر مأساة أحد بهذا العنف. فهذا «أبو قتادة الأنصاري» تهزُّه مَناظر أهله مذبوحين في أحد، ومشهد الحمزة مبقورًا، فيُشير بالتمثيل بجُثَث قتلى قريش في أحد، لكن ليرد عليه سيد الخلق ﷺ مُفصِحًا برسالة تقول:

يا أبا قتادة

إن قريشًا أهل أمانة، من بغاهم أكبَّه الله تعالى إلى فيه، وعسى إن طالت بك مدة، أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله.[٣]

ومن هنا نعود إلى ابن سعد نسمعه وهو يقول في طبقاته الكبرى: «إن رسول الله ﷺ لما هاجَر إلى المدينة، صلَّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، وكان يُحِب أن يُصرَف إلى الكعبة، فنزلت عليه: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا. فوُجِّه إلى الكعبة. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يُصلِّي إلى بيت المقدس. ونزل فرض شهر رمضان بعدما صُرِفت القبلة إلى الكعبة بشهر، في شعبان، على رأس ثمانية عشر شهرًا من مُهاجَر رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ في هذه السنة بزكاة الفطر.»[٤]

وهو ذات ما أكَّده ابن الأثير في سرده لأحداث العام الثاني للهجرة، ولحظه ابن كثير الدمشقي، وهو يسرد أحداثًا ينسبها للعام الثاني للهجرة،[٥] في قوله:

وفيها — أي عام ٢هـ — حُوِّلت القبلة ... وفيها فُرِض صيام رمضان ... وفيها فُرِضت زكاة النُّصب وزكاة الفطر، وفيها خضع المشركون من أهل يثرب

[٣] الحلبي: السيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٥٢٥.

[٤] ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٣، ٥، ٨.

[٥] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، مج٢، ص١١٥، ١١٦.

واليهود ... صانَعوا المسلمين وأظهر الإسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود، وهم في الباطن منافقون ... قال ابن جرير: وفيها كتب الرسول ﷺ صحيفة المعاقل، وكانت مُعلَّقة بسيفه.[٦]

إن حديث ابن كثير هنا يحسم أمورًا كثيرة مُختلَفًا عليها بين كُتاب السير والأخبار؛ فهناك من يُشير إلى أن صحيفة المعاقل قد كُتِبت بين أهل يثرب جميعًا وبين المسلمين، وأنها كُتِبت بعد الهجرة مباشرة، بينما يذهب آخرون إلى توقيتها بنهاية العام الثاني للهجرة. وأهمية حديث المعاقل ترجع لارتباطه بأحداث أهم سبَّبته ونتجت عنه، وقد ذهب ابن كثير في مبتدأ فصله مع الكثرة القائلة بكتابة المعاقل مُبكِّرًا وقت الهجرة، بحيث تبدو يثرب جميعًا قد عمَّها الإيمان، وبحيث يظهر النبي ﷺ سيدًا يملك كل مُقوِّمات السيادة من الوهلة الأولى، فخضع لسيادته الجميع بما فيهم يهود يثرب، فكتبوا معه معاهدة تعاقلية، يردون فيها كل أمر إليه وحده. وقد ذهبنا في الجزء الأول من هذه الدراسة ذات المذهب، حتى نبَّهنا إلى ضرورة إعادة النظر في تزمين صحيفة المعاقل، الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن،[٧] وكانت إعادة النظر مَدعاة لنتيجة مَفادها إن القول بعقد المعاقل عند الهجرة مباشرة، أمر يُخالِف مُعطَيات الواقع، وشروط الفهم السليم، وكان للرجل في ذلك فضل غير منكور.

الواقع يقول بمُهاجَرة النبي ضعيفًا مُتخفِّيًا هاربًا من مدينته وأهله، إلى حمى أخواله في يثرب، ولاجئًا مع أتباعه إلى مدينة أخرى غريب عليها. وهو ما يُحيط الصورة — التي رسمتها كتب الأخبار والسير لذلك الاستقبال الهائل والطاعة العمياء والكاملة من اليثاربة لسيدهم المكي — بكثير من الشك وعدم القبول؛ حيث تُناقِض تلك الصورة الإخبارية بشدة بنود الصحيفة التعاقلية، التي وضعت أمر يثرب جميعًا بيد النبي ﷺ، في ذات الوقت الذي تُؤكِّد فيه ذات الكتب أن غالب أهل يثرب كانوا إما يهودًا أو وثنيين، وأن من دخل منهم في حِلف الدعوة كان في أعمِّه من المنافقين أو الدسائس على المسلمين؛ ومن هنا رجع ابن كثير عما قال في البداية ليُؤخِّر زمن صحيفة المعاقل إلى السنة الثانية للهجرة، بحيث تبدو الأحداث منطقية بشكل أكثر، وبحيث تبدو النتائج مُتفِقة مع مُقدِّماتها من أحداث، فاختار زمنًا تحوَّل فيه المسلمون إلى قوة قادرة على فرض هيمنتها.

[٦] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٢، ص١٨٧.

[٧] عبد الهادي عبد الرحمن: جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨. وقد ذهب الباحث المتميز إلى توقيت المعاقل بعد غزوة بدر مباشرة.

وللتحديد أو مُحاوَلة التدقيق في الزمن الذي كُتِبت فيه المعاقل، نجد أن غزوة قينقاع لم يرِد فيها — في أي رواية إخبارية — أية إشارة لتعاقُد المسلمين مع اليهود، كما لم نسمع بمُنابَذة يهود قينقاع للنبي بنقض العهود، كما حدث في وقائع أخرى تالية مع قبائل يهودية أخرى، وهو ما يُشير إلى أنه حتى غزوة قينقاع لم تكن تلك الصحيفة قد كُتِبت بعد؛ ومن هنا نظن أن تلك الصحيفة قد كُتِبت ضمن مجموعة الإجراءات الحاسمة مع التراجعات المحسوبة، التي تمَّت بعد هزيمة المسلمين في أحد.

ومعلوم أن هزيمة أحد قد هزَّت معنويات المسلمين بعنف، ودفعت المُناوِئين للتطاول عليهم، لكنها لم تقضِ على القوة العسكرية الإسلامية التي تنامَت وتضخَّمت منذ بدر الكبرى. وكان مَقتل ذلك العدد من المسلمين في أحد غير ذي تأثير حقيقي، وكان الأمر بعدها أمر معنويات تحتاج إلى ترتيق وإصلاح سريعَين؛ ومن ثَم نجد الحكاية الإخبارية تأتينا ببعض الروايات التي تُؤكِّد أن حملة النبي على القبيلة الثانية النضير، جاءت بعد وقعة «بئر معونة».[٨] ونحن نعلم أن بئر معونة قد وقعت بعد أحد بزمن، وبعد وقعة الرجيع التي وقَّتها الواقدي في صفر سنة أربع للهجرة،[٩] ونعلم أيضًا أن بني النضير قد نابَذوا النبي بنقض العهود والمواثيق في تلك الغزوة؛[١٠] مما يُشير إلى أن صحيفة المعاقل كانت قد عُقِدت قبل غزوة النضير، وفي الزمن الواقع بين غزوة أحد وبين غزوة النضير، وهو ما يمكن الكشف عنه في قراءة البيهقي:

> اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلًا من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبرًا، حتى نلتقي بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدَّقوا وآمنوا بك، آمنا بك. فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تُعاهِدونني عليه. فأبَوا أن يُعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يُعاهِدوه فعاهدوه فانصرف عنهم.[١١]

[٨] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٧٦.

[٩] نفسه: ج٤، ص٦٤.

[١٠] نفسه: ج٤، ص٧٧.

[١١] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص١٧٩.

ويُفهَم من الحديث هنا أن يهودًا أرادت اختبار نبوة النبي بالحوار المعرفي والفقهي الديني، لكن النبي رأى أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرَّد عليهم كتائبه العسكرية، وقاتَل النضير حتى نزلت على عهد مكتوب معه، ثم إن قريظة رضيت بالعهد دون قتال، ولا نعلم عهودًا تمَّت سوى صحيفة المعاقل، وهو الأمر الذي يُعضِّد ما ذهبنا إليه في توقيع المعاقل إبان محنة تطاوُل الرءوس بعد هزيمة أحد. وما يبدو لنا أن المعاقل قد تمَّت ضمن سلسلة الإجراءات السريعة التي حدثت لعلاج آثار أحد، لرفع روح المسلمين المعنوية، بإخضاع قبائل المدينة جميعًا للسلطان النبوي، وتأمين الجبهة الداخلية، في نفس الوقت الذي قدَّمت فيه دولة الإسلام تنازلًا تراجعيًّا وُضِّح في النص: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.»[١٢] وإذا كان الإخباريون يُصِرون على ربط صحيفة المعاقل زمنيًّا بمجموعة أخرى من الإجراءات تمَّت في ذات الزمن، مثل تحويل القبلة وفرض الزكاة والصوم العربي … إلخ، فمن المُحتمَل أن تكون تلك الإجراءات بدورها قد تمَّت ضمن مجموعة التراجعات التي أفرزتها أحد.

لقد كانت الحسابات التي سبقت الهجرة، واستمرت حتى غزوة بدر الكبرى، تعمل حسابًا لقوة اليهود بالمدينة، مما جعل النبي يُحاوِل استمالة اليهود والتقرُّب منهم لتحييدهم على الأقل؛ ففرض على أتباعه صوم يوم الغفران اليهودي «يوم كيبور/عيد الفصح»، وهو اليوم الأهم والأعظم في تاريخ اليهود، يوم خروجهم من مصر عبر سيناء لاحتلال فلسطين، بل واتجه النبي محمد ﷺ مع أتباعه وجهة اليهود في الصلاة، نحو أورشليم القدس، وقد سبق ذلك ورافقه آيات تُمجِّد أنبياء بني إسرائيل، الذين هم أسلاف اليهود الإسرائيليين وأجدادهم، وتُمجِّد التوراة ككتاب سماوي صادق ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤)، و﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾ (المائدة: ٤٣)، بل وتُمجِّد اليهود ذاتهم بتأكيد أن الله قد فضَّلهم على العالمين.

ومع ذلك ظل اليهود يهودًا، يستمسكون بدينهم ولا يرضون بمحمد سيدًا، رغم كل الإشارات والتوضيحات التي كانت تُصِر على تأكيد أن محمدًا من ذات النسل؛ فهو الحفيد البعيد لإسماعيل شقيق إسحاق بن إبراهيم، وأن القرابة العرقية قائمة، وأن انتظار اليهود لُخلِّص نبوي مُقبِل يجد صداه في النبي العربي الذي يُحقِّق نبوءة التوراة، حتى جاءت وقعة «أحد» لتستدعي تحرُّكًا سريعًا يكفل انضواء هؤلاء التام لسلطان الدولة لتأمين

[١٢] محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٥، ص٦١.

المدينة داخليًّا، فتمَّت صحيفة المعاقل كما جاء خبرها السريع عند البيهقي، مع تحرُّك آخر على مفصل قريش يُهدِّئ من عوارمها ويُطمئِّنها؛ فكان أن تم إلغاء الصوم اليهودي مع تقرير الصوم العربي الرمضاني، كما تم تحويل القبلة إلى كعبة مكة.

يقول ابن سعد: «نزل فرض شهر رمضان بعدما صُرِفت القبلة إلى الكعبة بشهر، في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من مُهاجَر رسول الله.»[١٣] ويُؤكِّد جميع أهل السير أن وقعة بدر الكبرى كانت في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، وهو ما يقوله ابن الأثير: «وفي السنة الثانية كانت وقعة بدر الكبرى في شهر رمضان في السابع عشر وقيل التاسع عشر وكانت يوم الجمعة.»[١٤]

لكن؛ إذا كان الصيام الرمضاني قد فُرِض في شعبان من ذلك العام، وكانت وقعة بدر الكبرى قد وقعت في رمضان من ذات العام، فلا أقل من أن نسمع من كتب الأخبار والسير عن ظروف المسلمين وهم صائمون، ومتى أهلُّوا بالصيام ومتى أفطروا، وهل قاتلوا صائمين أم مُفطِرين، وهي العادة مع كتب الأخبار التي تُفصِّل تلك الأمور وتُدقِّق بشأنها في كل غزوة، مثلما حدث بشأن تأخير الصلاة في غزوة «قريظة»، وما حدث بشأن الصيام الرمضاني في فتح مكة، حيث تجد تفاصيل صغيرة ودقيقة. والمعنى المقصود هنا هو أن الصيام الرمضاني لو كان قد فُرِض قبل بدر الكبرى، بينما بدر قد وقعت في شهر رمضان، لوجدنا لمسألة الصيام مكانها في سرد الأحداث البدرية وهو ما لم يحدث؛ مما يعني وجوب تأجيل الصيام الرمضاني والزكاة وتحويل القبلة وصحيفة المعاقل معًا إلى الفترة التي افترضناها، خاصة مع ارتباط تلك الأحداث في سياق واحد يُناسِب بعضه بعضًا، وهو الفرض الذي يقبل الخطأ كما يقبل الصواب.

وإعمالًا لذلك كله، فإن الآيات الكريمة التي تحدَّثت عن التوراة وهداها ونورها، وعن تفضيل الله لبني إسرائيل، والقص الطويل عن أنبياء التوراة من إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وداود وسليمان ... إلخ. كل ذلك أفرغ محتواه في الصحيفة التي عُقِدت بين جميع أطراف القوى في يثرب، والتي كانت أولًا نتيجة لتحوُّل حال المسلمين بعد بدر من ضعف إلى قوة، ومن لاجئين إلى مُواطِنين على ذات الدرجة. وكانت ثانيًا مُحاوَلة لفرض الهيمنة وإعادة الأمر كله لسيد المدينة الجديد بعد التهاوي المعنوي في

[١٣] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج١، ج٢، ص٨.

[١٤] ابن الأثير الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص١١٦.

هزيمة أحد؛ لتأمين الجبهة الداخلية ليثرب مُؤقَّتًا. كما كان لوقعة أحد نتيجة أخرى هامة، تمثَّلت في تحويل القبلة إلى الكعبة — هذا إن كان فرضنا صادقًا — في رسالة واضحة لكل الأعراب، أن قطع طريق الإيلاف وضرب مصالح الملأ الأنانية، لا يعني بالضرورة ضرب الرمز الديني المكي، ورسالة مُوجَزة برقية لأهل مكة أنفسهم تُهدِّئ من روعهم إزاء سيد يثرب. أما أصحاب السير والأخبار فلم يجدوا سببًا واضحًا يُعلِّل التحوُّل عن أورشليم إلى مكة، سوى ما ردَّده الإخباريون مع الطبري أن النبي: «كان يحب أن يُصلِّي قِبل الكعبة فأنزل الله: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ.»[١٥]

ثم جاء التحوُّل إلى الصيام العربي ليلتقي مع تقديس يوم العروبة (يوم الجمعة وكان يُسمَّى يوم العروبة) في وقت مُبكِّر، ليُعلِن في إشارات واضحة مَنحى التحوُّل. أما أبرز الشواهد على أن صحيفة المعاقل قد عُقِدت في ظرف يستعرض فيه المسلمون قوتهم، أنها عُلِّقت بسيف رسول الله ﷺ وهو ما لم يكن مُمكِنًا زمن الهجرة عندما كان المسلمون قلة ضعيفة لاجئة إلى يثرب، وكان تعليقها بسيف رسول الله رسالة ذات معنًى لجميع سكان يثرب وللمنافقين. ولحق ذلك جميعه تدريب آخر للمسلمين على نظام الدولة المُؤسَّسية؛ ففُرِضت الضرائب (الزكاة). أما أهم بنود الصحيفة التي كانت تُرفرِف على سيف النبي، فهي تلك التي قالت في مُفتتَحها: «هذا كتاب من محمد النبي الأمي.» وهو ما يُشير إلى المعاقل كفرمان صادر من سلطة النبي السيادية. فرغم أن المعاقل كانت بين أطراف، فإن تلك الأطراف لم تكن مُتكافِئة؛ لأن صيغتها وأسلوبها وإيحاءاتها، ناهيك عن ذلك الاستهلال في مُفتتَحها تُشكِّل قرارًا صادرًا من سيد قوي فوق بقية الأطراف، فهي بمثابة كتاب أمان من النبي لسكان يثرب، إضافةً إلى أن الصياغة لم تقُل: «هذا كتاب من محمد بن عبد الله.» إنما فرضت صفة النبوة على جميع المُوقِّعين أدناها، وهو الأمر الذي استثمر رغبة اليهود والمشركين اليثاربة في الأمان بعد سلِّ سيف الاغتيال وتجريد الكتائب بعد أحد، ليمنحهم سلامًا مشروطًا بسيادة المسلمين ونبيهم، وهو ما تُوضِّحه قراءة بقية بنود صحيفة المعاقل.

وضمن تلك البنود يأتي النص الذي يُؤكِّد أن المعاقل قد تمَّت:

> ... بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون على ربعتهم يتعاقلون

---

[١٥] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، ذ. ت، ج٢، ص٤١٦.

بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ويتم ذكر كل بطن من البطون وكل دار)، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم ... وإنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا مُحارِبين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وأن بطانة اليهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ... وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يُخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله.[١٦]

والمُطالِع لهذه البنود سيلمس فورًا أمرًا شديد الأهمية، حيث يتضح حصول المهاجرين على أساس اقتصادي يرفع عِبأهم عن إخوانهم اليثاربة، وإلغاء نظام المؤاخاة نتيجة ذلك. فالنص يُؤكِّد «المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط»؛ ومن ثَم أصبح على الأنصار أن يعودوا إلى معاقلهم الأولى «على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى». أما البند الذي يُؤكِّد بوضوح أن تلك الصحيفة لم تكن قد عُقِدت قبل بدر الكبرى، فهو تلك السلطة الواضحة في إرجاع كل الأمور بالمدينة إلى النبي ﷺ حتى الخروج من المدينة لليهودي لا يتم إلا بإذن محمد ﷺ. والأكثر بلاغة في كل هذا، أن الصحيفة سردت البيوت والأفخاذ اليثربية في معاقلها، وسط تلك الأفخاذ والبيوت تم وضع المهاجرين كأحد أبناء البلد وكفخذ من الأفخاذ اليثربية الأصيلة، بحيث اكتسب المهاجرون بصحيفة المعاقل وجودهم الشرعي، ليتحوَّلوا من لاجئين إلى مُواطِنين، بل أفصح الأمر عما هو أشد بيانًا، فغدا الأنصار تابعين لا مُجيرين ومتبوعين.

وكانت النغمة العروبية الواضحة في صيام رمضان وتقديس يوم العروبة، ثم العودة عن اغتراب القِبلة الأورشليمية إلى الكعبة العربية المكية، إشارةً واضحة إلى بدء التخلي عن مُمالأة يهود المدينة، والإفصاح بتلك الإشارات القوية إلى أن الأمر كله عائد في النهاية إلى أهل الله القرشيين، وأن القدس كله في محل كعبتهم، وهي الطمأنة لقريش وتأكيد أن الإسلام

---

[١٦] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٣، ص٢٢٣، ٢٢٤.

لا يُهدِّد أبدًا مصالح مكة السياسية ولا الدينية المرتبطة دومًا بالاقتصادية، وأن خط سير التاريخ يحث خُطاه إلى نتائجه النهائية، وأن الحروب جميعًا ما كانت إلا لتوحيد العرب بزعامة قرشية يُمثِّلها أشرف الخلق وسيدهم المصطفى ﷺ.

أما المعجزة القومية الكبرى التي قدمتها الدعوة إلى العرب، فتتمثل في إعلان أن رب الأديان الكبرى المُحيطة بالجزيرة، هو رب واحد، هو رب العالمين، وأن هذا الرب قد اختار محمدًا العربي، وأنه تكلَّم إليه باللغة العربية؛ ليسحب بذلك الامتياز الذي كان قاصرًا حتى ذلك الوقت على اليهود والمسيحيين ليمنحه للعرب المسلمين، الذين وصفهم ذلك الإله العالمي بأنهم خير أمة أُخرِجت للناس.

الباب الأول

دِيَة بني عامر

الوقائع من أُحُد إلى الخندق

غدر العربان

> ما أنا والله قتلت خبيبًا، لكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي ثم طعنه.
>
> معاوية بن أبي سفيان

بينما كانت السرايا والغزوات تُضيف باستمرار مزيدًا من التراكُم المادي والسلاح لدولة النبي اليثربية، فإنها كانت — من جانب آخر — تُسهِم باستمرار في ضعضعة الحكومة المكية وسيرها نحو الانهيار. هذا إضافةً إلى تعبئة القبائل المُجاوِرة لمكة، والتي آبَت — رعبًا وخوفًا وربما طمعًا — إلى حلف يثرب، مثل قبائل مزينة وجهينة، ناهيك عن قبائل أخرى حالفت يثرب طائعة مختارة كراهية في قريش، مثل خزاعة (الحارس القديم للكعبة المكية)، والتي سبق وخلعتها قريش وأقصتها عن مكة إقصاءً؛ ومن هنا وجدت خزاعة في محمد وفي يثرب حليفًا تُحارِب من خلاله قريشًا، فلعبت دورًا تجسسيًّا عظيمًا على قريش لصالح يثرب، كان له أثر بعيد في حسم أمور كثيرة لصالح الدولة اليثربية. ومع هذا وذاك، تمَّت عقود المُوادَعات بين يثرب وقبائل الساحل التي فضَّلت الخضوع ليثرب؛ رغبةً في مغانم قوافل قريش المارة بطريق الساحل، وتجنُّبًا لحرب يُؤذَنون بها من الله ورسوله.

وقد ترافَقت مع تلك الخطوات الخطوة الضرورية والحاسمة لهيبة الدولة في يثرب وسيادتها، بضرب المُنازِع الأعظم داخل يثرب، اليهود، الشاهد الديني القدسي الحي، صاحب دستور ينتسب للسماء، رفض التنازل عنه أمام الدستور القرآني الذي ينسب ذاته بدوره إلى السماء وإلى ذات الإله. وهو ما كان من غير المُمكِن استمراره في ظل دولة توحيدية

مُوحَّدة تحكم بدستور واحد وتعبد إلهًا واحدًا وتنتظم تحت إمرة قائد واحد؛ ومن ثَم شكَّلت كل تلك الخطوات المحسوبة بدقة وإحكام هيبةً عظيمة للدولة الطالعة، ساعَدت على اتساع سطوتها في المُحيط العربي، حتى جاءت وقعة أحد بضربة مُوجِعة وغير مُتوقَّعة على جدول الحسابات؛ وهو الأمر الذي أدَّى إلى ترنُّح هيبتها في نفوس الأعراب، وهو الأمر الشديد الخطورة آنذاك. ولم يكن مسلسل الاغتيالات الذي طال الرءوس من القبائل بكافٍ لإقناع العربان، بالكفاية القمعية للدولة، فكان أن شهدت تلك المرحلة بداية التطاول على الدولة اليثربية الطالعة.

وبينما المسلمون يلمُّون شعثهم في خطوات مُتسارِعة وحاسمة، بعقد المعاقل، وتكثيف السرايا المُسلَّحة، للإعلان أن الدولة لم تزَل قوية، وأنها وإن انكسرت في أحد، فإن يَراعها لم يزَل بإمكانه أن يطول ويضرب ويُؤدِّب لإخضاع القبائل؛ خرجت بسرعةٍ سرية أبي سلمة إلى بني أسد في المُحرَّم من السنة الرابعة للهجرة — بحسابات الواقدي — وبعد شهر واحد من هزيمة أحد.

لم تكن جراح أبي سلمة قد أبلَّت بعد، وكان الجرح الذي أصابه في أحد بعضده لم يزل طازجًا، وأمره النبي بالخروج على رأس السرية برجالها المائة والخمسين إلى مَضارب بني أسد. وعند وصوله مضاربهم فزع الأسود من سرية الرجل الجريح وهربوا تارِكين نعمًا كثيرة من الإبل والشياه، غنيمة للمسلمين، وأُسِر منهم ثلاثة.

ثم يحكي لنا «عمرو بن أبي سلمة» عن أبيه، أنه «لما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات، لثلاثةٍ بقِين من جمادى الأولى، فاعتدَّت أمي حتى خلت أربعة أشهر وعشر، ثم تزوَّجها رسول الله ﷺ ودخل بها في ليالٍ بقِين من شوال؛ فكانت أمي تقول ما بأس من النكاح في شوال والدخول فيه.»[1] والمعلوم أن أم سلمة كانت امرأة شديد الجمال قوية الشخصية ذرِبة اللسان فصيحته. ثم تأتي سرية عاصم بن ثابت إلى عضل والقارة.

عن أبي هريرة قال:

> بعث النبي ﷺ سرية عينًا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت ... فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذُكِروا لحي من هذيل يُقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم

---

[1] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٦٤.

بقريب من مائة رامٍ، فاقتصوا آثارهم ... حتى لحقوهم ... وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل رجلًا منكم. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا رسولك. فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق. فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلُّوا أوتار قِسِيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر. فأبى أن يصحبهم، فجرُّوه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه. وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا ... فخرجوا به من الحرم ليقتلوه ...[٢]

والنص أعلاه أورده ابن كثير نقلًا عن الواقدي، لكن ابن كثير لحظ اختلافًا بين رواية الواقدي وبين رواية ابن إسحاق، فقال:

ولنذكر كلام ابن إسحاق ليُعرَف ما بينهما من التفاوت والاختلاف:
قدم على رسول الله بعد أحد رهط من عضل والقارة، وقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يُفقِّهوننا في الدين، ويُقرِئوننا القرآن، ويُعلِّموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرًا ستة من أصحابه ... فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز، غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيل، فلم يرُع القومَ وهم في رحالهم إلا الرجالُ بأيديهم السيوف قد غشوهم؛ فأخذوا أسيافهم ليُقاتِلوا القوم، فقالوا: إنا والله ما نُريد قتلكم، ولكنا نُريد أن نُصيب بكم شيئًا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مُشرِك عهدًا ولا عقدًا أبدًا ... ثم قاتل حتى قُتِل، وقُتِل صاحباه. أما خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقُّوا ورغِبوا في الحياة وأعطَوا بأيديهم؛

[٢] نفسه: ص٦٤، ٦٥.

> فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر القوم، فرمَوه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران. وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما قريش بأسيرَين من هذيل كانا بمكة … وذكروا أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيمانًا وتسليمًا.[٣]

والتضارب هنا واضح جلي، في شأن الغرض الذي خرج له المسلمون الستة إلى ماء الرجيع بعضل والقارة؛ فهناك قولٌ إنهم كانوا جواسيس لرسول الله (سرية عينًا)، يستقصون أخبار هذيل، وهو فيما يبدو ما لم يرتَح له الطبري وابن الأثير وابن إسحاق، ربما لوجوب أن تأتي الأخبار المطلوبة من السماء دون عناء، أو بخبر الملاك جبريل، الذي كثيرًا ما ذكرت عنه صحف السير أنه كان يقوم بمثل تلك المهام للدولة وزعيمها؛ ومن هنا قال هؤلاء بخبر آخر، هو أن ما حدث كان كمينًا محبوكًا، حبكته لحيان ذلك البطن الهذلي بغرض النيل من هيبة الدولة التي اهتزت بعد أحد، ويبدو لنا أن ذلك الإجماع يجنح إلى الصواب، إذا ما تذكَّرنا أن العربان لا تترك ثأرها، وأن محمدًا ﷺ سبق وأرسل سرية اغتالت من هذيل رأسها «خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي»، وهو ما يُبرِّر الحدث ويُفسِّره. فما وصل الصحابة الأجلاء إلى ماء الرجيع، حتى برزت لهم هذيل، لتقتل منهم أربعة، وتأسر اثنين تُسلِّمهما لقريش هما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة.

ويُخبِرنا ابن هشام أن حجيرًا قد ابتاع خبيبًا، وأن صفوان بن أمية ابتاع زيدًا، وتم قتلهما ثأرًا، ويقول ابن هشام إنهم لم يعجلوا في قتلهما تعظيمًا لحرمة الأشهر الحرم، فلما انقضت خرجوا بخبيب من جوار الحرم الذي وضعوا قواعد أمنه، حيث صلبوه على خشبة بعيدًا عند ثنية التنعيم، وكان قاتله هو معاوية بن أبي سفيان، الذي حاول أن يُبرِّئ نفسه بعد ذلك بزمان، عندما دار الزمن دورته ليملك أعنة دولة الإسلام، فكان يُقسِم «والله ما أنا قتلت خبيبًا، لكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي ثم طعنه.»[٤]

---

[٣] نفسه: ص٦٦–٦٨. انظر أيضًا ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص١٦٧.

[٤] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٢٦.

لقد استهانت هذيل بالدولة اليثربية، وما جاءت استهانتها إلا بعد هزيمة أحد، وإزاء تلك الاستهانة انطلق لسان شاعر النبي حسان بن ثابت يهجو لحيان الهذلية، مُعبِّرًا عما آل إليه الأمر في يثرب يومذاك ليقول:

إن سرَّك الغدر صرفًا لا مزاج له   فأتِ الرجيع فسل عن دار لحيانِ
قومٌ تواصوا بأكل الجار بينهم   فالكلب والقرد والإنسان مثلانِ
لو ينطق التيس يومًا قام يخطبهم   وكان ذا شرف فيهم وذا شانِ[٥]

وكالمعتاد في مثل ذلك الأحوال، كان لا بد من شيء يُبلسِم الجراح، ولو بالجنوح إلى الخيال تستمد منه قوة الاستشفاء النفسي، بأسطورة تأتينا في شكل خبر يتم تناقُله بين كُتاب السيرة عن عاصم بن ثابت، الذي ثبت للهذليين حتى قُتِل رافضًا أن يُعطي بيدَيه. وكانت سلافة بنت سعد بنت سهيل قد نذرت حين أصاب عاصم ولدَيها في أحد، لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر، لكن هذيل لا تستطيع أن تأتي برأس عاصم، لماذا؟ لأن الله قد علم بنذر سلافة، فأرسل إلى جسد الشهيد جنودًا تحميه من هذيل، في شكل زنابير تجمعت على الدم المُراق، فلم يقدروا منه على شيء.[٦] ولا يرضى ابن الأثير بحماية الزنابير وينتهي الأمر، بل يأتينا بخبر أشد أسطرة فيقول إن الوادي قد ابتلعه؛ لأنه كان قد عاهَد الله ألا يمس مُشرِكًا ولا يمسه مُشرِك، فمنعه الله في مماته كما منع في حياته.[٧]

وهو الأمر الذي حدث له نموذج شبيه مع الأسير الثاني خبيب؛ فهذه ماوية مولاة حجير تحكي بعد ذلك بزمان روايتها العجيبة فتقول: «حُبِس خبيب بمكة في بيتي، فطلعت عليه يومًا وإن في يده لقطفًا من العنب، أعظم من رأسه، يأكل منه، وما في الأرض يومئذ حبة عنب.» ليُردِف البيهقي الذي آل على نفسه جمع العجائب، راويًا عن أمية الضمري الذي حكى لولده وعن ولده الذي حكى لحفيده، أنه تسلَّل ليلًا لإنقاذ خبيب

[٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره. ج٤، ص٧٠.

[٦] نفسه: ص٦٥.

[٧] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص١٦٨.

عن الصليب، ويقول: «جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها، وأنا أتخوف العيون، فأطلقته، فوقع على الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلًا ثم التفت، فكأنما ابتلعته الأرض، فلم يُذكَر لخبيب رمة حتى الساعة.»[٨] هذا رغم أن راوية ابن كثير تُوضِّح لنا دون لبس كيف اختفى جسد خبيب، برواية أمية الضمري ذاته، الذي أكَّد هذه المرة أنه حمل جثة خبيب على ظهره وسار به حتى تنبَّه له الناس، فأسرع برميه على الأرض، ثم يقول ما نصه: «وأهلت عليه التراب برجلي.»[٩]

ثم يأتي يوم بئر معونة

وهو يوم قبائل سليم، التي تكاثرت عليها سرايا يثرب وغزواتها تقفو بعضها بعضًا، عندما تداعى المسلمون في أحد لتجدها سليم فرصة الثأر وشفاء الغليل، فيما رواه أنس بن مالك، ويُشير إلى أن سليم قد سلكت مسلك هذيل ذاته، فذهب بعضهم إلى المدينة يستمد رسول الله ﷺ مددًا على عدو لهم، مُعلِنين اتباعهم له، فيمدهم النبي بأربعين من خيار المسلمين، ومعهم رسالة يحملها خال النبي حرام بن ملحان الأنصاري، إلى سيد بني عامر «عامر بن الطفيل»، الذي ما إن يُطالِع الرسالة حتى يُعمِل سيفه وسيوف سليم في الأربعين مسلمًا عند بئر معونة، ثم يُبقي على مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمري، فقط ليقول له مُتحدِّيًا: ارجع إلى صاحبك فحدِّثه. فخرج عمرو إلى رسول الله ﷺ فأخبره.

وحديث بئر معونة بدوره — في كتبنا الإخبارية — يحمل بعض التضارب، فرغم أن البيهقي بحديث أنس بن مالك قد قال إن سليم استمدت النبي المدد على عدو لها،[١٠] فإن ابن كثير يروي عن ذات الراوي أنس بن مالك رواية أخرى تقول:

> بعث رسول الله ﷺ سبعين رجلًا لحاجة، يُقال لهم القُراء، فعرض لهم حيان من بني سليم؛ رعل وذكوان، عند بئر يُقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما أردنا إياكم، وإنما نحن مُجتازون في حاجة للنبي ﷺ. فقتلوهم، فدعا النبي عليهم شهرًا في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت.[١١]

---

[٨] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص٣٣١.

[٩] ابن كثير: البداية، سبق ذكره. ج٤، ص٧٢.

[١٠] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص٣٤٢، ٣٤٨.

[١١] ابن كثير: البداية، سبق ذكره. ج٤، ص٧٣.

وهنا يختلف السبب، كما يختلف عدد المسلمين، هذا إضافة إلى رواية ثالثة تقول:

> قدم أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر، مُلاعِب الأسِنة، على رسول الله ﷺ بالمدينة، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يُسلِم، ولم يُبعِد. وقال: يا محمد لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة المعنق، ليموت في أربعين رجلًا من أصحابه من خيار المسلمين ... فلما نزلوا بعث حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا ... فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصية ورعل وذكوان والقارة، فأجابوه إلى ذلك. حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم حتى قُتِلوا عن آخرهم ... وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ... وأُخِذ عمرو أسيرًا فلما أخبرهم أنه من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل وجزَّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم.[١٢]

والرواية هنا تلتقي إلى حد كبير برواية عضل والقارة في أسبابها، وهو الأمر الذي لا يمكن قبوله؛ حيث يقع المسلمون في الخطأ ذاته مرتَين. ومن غير المعقول أيضا تصوُّر النبي ﷺ يُرسِل ببساطة خيرة رجاله إلى سليم، التي أخذها الرعب من النبي كل مأخذ، بعد السرايا والغزوات المتتالية عليها. كما أنه من غير المستساغ أبدًا أن يُرسِل النبي سبعين رجلًا ليُعلِّموا سليم أو عامر القرآن وقواعد الإسلام، بينما كان يكفي شخص واحد أو شخصان لأداء تلك المهمة، بدلًا من أن يفقد من رجاله عددًا لم يفقده في معاركه الكبرى. ثم لا يمكن أن نفهم كيف يذهب سيد من بني عامر هو ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين إلى سيد آخر من بني عامر أيضًا هو عامر بن الطفيل، ليستصرخ عليهم عامر بن الطفيل العامري قبائل أخرى هي قبائل سليم؟ إن هذا الإرباك لا ينجلي إلا إذا تصوَّرنا مُؤامَرة قد عقدتها سليم مع بني عامر، فما كان ممكنًا أن يستجيب النبي لدعوة كتلك من سليم، إنما كان ممكنًا أن يستجيب لبني عامر، خاصة إذا كان الداعي عامريًّا في كرامة وشهرة ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين لتقتلهم سليم.

---

[١٢] نفسه: ص٧٤، ٧٥.

كما يجب ألا نذهب مع القول إنه دعاهم ليُعلِّموا العامريين الإسلام فكان يكفي فرد أو اثنان كما قلنا؛ لذلك يجب قبول الرواية التي تقول إن ملاعب الأسنة قد استمدهم على عدو له، وللتشجيع — ربما — تم تحديد هذا العدو بعدوة النبي سليم تحديدًا؛ لمزيد من حبكة المؤامرة وجعلها قادرة على الإقناع والتمرير.

ومما يُعضِّد ذلك التفسير المُفترَض لما حدث، هو أمر ذلك الحلف الغريب الذي تتحدث عنه كتب السير والأخبار، الذي تم عقده بين النبي ﷺ وبين بني عامر، حيث يستمر ابن كثير في سرد قصة يوم بئر معونة ليقول إن عمرو بن أمية الضمري، الذي أطلقه عامر بن الطفيل ليُبلِّغ رسالته المُتحدِّية للنبي ﷺ «خرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا في ظل هو فيه، وكان مع العامريَّين عهد من رسول الله ﷺ وجواره، ولم يعلمه عمرو بن أمية. وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالا: من بني عامر. فأمهلهما حتى إذا ناما، عدا عليهما وقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأرًا من بني عامر. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ أخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ: لقد قتلت قتيلَين لأدينهما.»[١٣]

ومرة أخرى لا يترك مأثورنا حديث الأحاجي المُعجِز، فيقول الإخباريون: «لما قُتِل الذين ببئر معونة وأُسِر عمرو بن أمية الضمري، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل. فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة. قال: لقد رأيته بعدما قُتِل، رُفِع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض.»[١٤]

وهكذا تُروى المعجزة على لسان من لقَّبته كتبنا التراثية بعدو الله «عامر بن الطفيل»، ومع ذلك لم يُؤمِن الرجل رغم ما رأى؟! وبينما «البيهقي» يزيدنا إعجازًا بقوله: إن النبي دعا على ابن الطفيل فأصابه الطاعون وذلك في عام الوفود سنة تسع للهجرة. هذا بينما نجد ابن الأثير يُورِد سببًا آخر لموت ابن الطفيل، هو أن أبا براء ملاعب الأسنة الذي أجار مسلمِي بئر معونة قد رأى في قتل ابن الطفيل لهم تعديًا على إجارته، فطعن ابن الطفيل وهو على فرسه، فسقط ابن الطفيل ليموت وهو يقول: «إن مت فدمي لعمي.»[١٥]

---

[١٣] نفسه: ص٧٥.

[١٤] الموضع نفسه. انظر أيضًا ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص١٧٢.

[١٥] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص١٧٢.

ومع يقظة سليم وتحفُّز عامر، ومع ضرورة اتخاذ موقف ردع سريع برزت سياسة الاغتيال مرة أخرى، لتنتقم لشهداء المسلمين، فيُرسِل النبي يستدعي عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريش، ليُوجِّههما وجهة أخرى لقطف رأس كبير بأمره القائل: «اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتم منه غِرة فاقتلاه.» ويحكي ابن الضمري فيقول: «فأتينا مكة فطُفنا أسبوعًا وصلَّينا ركعتَين فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني،[16] فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية! فقاموا في طلبي وطلب صاحبي، فقلت له النجاء، هذا والله الذي كنت أحذر، أما الرجل فلا سبيل إليه فانج بنفسك. فخرجنا نشتد حتى أصعدنا في الجبل، فدخلنا في غار فبِتنا فيه ليلتنا وأعجزناهم هربًا، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار ...»[17]

ويتمكن ابن الضمري من الوصول إلى منطقة أبعد، عند غليل ضجنان، فيدخل غارًا يبيت فيه ويحكي: «فبينما أنا فيه إذ دخل عليَّ رجل من بني الديل بن بكر، أعور، طويل، يسوق غنمًا له، فقال: من الرجل؟ فقلت: رجل من بني بكر. قال: وأنا من بني بكر. ثم اضطجع معي فيه، فرفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولست بمسلم ما دمت حيًّا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت: سوف نعلم. فلم يلبث الأعرابي أن نام وغط، فقمت إليه فقتلته أسوأ قتلة قتلها أحدٌ أحدًا، قمت إليه فجعلت سية قوسي في عينه الصحيحة ثم تحامَلت عليها حتى أخرجتها من قفاه.»[18] ويُتابِع روايته «ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت في الطريق، إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسَّسان الأخبار، فقلت: استأسرا. فأبى أحدهما فرميته فقتلته، فلما رأى الآخر ذلك استأسر، فشددت وثاقه ثم أقبلت به إلى النبي ﷺ وقد ربطت إبهامه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي يضحك، ثم دعا لي بخير.»[19]

ومع فشل بعثة ابن الضمري لقتل سيد مكة، كان لا بد من عمل سريع إزاء قبائل سليم التي باتت ساهرة الأجفان تتوقع الثأر الآتي لا محالة، وبالفعل جاءها الغزو فجأة

[16] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٧٢.
[17] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٥١.
[18] الموضع نفسه.
[19] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٧٣.

بقيادة النبي نفسه، لكن لتهرب سليم جميعًا ويتركوا منازلهم وأنعامهم، فيجمع المسلمون أنعامهم ويعودون بها إلى يثرب فيما عُرِف بغزوة «قرقرة الكدر».[٢٠]

وكان من غير الممكن الاستمرار في الانتظار طويلًا للإيقاع بالناس وقعة كبرى تُعيد للدولة هيبتها، وتُعيد العربان إلى سابق انكماشهم؛ ومن ثم كان لا بد من تحديد هدف كبير، ولإيجاد سبب مُناسِب يكون مدخلًا إلى ضربة كبرى تُعيد إلى المسلمين ثقتهم في أنفسهم، وتُلقي الرعب في قلوب الذين كفروا.

[٢٠] الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٤٨٠.

غزوة النضير

اخرجوا من بلدي فلا تُساكِنوني بها ... وقد أجَّلتكم عشرًا فمن رُئِي بعد ذلك ضربت عنقه.

رسالة النبي إلى بني النضير

مرة أخرى نعود إلى خبر ذلك العهد الغامض والمُلتبِس بكتبنا الإخبارية، والذي عُقِد بين النبي ﷺ وبين بني عامر، ورغم المكيدة التي راح ضحيتها ما بين الخمسين والسبعين من خيار المسلمين في بئر معونة، والتي دُبِّرت بشكل غير واضح في مأثورنا، وقاد المذبحة الزعيم العامري «عامر بن الطفيل»، فإن أمية الضمري عندما قتل عامريَّين في طريق عودته، وجد النبي غير راضٍ عما فعل، بل أعلن أن عليه تأدية الدية في العامريَّين القتيلَين؛ لأن بينهما عهدًا، وهو العهد الذي لم يعلم به الصحابة، وهو ما يُوضِّحه عدم علم ابن الضمري الذي قتل العامريَّين.

والأكثر التباسًا أن يقول الطبري: «إن عامر بن الطفيل كتب إلى رسول الله ﷺ: إنك قتلت رجلَين لهما منك جوار وعهد فابعث بديتهما.»[1]

الأمر هنا غير مقبول إطلاقًا؛ فعامر بن الطفيل يكيد للمسلمين، ويقتل بمُعاوَنة قبائل سليم سبعين مسلمًا، ثم يُرسِل للنبي طالبًا الدية لعامريَّين قتلهما الضمري ثأرًا؟! ويُصبِح موقف النبي ﷺ غير مفهوم في إصراره ليس على الانتقام وإنما في أداء الدية

[1] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٥١.

لبني عامر! كما سبق وحدث بغزوته على أهل الرجيع ودار لحيان انتقامًا لسبعة فقط من رجاله في مؤامرة مثيلة؛ وعليه فما يبدو لنا أن السبب الواضح في الإصرار على دفع الدية للمُعتدي، كان إيجادًا لسبب هو أعظم وأجل، ألا وهو إجلاء بني النضير، تلك القبيلة اليهودية الكبرى عن يثرب، وخاصةً أن النضير كانوا حلفاء الأوس، وكان المنافقون من الأوس كُثُر، وهم من كانوا وراء غليان المدينة بالنفاق بعد هزيمة أحد، خاصةً أن كتب الأخبار التي أفاضت في أمر دية بني عامر، قد توقَّفت تمامًا عن ذكرها بعد غزوة النضير، حتى لا نعلم بعدها هل تم أداء تلك الدية فعلًا أم لا؟ كما لو كان أصحاب السير والأخبار يعلمون بدورهم أن دية بني عامر إنما كانت المدخل لإعلان الحرب على النضير؛ لتطهير يثرب، وتقليم أظافر المنافقين بإبعاد حلفائهم الأقوياء، ثم — من جانب آخر — تقوية الروح المعنوية للمسلمين بنصر وغنائم تُعوِّضهم عن هزيمة أحد.

ويتضح دور دية بني عامر والإصرار عليه فيما أدَّت إليه من نتائج باهرة، تُوضِّحها رواية الطبري عن النبي ﷺ عندما ذهب إلى بني النضير، يستعين بهم في أداء دية العامريَّين، بما أصبح بينهم وبين الرسول من تحالُف في صحيفة المعاقل، فتقول الرواية:

> فانطلق رسول الله ﷺ إلى قباء، ثم مال إلى بني النضير مُستعينًا بهم في ديتهما، ومع نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعلي وأسيد بن حضير. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذلك القتيلَين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه.[٢]

إن أي قارئ كان لا بد أن يتوقع من بني النضير تسويفًا أو مُماطَلة أو رفضًا، لكن يبدو أن يهود نضير قد قدَّروا الأمر تقديرًا عميقًا، فما زال خروج يهود قينقاع المهين ماثلًا في الأذهان، وهناك صحيفة معاقل تضمن لهم قدرًا من السلام لا يرجون غيره، مع مسلسل الاغتيالات الذي نال رجالهم المُقدَّمين، ناهيك عن معرفتهم أن المسلمين قد صاروا مُقتدِرين ماليًّا على أداء مثل تلك الديات بعدما حصَّلوه من مال نتيجة غزوة بدر الكبرى؛ ومن ثَم كانت الحكمة تقتضي إجابة مثالية واضحة، لا تُعطي أية فرصة لنقض صحيفة المعاقل ولما يمضِ عليها من الشهور سوى ستة، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. رغم ما في ذلك من نكاية بعهدهم مع بني عامر وحلفهم

[٢] الموضع نفسه.

معهم. وهو ما يُعلِمنا به ابن اسحاق، الذي أكَّد أن النضير مثلما كانت قبل الهجرة على حلف تآخٍ مع أوس يثرب، كانت على ذات الحلف مع بني عامر[٣] ومعنى أن يدفعوا الدية عن مسلمين، أنهم اتخذوا جوارهم وفكوا حلفهم مع العامريِّين.

ويُتابِع الطبري روايته فيقول إن يهود النضير عندما أجابوا النبي ﷺ إلى ما طلب:

> قام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعًا إلى المدينة. فلما استلبث رسول الله ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلًا مُقبِلًا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فقالوا: يا رسول الله، انتظرناك ومضيت. فقال: يهود همَّت بقتلي وأخبرنيه الله عز وجل.[٤]

أما كيف همَّت نضير بقتل النبي ﷺ وهو جالس وسط رجاله، وكيف علم النبي وحده بتلك المؤامرة؟ فهو ما تُخبِرنا به رواية ابن إسحاق وهو يقول: «فأتى رسولَ الله الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج عائدًا إلى المدينة.»[٥] وقد أخبرته السماء عبر وسيطها جبريل أن يهود نضير قد خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعدًا، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيُلقي عليه صخرة ويُريحنا منه.»[٦]

ومن ثَم لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء الصادق بخيانة بني نضير الواضحة، وهو الجلاء عن يثرب. وزيادةً في النكاية بهم أرسل النبي لهم واحدًا من الأوس هو محمد بن مسلمة، يحمل إليهم رسالة النبي ﷺ تُنذِر وتقول بلا لبس:

> اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجَّلتكم عشرًا، فمن رُئِي بعد ذلك، ضُربت عنقه.[٧]

---

[٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٧٦.

[٤] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٥١، ٥٥٢.

[٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٧٦.

[٦] الموضع نفسه.

[٧] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٤١.

لقد كانت نضير تظن عبر تاريخها الطويل أن يثرب بلدها هي، لكن ها هي الرسالة واضحة مُفصِحة تُؤكِّد أنها قد أصبحت بلد الرسول، وأنه سيدها، وأن عليهم مُغادَرتها فورًا وخلال أيام عشرة، أو يكونوا في خسر، تُقطَع بعدها منهم الرقاب إن ظلوا قائمين. ويقول البيهقي إن النضير لما رأت أن محمد بن مسلمة الأوسي يحمل لها تلك الرسالة القاسية، وهو كشخص بحد ذاته يُعَد رسالة أخرى من النبي لهم بخذلان الأوس لهم، تساءلت عن حلفها مع الأوس وعقدها قائلة لابن مسلمة: «يا محمد، ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس.» فقال محمد بن مسلمة: «تغيَّرت القلوب.»[8] أو بنص الطبري: «تغيَّرت القلوب ومحا الإسلام العهود.»[9]

وهنا يُعلِمنا ابن سعد عبر طبقاته أن عبد الله بن أبي بن سلول أرسل لهم يقول: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم؛ فإن معي ألفَين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة، وحلفاؤكم من غطفان.» ومن ثَم كانت إجابة زعيم النضير، الذي لقَّبته العرب سيد الحاضر والبادي، حيي بن أخطب: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.»[10]

وهو أيضًا ما أكَّده ابن كثير وهو يروي: «فبعث لهم أهل النفاق يُثبِّتونهم ويُحرِّضونهم على المُقام، ويعدونهم بالنصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمي حيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود.»[11]

وهنا تسترسل آيات الوحي تُنذِر وتتوعد وتقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (الحشر: ١١–١٢).

وكان الإنذار واضحًا لا يحمل أي لبس، وهو ما كان كفيلًا بتراجع المنافقين وحساب مواقفهم بدقة، بحيث لا نرى عند حصار المسلمين للنضير أي تحرُّك من جانب الأوس، ولا

---

[8] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص٣٦٠.

[9] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٢.

[10] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٤١.

[11] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٧٧.

من جانب ابن سلول وأشياعه. أما قريظة فقد فهمت الرسالة؛ ومن ثَم التزمت صحيفة المعاقل، وهو ما يقوله ابن سعد في تقريره:

> واعتزلتهم قريظة فلم تُعِنهم، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فأيسوا من نصرهم.[١٢]

أما الطبري فقد أفصح عن موقف قريظة في إعلان زعيمها كعب بن أسد:

> لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي.[١٣]

ويُحكى أن سلام بن مشكم قال لرفيقه حيي بن أخطب: «يا حيي، اقبل هذا الذي قال محمد، وإنما شرفنا على قومنا بأموالنا، قبل أن تقبل ما هو شر منه.» قال: «وما هو شر منه؟» قال: «أخذ الأموال، وسبي الذرية، وقتل المُقاتِلة.» فأبى حيي، وأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ: «إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك.» فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر المسلمون معه وقال: «حاربت يهود.»[١٤]

ويقول ابن كثير إن النضير لما «نابذوه بنقض العهود، عند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم ... فحاصرهم ست ليالٍ ...»[١٥] لكن يهود لم تستسلم، وهنا أمر النبي بهدم مساكنهم المنتشرة حول حصونهم، كما أمر بالمعاول وتقطيع النخل والأشجار وحرق المزروعات، فنادوه:

> يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال تقطيع النخل وتحريقها؟![١٦]
> ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مُصلِحون؟[١٧]

---

[١٢] الموضع نفسه.

[١٣] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٣.

[١٤] الموضع نفسه.

[١٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٧٧.

[١٦] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٢.

[١٧] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص١٨٢.

وقال الحلبي في سيرته:

> لما قُطِعت العجوة، شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل. وعند ذلك نادوه: يا أبا القاسم، ما هذا الفساد؟ يا محمد، زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أُنزِل عليك الفساد في الأرض؟ وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تُفسِدون؟![١٨]

قال السهيلي في شروحه:

> فوقع في نفوس المسلمين شيء من هذا الكلام.[١٩]

هنا لم يكن الأمر مسألة مبادئ تُوجَّه إليها الانتقادات والملامات، أو أفكار تُعاب، فالمعركة يجب أن تُحسَم، ولن تحسمها سوى القوة العسكرية لا الأخلاقيات التي قعَّدها قوم مُزارِعون وضعوا لها الأعراف لحماية زروعهم؛ وعليه فقد جاء الرد وحيًا يرفع الملامة عن النبي وصحبه، يُؤكِّد ألا ملامة في قطع الزرع وحرق النخيل، فكله بأمر الله وحده وإرادته، ليقول الآي الكريم: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر: ٥).

واستمر الحصار يومًا وراء آخر حتى بلغ خمسة عشر يومًا، وهنا «صالحوه على أن يحقن دماءهم وله الأموال والحلقة»،[٢٠] ولهم ما حملت الإبل. ووافق النبي الكريم ﷺ لكن حتى لا تحمل الإبل متاعًا، فقد أعطى لكل ثلاثة أفراد بعيرًا واحدًا يركبون عليه ويحملون عليه ما يمكن حمله.

وجاء وقت توزيع الغنائم، وفي ذلك يقول الحلبي: «كان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله تعالى إياه … وأكثر الروايات، أن أموال بني النضير أي مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم، حق لرسول الله خاصة له … حبسًا لنوائبه، وكان يُنفِق على أهله منها، وكانت صدقاته منها.»[٢١] وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال: إن أموال

---

[١٨] الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٤.

[١٩] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٢.

[٢٠] نفسه: ص٥٥٣.

[٢١] الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٧، ٥٦٨.

بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله، مما لم يُوجِف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله ﷺ خالصة.[٢٢] وهو ما جاءت بشأنه الآيات لتحسم أمره، حيث أوضحت أن المسلمين لم يبذلوا في سبيله ولم يُحارِبوا من أجله؛ ومن ثَم فهو أمر قد حدث بتفاوض بين النبي ﷺ وبين بني النضير؛ لذلك فهو من حق النبي وحده، حيث تقول الآيات: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ (الحشر: ٦). أما ما حدث لنضير فهو بأمر الله، حيث تُؤكِّد الآيات ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحشر: ٦).

وخرجت النضير من ديارها ذليلة مُهانة، يقودها حيي بن أخطب الذي عرفت له العرب فضل السيادة والشرف فلقَّبته سيد الحاضر والبادي، واتخذ المُرتحِلون طريق الشمال، لكن لينزل بعض سادة النضير على يهود خيبر مثل سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب مع جمهور من يهود النضير، بينما يستمر باقي الركب يقطع الفيافي باتجاه أرض الميعاد ليستقر هناك في فلسطين.

أما الآيات الكريمة فكانت تختتم الحدث، يتردد صداها بين فيافي الجزيرة ويسري مع الرياح يُسمِع مضارب القبائل في كل مكان، ورجع الصدى منه يُرجِف قلوب العرب ويصك أسماعهم، حيث تقول:

﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: ١–٤).

[٢٢] أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر، ومسلم في ٣٢ من كتاب المغازي ١٥، باب حكم الفيء، الحديث ٤.

تأديب العربان

فأبلغ أبا سفيان عني رسالة فإنك من غِر الرجال الصعالك

حسان بن ثابت

كان خروج النضير وسادتها من أشراف العرب وسراتهم بهذا الشكل المُزري، وانهيارهم أمام المسلمين رغم حصونهم التي كانت في نظر العرب معاقل كبرى، عاملًا عظيم الأثر في بث الرعب في قلوب العربان الذين لا يملكون حصونًا ولا صياصي. ورجَّعت الأصداء أخبار ذلك النصر المبين، فكنت حكاية العربان الراجفة المُزلزِلة، عن تلك القبيلة العربية يهودية الديانة، التي استقرت في يثرب قرونًا، وكوَّنت لنفسها بين العرب جليل المكانة، ليطيح بها السيف المحمدي خارج حدود جزيرة العرب جميعًا. وكان طبيعيًّا أن ترجف هذيل وتسفي رياح الحدث بأعصاب رجالها وتُشتِّت أمنهم، فثأر أصحاب الرجيع لم يزَل قائمًا، وكان تأديب فخذها اللحياني أمرًا آتيًا لا محالة، لكن لحيان الهذلية كانت قد وعَت درس أصحاب «بئر معونة»، الذين هربوا ما إن حُذِّروا بمقدم جند الله وتركوا الديار وفرُّوا فرارًا غير كريم؛ ومن ثَم باتت لحيان ساهرة الأجفان تتشمم الأخبار، بينما كان النبي يلج برجاله عليهم، لكن ليسلك طريقًا غير الطريق المضروب لدار لحيان، ليسقط عليها فجأة ويأخذ منها غرة. فسلك برجاله طريقًا وعثًا وعرًا نحو الشام؛ حتى يرى العرب أنه

يُريد أمرًا بعيدًا، لكن ليلتفت بجيشه التفافة كبرى لم تغِب عن عيون لحيان المرعوبة، فتركت له الديار ليصِلها فيجدها فراغًا، وأصحابها قد صعدوا رءوس الجبال وتمنَّعوا بوعورة بيئتهم، وأخذوا معهم أموالهم وأنعامهم في مواضع الأمان. وهنا اتخذ القائد خطًّا آخر ليستدير على مواضعهم المنيعة من طريق عسفان، ذلك الطريق شديدة الوعورة قرب مكة، مما كبَّد النبي وجيشه مشقة ووعثاء شديدتَين، لكن مكة ظنَّته قادمًا إليها، فخرج إليه خالد بن الوليد على رأس مائتَي فارس، وهو أمر لم يستعد له المسلمون، وكانت مُواجَهته تحتمل هزيمة يقينية؛ مما اضطر جيش المسلمين إلى إلغاء الحملة التأديبية الثأرية على لحيان الهذلية، بعد كل ما تكبَّده جيش المسلمين من مَشاق، مع الانسحاب الهادئ والمحسوب تجاه يثرب دون إثارة ابن الوليد وجنده، بعد التفاف واسع آخر، والعودة بلا أي مغنم وبدون تحقيق أي هدف للحملة، وهو ما ترك أثره فيما ردَّده النبي العائد برجاله وهو يقول دون أن يظفر بشيء:

> أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المُنقلَب، وسوء المنظر في الأهل والمال.[١]

ولم تنقضِ أيام بيثرب على الجند المكدود، حتى صدع الناس بأمر نبيهم للخروج على غطفان، التي كانت حليفًا للنضير، والتي وعدت بإمدادهم وتراجعت، لكن معنى ذلك أنها ركبت مركب العداء لحكومة يثرب ولصاحب الدعوة؛ ومن ثَم كان من الضروري إرهابها وتقليم أظافرها بغزوة تأديبية، هي الغزوة المعروفة بـ «ذات الرقاع»، التي أراد بها النبي بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، لكن غطفان علمت بمسيره فجمعت حشودها واستعدت استعدادًا عسكريًّا مُتميِّزًا لملاقاة الجيوش، ووصل المسلمون ليجدوا أنهم قد فقدوا عنصر المفاجأة، ورأوا أمامهم جيشًا مُستعِدًّا مُتجهِّزًا، ليروي لنا الطبري ما حدث في قوله: «ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضًا، حتى صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، ثم انصرف بالمسلمين.»[٢]

ومع الحملات الفاشلة على التوالي، كان لا بد أن يجد رواتنا عافاهم الله ما يسدون به الفراغ بين الانتصارات، فالتجَئوا كعادتهم إلى حديث المعجزة؛ ففي غزوة ذات الرقاع

[١] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٩٨.

[٢] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٦.

يروي لنا الإمام النويري رواية عجيبة تقول: «وفي هذه الغزوة جاءته — أي إلى الرسول — ﷺ امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان. ففتح فاه فبزق فيه وقال: اخسأ عدو الله، أنا رسول الله. ثم قال ﷺ: شأنك بابنك، لن يعود إليه شيء مما كان يُصيبه. فكان ذلك.»[٣]

وفي تلك الغزوة التي لم تُحقِّق شيئًا، نجد حديثًا آخر يملأ الفراغ بالمُسلِّيات من معجزات، حيث لا ملائكة، ولا دور عسكري يقوم به جبريل؛ فتقول إحدى الروايات إن المسلمين عانوا من الجوع إزاء ذلك الالتفاف الطويل، فنفدت مِيرتهم من الطعام، فعثروا على ثلاث بيضات نعام، فقال النبي للصحابي جابر: «دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات.» قال جابر: «فعملتهن ثم جئت بهن في قصعة، فجعلنا نطلب خبزًا فما نجد، فجعل النبي وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز، حتى انتهى كل إلى حاجته؛ أي إلى الشبع، والبيض في القصعة كما هو.»[٤]

ويبدو أن تلك الغزوة التي خاف فيها النبي والمسلمون القتال، حتى صلوا صلاة الخوف، كانت مَدعاة لكثير من حديث المعجزات؛ لملء فراغ كان يجب أن يملأه جند السماء، وهي معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية؛ فطرد الشيطان من الأجساد، وإطعام الجمع الغفير في القفر بالقليل من الطعام، معجزات معلومة للمسيح؛ فيسوع قد سبق وأخرج الشيطان من جسد ابن المرأة الكنعانية، كما أطعم جمعًا غفيرًا برغيف وسمكتَين بعد أن باركها، وبقيت فضلات تملأ أجولة. ثم تأتي هنا معجزة شبيهة بالمعجزات السليمانية، يتحول فيها النبي ﷺ إلى قدرة التحادث مع الحيوانات، وهو ما ورد في قصة البعير الذي جاء وحدَّث النبي بشكواه فأنصفه.[٥]

ومن خبر ذات الرقاع تنقلنا كتب السير إلى غزوة بدر الآخرة، حيث كان أبو سفيان قد تنادى بالمسلمين المُختبِئين فوق الصخرة في غزوة أحد قائلًا: «يومًا بيوم بدر، وإن بدرًا موعدنا العام المُقبِل.» وقد حان موعد اللقاء المضروب، بمرور عام كامل على وقعة أحد.

[٣] الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٥٧٦.

[٤] نفسه: ص٥٧٧.

[٥] نفسه: ص٥٧٨.

ويحكي لنا ابن هشام خبر غزوة بدر الآخرة بقوله: «ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان، حتى نزله، واستعمل على المدينة عبد الله بن أبي سلول ... فأقام عليه ثماني ليالٍ ينتظر أبا سفيان.[٦] لكن أبا سفيان لم يأتِ لموعده بعدما علم بخروج المسلمين مُستعِدين إلى سوق بدر، حيث نزلوا مُسلَّحين بالعتاد وبالتجارة، مُتجهِّزين لكلا الأمرين. ولما كانت بدر سوقًا للأعراب، يطلب فيها التجار الأمن والأمان، فقد جاء مخشى بن عمرو الضمري إلى النبي، وكان قد كتب عهد مُوادَعة مع النبي عندما غزاهم رسول الله ﷺ غزوة ودان، ليسأل النبي ﷺ:

يا محمد، أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟

لقد جاء الرجل يتساءل، وماء بدر في حمى بني ضمرة، لا يريدون عليه حربًا، ويطلبون له الأمان والسلام للرواج التجاري، لكن ليُجيبه النبي بالقول القاطع والحاسم:

نعم يا أخا بني ضمرة، وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، وجالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

لكن ليُجيبه الرجل من فوره:

لا والله يا محمد، ما لنا بذلك من حاجة![٧]

ويُخبِرنا الواقدي أن النبي ﷺ قد خرج إلى بدر الآخرة في ألف وخمسمائة من الجند المُسلَّحين، وأقام على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدةَ الموسم وهي ثمانية أيام، والسوق قائمة، والمسلمون يُتاجِرون وهم يحملون السلاح، فكان لا يُنازِعهم في السوق مُنازِع، فربحوا عن الدرهم درهمَين.[٨] ليُعقِّب الوحي الكريم على الحدث بقوله:

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤).

---

[٦] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٤٨.

[٧] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٨٩.

[٨] نفسه: ص٩١. انظر أيضًا الحلبي: السيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٠.

وهكذا أسفر أمر بدر الآخرة عن إعلان لجميع العربان بجبن أهل الله المكيين عن الخروج لملاقاة جند الله اليثربيين. جبنت قريش وتراجعت وأخذت تخسر أسواقها، بعد أن خسرت طريق الشام المار بالمدينة، وانهارت سمعتها بين الأعراب. وزيادةً في تمريغ تلك السمعة وإظهار هوان قريش، أرسل كعب بن مالك رسالة شعرية — يُردِّدها العربان — لأبي سفيان، تُعيِّره هو وقريش وتقول:

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد   لميعاده صدقًا وما كان وافيا
فأُقسِم لو وافيتنا فلقيتنا   لأُبتَ ذميمًا وافتقدتَ المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه   عمرًا أبا جهل تركناه ثاويا

أما حسان بن ثابت الذي يجبن عند الحرب، ويُرسِل لسانه سليطًا عند الحاجة، فقد أرسل برقية تقول:

فأبلغ أبا سفيان عني رسالة   فإنك من غِر الرجال الصعالكِ[٩]

وهو الأمر الذي آذى قريشًا، حتى جاء صفوان بن أمية إلى أبي سفيان لائمًا يقول: «قد والله نهيتك يومئذٍ أن تعِد القوم، وقد اجترءوا علينا، ورأوا أنا أخلفناهم، وإنما أخلفنا الضعف.»[١٠]

هذا ما كان عليه حال قريش. أما حال يثرب فلم يكن مُرضيًا لأهلها؛ فالحملات تفشل، والعربان تتطاول، والدولة بحاجة دائمة إلى أعمال كبرى تُعلِن دومًا عن حجم القوة الإسلامية. وهنا يحكي لنا ابن كثير أنه قد بلغ النبي أن الدنو من أبواب الشام، أمر سيُفزِع قيصر الروم فزعًا شديدًا، وكان الخبر هامًّا، فليس هناك رسالة للعربان أفصح ولا أقوى من فزع عظيم الروم ذاته.

وإعمالًا للخبر «ندب رسول الله ﷺ الناس، فخرجوا في ألف من المسلمين، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بني عذرة، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بني تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب،

[٩] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٤٩.
[١٠] الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٥٨١.

وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرَّقوا، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم، فلم يجد فيها أحدًا، فأقام فيها أيامًا، وبث السرايا، ثم رجعوا وأخذ محمد بن مسلمة رجلًا منهم فأتى به رسول الله، فسأله عن أصحابه، فقال: هربوا أمس.»[11]

هكذا وصلت أخبار الجيش المحمدي، وهكذا كان أهل الحدود البيزنطية يسمعون بما يحدث في باطن الجزيرة؛ لهذا كان تصرفهم عندما سمعوا بمقدمه عليهم، وكانت إجابة أكيدر حاكم دومة الجندل على غزوة النبي بعد عودته إلى يثرب، فهي أن «أرسل إلى رسول الله ﷺ بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب.»[12]

وفي طريق العودة من دومة الجندل، رأى النبي أن يمر بمضارب فزارة وهو في استعداده العسكري هذا، ولم يجد عيينة بن حصن الفزاري سيد فزارة سوى مُوادَعة سيد يثرب، وكانت مُوادَعة عيينة مكسبًا لو صدق، حيث كان بإمكانه أن يجمع عشرة آلاف فتًى من المُحارِبين عند الحاجة؛ ومن هنا منحه النبي عهدًا يرعى بموجبه سوائمه في تغلمين عن قرب من يثرب، حيث أجدبت أراضي عيينة، ومر المسلمون بسلام عائدين إلى المدينة.[13] ولم تمضِ أسابيع حتى كان عيينة يعدو على سوائم رسول الله ﷺ ويقتل رعاته ويعود إلى أرضه بما غنم من أموال النبي ﷺ.

هذا بينما كانت قريش في أمر آخر، تحسب حساباتها، وتُراجِع أمر تجارتها، وما شاع بين العربان عن جبنها.

---

[11] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٩٣. انظر أيضًا البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص٣٨٩، ٣٩٠.

[12] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٣١.

[13] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٤. انظر أيضًا الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٢.

غزوة الخندق

> كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.
>
> معتب بن قشير الأنصاري

خطوات سريعة، تلك التي اتخذها رسول الله ﷺ من أجل تطهير المدينة وخلاصها للمسلمين، تم بها تصفية كثير من المُعارِضين من المنافقين والمشركين واليهود، وقبلها كان قد تم طرد يهود قينقاع، ومن بعد أحد تم عقد المعاقل — فيما ذهبنا إليه من اجتهاد افتراضي — لكن النبي كان يعلم يقينًا، أن وجود يهود بكتاب مقدس، ومأثور تاريخي، وسلسلة من النبوات قفَت بعضها بعضًا، يعني وجود مُنكِر دائم لنبوته، وداخل مدينته، وفي عقر دار دولته الصغيرة؛ ومن ثَم كانت تلك الخطوات المُتسارِعة لتطهير يثرب، بطرد بني النضير، وسيدهم حيي بن أخطب ذلك الشريف السيد الداهية، الذي ما خرج من يثرب إلى خيبر، حتى أخذ سادة النضير وأشرافهم، سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وانحدر بهم إلى مكة، ليُدرِك ثأره من محمد.

وكانت سرايا المسلمين وغزوات النبي، قد أرهقت قريشًا وقطعت سبيلهم إلى الشام، ثم جاءت سلسلة سرايا الاغتيال، التي ألقت نتائجها مُوادَعات وتحالفات للقبائل الضاربة على الطريق التجاري، مع محمد ورجاله مما قطع إيلافهم مع قريش، ووصل الأمر بقريش إلى الجبن عن ملاقاة محمد على ماء بدر في بدر الآخرة، رغم أن أبا سفيان صاحب اللواء القرشي، كان صاحب الموعد التهديدي في أحد؛ ومن ثَم استجابت قريش من فورها لسعاية يهود نضير، الذين أخذوا على عاتقهم إقامة حلف عظيم بين العرب مع قريش، لضرب العصبة المؤمنة في يثرب، ضربة قاتلة ونهائية.

وهكذا أسفرت دية بني عامر عن طرد يهود النضير، لكنها أفرزت أيضًا أول جمع عظيم لجند قريش، مع أحابيشها المُتحمِّسين في الدين، المُعظِّمين للكعبة والأشهر الحرم، وكانوا يرون محمدًا قد خرق تلك التحريمات فجازت عليه الحرب، ثم فرسان كنانة وأهل تهامة وأشاوس غطفان وأشداء نجد، وكان هؤلاء بدورهم قد وُتِروا في زعامتهم المغدورة، ولم ينسَ الغطفانيون من بني فزارة مقتلة عقيلتهم الشريفة أم قرفة، التي مزَّقها زيد بن حارثة في غزوة مُفاجِئة أخذتهم على غر، لكن غطفان لم تكن ذات مصالح مباشرة مادية في تلك الحرب الشاملة، ولأن اليهود قد أدركوا ذلك فقد تعاقدوا مع الطماع الأحمق المُطاع عيينة بن حصن الفزاري على اتفاق يحصل بموجبه عيينة على تمر خيبر لمدة عام كامل، فوافق من فوره.[١]

وتحرَّك الجيش العظيم، الذي يربو على عشرة آلاف من المُقاتِلين الأشداء، بين فيافي الحجاز مُيمِّمًا شطر يثرب، ليكون أول جيش يجمعه العرب بهذا الحجم تعرفه جزيرة العرب تحت قيادة واحدة، وتحت رايات قريش، لينزل الجمع الهائل بمجمع الأسيال من رومة بين الجرف والغابة، قرب جبل أحد، مركز الانتصار الأول لقريش، ولم تكن المعركة هذه المرة بغرض الانتقام فقط، إنما بغرض التصفية النهائية، وهو الأمر الذي بلغ يثرب فقامت من فورها بالتعبئة القصوى، لكن لتصل تعبئتها فقط إلى ثلاثة آلاف رجل، إزاء جيش جرَّار من المُحارِبين. ووقع في أيدي المسلمين!

ويُوجِز لنا ابن هشام قصة تحزيب الأحزاب في قوله:

> كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس ... كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من النضير ونفر من بني وائل، هم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ... ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب،

[١] البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ج١، ص٣٤٣.

> وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف ... في بني مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع.[٢]

ويستكمل الطبري:

> فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ضرب الخندق حول المدينة ... وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسي، وقال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حُوصِرنا خندقنا علينا.[٣]

ومعلوم أن الخندق أمر لم تعرفه العرب قبلًا، ووافق الرسول من فوره على الخندق الفارسي واستحسنه، ووجد فيه خلاصًا مُفاجئًا، وفكرة لَّماعة لإيقاف الهدير الآتي؛ ومن ثَم كانت مكافأة صاحب الفكرة المُنفَّذة في قول الرسول الكريم ﷺ: «سلمان منا آل البيت.» حيث جاء الخندق ليكون إنقاذًا حقيقيًّا لموقف ميئوس منه، وكان القائد النبيل سيد الخلق أجمعين، قد استفاد من درس أحد وأخطائها، ومشورة عبد الله بن أبي بن سلول، التي كان قد أهملها زمانها وسط حمية رجاله وحماسهم للخروج من يثرب إلى أحد. وأدرك القائد أنه إزاء حشد لن يعود إلا بعد إسقاط دولته، والقضاء عليه وعلى رجاله؛ ومن ثَم كان الخندق إنقاذًا للموقف على عدة مستويات:

الأول: أن حلف الأحزاب قد قام بغرض خوض معركة خاطفة حاسمة تُنهي دولة الرسول في يثرب وتُسقِطها، اعتمادًا على حشده لقوًى بشرية عظيمة، بينما اتجهت خطة النبي ﷺ إلى تحصين المدينة بالخندق لإفقاد الحلف مزية المعركة السريعة الحاسمة، وإجباره على المكوث في البرد القارس، وهو ما كان كفيلًا بفقد الأحزاب لزخم القتال، وما قد يطرأ من نتائج وخيمة مع طول الانتظار، خاصة مع ما يحمله هذا الحلف من تناقضات بين المُتحالِفين؛ وبذلك أفقد الخندق المُهاجِمين عوامل انتصارهم، وأطاح بالتفوق العددي.

ثانيًا: كان الخندق تأمينًا عسكريًّا لم يسبق للعرب معرفته، حيث يضمن أكبر قدر من الأمان لمن هم في داخل يثرب، لديهم الغداء والمِيرة، بينما يَترك المُهاجِمين في العراء مع

[٢] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٥٨، ٢٥٩.

[٣] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٦.

ما جمعوا من ميرة — مهما كان حجمها — فهو حجم ما أمكن للدواب حمله، وهو آيل إلى نفاد إن طال الحصار دون اختراق الخندق.

ثالثًا: إن الخندق قدَّم حلًّا مثاليًّا لمشكلة كبرى وهو ما أوضحه عبد الهادي عبد الرحمن، فضمن عدم وقوف المسلمين وحدهم لملاقاة الأحزاب، إنما ضمن بقاء بقية سكان يثرب من غير المسلمين بالداخل، وهو الضمان الذي جعل من لم يُسلِموا بعدُ والمنافقين في محنة كبرى؛ ففي العراء يمكن للمنافقين ألا يُحارِبوا، بل أن يجدوا فرصة وغِرة من المسلمين وقت هياج المعركة واختلاط الحابل بالنابل. أما وهم بالداخل، وإزاء جيش سيضطر إلى العبور إن استطاع ليستأصل الجميع دون تفرقة، فهو ما يعني أن يثرب أصبحت تتعرض لغزو حقيقي، ودخول الغزاة على أهلها، وهو ما يعني أيضًا أن كل فرد بالمدينة قد انخرط راغبًا أم غير راغب في جيش الدفاع عن بلده، وسواء كان مسلمًا أم لا. لقد حوَّل الخندق أمر المدينة إلى وطن، وأجَّج الشعور الوطني، فلكل رجل زوجة وأطفال ومال وبيت وحقل يُدافِع عنهم. لقد جعل الخندق من المعركة غزوًا لوطن ودفاعًا وطنيًّا؛ ومن ثَم سيُحارِب الرجال والبيوت، وسيُحارِب الشجر، وسيُحارِب الحجر، وستُحارِب النساء بل وربما الأطفال، سيُحارِب المُشرِك والمُنافِق. إن الخندق كان دعوة لقريش وأحزابها لغزو حرمة بلد وبيت ودار، فحوَّل المدينة جميعًا إلى رجل واحد، وحوَّل مُعادَلة الثلاثة آلاف جندي إزاء العشرة آلاف إلى مُعادَلة أخرى، إلى شعب يُدافِع عن وطنه ضد غُزاة، شعب تكتَّل جميعه مع دروب بلده وحوائطها وزرعها وسوائمها، إزاء جيش وإن كان عظيمًا فهو يفترش العراء، بعيدًا عن دياره، يأكل ميرته لتنقص كل يوم، ليس بينهم ألفة، فهم أحزاب لا أهل بلد واحد، يأكلون بعضهم بعضًا بتضارب المصالح بينهم. إنه الأمر الذي لا محالة يستدعي الآن وبقوة نصيحة عبد الله بن أبي بن سلول وهو يقول للنبي في أحد:

> يا رسول الله، أَقِم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشرٍّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.[٤]

---

٤ السهيلي: الروض الأنف، سبق ذكره، ج٣، ص١٤٩.

وهكذا ما إن بلغ سيد المدينة ﷺ أمر مسير يهود بين العرب لتحزيبهم حتى ضرب الخندق الفارسي لأول مرة في جزيرة العرب، ثم نرى هذا السيد، النبي، الرسول، القائد، في مرآة قادة التاريخ، وهو يقف نموذجًا بين رجاله، يحمل أتربة الخندق، ويضرب بفأسه مع رجاله كتفًا بكتف ويدًا بيد.

ولم تتوانَ قريظة عن الوفاء بمعاقلها مع النبي، فأمدت جيشه بآلات عظيمة للحفر ونقل الأتربة، وهو ما قرَّرته كتبنا الإخبارية وهي تمر على الخبر سريعة دون توقُّف، في برقية مُوجَزة مُقتضَبة تقول: «واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة، ومساحي وكرازين ومكاتل.»[٥]

ونستمع هُنَيهة للصحابي البراء وهو يروي نتفًا من أيام حفر الخندق فيقول:

لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ الخندق، رأيته ينقل التراب من الخندق، حتى وارى عني التراب جلد بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا، ولا صلينا
فأنزِلنْ سكينة علينا
وثبِّت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغَوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبَينا

ثم يمد صوته بآخرها: أبينا، أبينا.»[٦]

ويستكمل ابن إسحاق قصة الخندق فيقول:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال من رومة، بين الجرف وذوي غابة، في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم

---

[٥] الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٦٣٢.

[٦] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٩٨.

من بني كنانة وأهل تهامة. وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذي نقمي إلى جانب أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب عسكره هنالك، والخندق بينه وبين القوم ... حتى وقفوا على الخندق. فلما رأوه قالوا:
والله إن هذه لَمكيدة،
ما كانت لِتكيدها العرب.[7]

هنا وجدت قريش وأحزابها إزاء تكتيك عسكري جديد لم تكن تعرفه العرب، ووقع في أيديها؛ ومن ثَم أرسل سيد الأحزاب إلى سيد المدينة يستفز فيه القتالية العربية، ليخرج إليه من وراء الخندق قائلًا فيما كتب:

باسمك اللهم

فإني أحلف باللات والعزى، وأساف ونائلة، وهبل، لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد ألا أعود أبدًا حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بالخندق، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب لتعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فرارًا من سيوفنا ولقائنا، ولك مني يوم كيوم أحد.

فكان رد سيد الخلق على سيد مكة يقول ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم
أما بعد

من محمد رسول الله، إلى صخر بن حرب، قد أتاني كتابك، وقديمًا غرَّك بالله الغرور، أما ذكرت أنك سرت إلينا، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا؟
فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليكم يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل، حتى أُذكِّرك ذلك يا سفيه بني غالب.[8]

---

[7] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١، ٢٦٣.
[8] الحلبي: سيرة، سبق ذكره، ج٢، ص٦٥٧.

معجزات الخندق

ثلاثة آلاف كبير وصغير وشاب وحدث، هي أقصى إمكانات التعبئة العسكرية، التي تمكَّنت يثرب من حشدها، إزاء عشرة آلاف مُقاتِل يُحاصِرون مدينتهم، وليس هناك خبر عن إمداد سماوي، ولم يأتِ جبريل وجنده؛ ومن ثَم وقف الرواة مع الحديث البديل عن التعبئة السماوية، مع تفاصيل بها عِبَر ووعود، وهي التفاصيل التي يمكن من خلال بعض الثغرات فيها المرور إلى حديث الأحاجي والمعجزات، ومنها رواية ابن إسحاق التي تقول:

> حُدِّثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليَّ، ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان عليَّ، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب ضربة فلمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى.
>
> قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟
>
> قال: أوَقد رأيت ذلك يا سلمان؟
>
> قلت: نعم.
>
> قال: أما الأولى فإن الله قد فتح عليَّ بها اليمن، أما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليَّ بها المشرق.[٩]

حتى الآن والأمر واضح ليس فيه ألغاز، وطبيعي تمامًا، فالرسول ﷺ يضرب الصخرة الغليظة بالمعول الحديدي فتقدح شررًا، فيتساءل سلمان، ويرد الرسول بالحكمة النبوية عن فتوحات قادمة، في وقت يحتاج فيه الجند إلى تقوية الروح المعنوية، وهم في أسوأ حال، وقد أخذ الرعب بهم، مع ذلك الحصار الهائل الذي تكتَّل فيه العرب كتلة رجل واحد ضدهم، وهو الرد الحكيم الكفيل بطمأنة النفوس الجازعة؛ فالدلالة فيه أن كل ذلك الذي يحدث زوبعة طارئة مُنتهِية، ليس ذلك فقط، بل إن الجزيرة جميعًا ستكون ملك أمر المؤمنين، وبعدها الفتوح الكبرى لأقطار الأرض جميعًا. ولكن ذلك الحديث الذي قصد

[٩] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

منه النبي بحكمته إذهاب الغم عن المؤمنين والكرب، تلقَّفته مع ذلك البرق اللامع، رواياتٌ تذهب به مع الزيادات التدريجية إلى دائرة الأساطير، وتتحول آمال النبوة المُقبِلة مع تلك الروايات إلى تجليات كبرى انفلت معها الشرر ليُصبِح ضوءًا مُبهِرًا مُعلِنًا وجود قدرات كبرى إلى جوار النبي ورجاله؛ حيث يروي النسائي ذات الرواية لكن مع بعض الإضافات فيقول:

> فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله برقة، ثم ضرب الثانية وقال: وتمت كلمات ربك صدقًا وعدلًا، لا مبدل لكلمات الله، وهو السميع العليم. فندر الثلث الآخر وبرقت برقة، فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: وتمت كلمات ربك صدقًا وعدلًا، لا مبدل لكلمات الله، وهو السميع العليم. فندر الثلث الباقي، وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس، فقال سلمان: يا رسول الله، رأيتك حيث ضربت لا تضرب ضربة إلا معها برقة. قال رسول الله ﷺ رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: إي والذي بعثك بالحق. قال: فإني حين ضربت الضربة الأولى، رُفِعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعيني. قالوا: يا رسول الله ادعُ الله أن يفتحها علينا، ويُغنِمنا ذراريها ونُخرِّب بأيدينا بلادهم، فدعا بذلك.
>
> قال: ثم ضربت الضربة الثانية، فرُفِعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني. قالوا: يا رسول الله، ادعُ الله أن يفتحها، ويُغنِمنا ذراريهم، ونُخرِّب بأيدينا بلادهم، فدعا.
>
> ثم قال: ثم ضربت الثالثة فرُفِعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني. ثم قال رسول الله: «دعوا الحبشة ما وادعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم.»[١٠]

ولا ينتهي حديث الصخرة والبَرْقات الثلاث إلى هنا، إنما يتزايد ويتضخم، لتتحول الشرارات الثلاث — التي رآها سلمان؛ لأنه كان بجوار النبي ﷺ والتي استدعت دهشة النبي وهو يسأل سلمان: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ — تتحول إلى برق إعجازي أسطوري

[١٠] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٠٣.

يُسجِّل آية عظمى، فيُدوِّنها ابن الأثير بعد صياغتها الجديدة، ليس فقط لإبراز المعجزة، إنما أيضا لإبراز قوة النبي الجسدية الهائلة التي صدعت الصخرة فيقول:

> فأخذ المعول، وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتَي المدينة فكبَّر الرسول ﷺ وكبَّر المسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، ثم خرج وقد صدعها. فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله ﷺ: أضاءت الحِيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى، وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثانية القصور الحُمْر من أرض الشام والروم، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها.[١١]

أما البيهقي، باعتباره صاحب كتاب دلائل النبوة، وجامع تلك الدلائل التي رآها جميعًا إعجازية، فقد وجد في قصة الصخرة مُناسَبة طيبة ليُقدِّمها بما يليق بها من دلائل النبوة، ليُكرِّر، ولكن ليُفصِّل القول بقوله:

> فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتَيها (أي لابتَي يثرب)، حتى لَكأن مصباحًا في جوف ليل مُظلِم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، فكبَّر المسلمون. ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فصدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتَيها، حتى لَكأن مصباحًا في جوف ليل مُظلِم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح وكبَّر المسلمون. ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتَيها، حتى لَكأن مصباحًا في جوف ليل مُظلِم، فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر المسلمون.
> فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط. فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب فخرج البرق كالموج، فرأيناك تُكبِّر ولا نرى شيئًا غير ذلك. فقال: صدقتم، ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحِيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب،

[١١] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص١٧٩.

> فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، أضاء لي منها قصور الحُمْر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل — عليه السلام — أن أمتي ظاهرة عليها. ثم ضربت ضربتي الثالثة، فبرق منها الذي رأيتم، أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل — عليه السلام — أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا.

ويُعقِّب البيهقي تعقيبًا واضح المدلول بقوله: إن الرسول أراد بذلك أن «يُبلِّغهم النصر».[١٢]

وقد استدعى حديث تلك الصخرة تداعيات وأخبارًا عن صخور أخرى وصياغات أخرى، وهو ما جاء في رواية ابن هشام عن ابن إسحاق، تقول:

> وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله عِبرة في تصديق رسول الله ﷺ وتحقيق نبوته، عايَن ذلك المسلمون؛ فكان مما بلغني، أن جابر بن عبد الله كان يُحدِّث أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية، فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق نبيًّا، لانهالت حتى عادت كالكثيب.[١٣]

وإذا كانت خاتمة حديث النبي ﷺ فيما رواه البيهقي «فأبشروا»، مع الإلحاق التوضيحي «يُبلِّغهم النصر»، كان القصد منها أن يرفع روحهم المعنوية بالاستبشار، بل ويُصبِح ذلك النصر سهلًا وبسيطًا هيِّن الشأن إذا قُورِن بما بيَّنته الأيام القادمة للمسلمين من فتوحات لأقطار الدنيا؛ فإن هناك من الصحابة من كان له رأي آخر إزاء حصار المدينة، وما أخذ المسلمين من رعب وفزع حتى بلغت القلوب الحناجر، فهذا معتب بن قشير يُعقِّب على حديث الصخرة والفتوح المُقبِلة ساخرًا، يقول برواية ابن الأثير:

> ألا تعجبون؟!
> يعِدكم الباطل!

---

[١٢] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص٤١٩.

[١٣] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٠.

ويُخبِركم أنه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تُفتَح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرَّزوا؟![14]

أو برواية ابن هشام:

كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؟![15]

ولهذا السبب، ولتلك القولة التي كانت تُعبِّر عن مكنون صدر الرجل إزاء حال واقع بصراحة العربي التي لا تعرف التزويق، وباندفاعه الحر، فقد أدرج أهل الأخبار معتب بن قشير في طائفة المنافقين، لكن ليُلاحِظ ابن هشام أن ابن قشير لا يمكن احتسابه منافقًا؛ لأنه كان من مُقاتِلي النصر البدري الأكبر، وهم من غفر الله لهم ما تقدَّم من ذنبهم وما تأخَّر، وأصبحوا جميعًا من أهل الجنة، وفي ذلك يقول: «وأخبرني من أثق به من أهل العلم، أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر.»[16] ورغم ذلك، فقد جاء الوحي يرد على ابن قشير قائلًا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب: ١٢).

ومع الحصار، واشتداد الأزمة، يستطيب رجالاتنا حديث الأحاجي ليستمرئوا الاستمرار فيه، فيروي ابن إسحاق:

وحدَّثني سعيد بن مينا أنه حدَّث أن ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتني أم عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أيْ بُنَية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما.
قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: تعالَي يا بُنَية. ما هذا معك؟ قالت: قلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني أمي به إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة، يتغذيانه. فأمر بثوب فبُسِط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدَّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في

[14] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص١٧٩.

[15] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١.

[16] الموضع نفسه.

أهل الخندق أن هلمَّ إلى الغداء. فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب.[١٧]

ومع الجوع إبانَ العمل الدءوب الذي يُسابِق الزمن قبل وصول قريش، تتتالى أحاديث الطعام المُبارَك، في معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية المعلومة، ومثله رواية أخرى عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله قال:

عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، فكانت عندي شُوَيهة غير جِد سمينة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ. فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئًا من شعير فصنعت لنا منه خبزًا، وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله ﷺ. فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف من الخندق، وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، قلت: يا رسول الله، إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئًا من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحده.
فلما أن قلت ذلك، قال: نعم. ثم أمر صارخًا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله. قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فأقبل رسول الله ﷺ وأقبل الناس معه، فجلس وأخرجناها إليه، فبارَك وسمَّى ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها.[١٨]

وذات الرواية تروي عن جابر أيضًا، لتُفسِّر السر وراء زيادة ذلك الطعام القليل ليكفي ألف رجل على الأقل ويفيض عنهم، فتقول:

وجئت امرأتي فقالت: بك وبك ... فأخرجت لنا عجينًا فبسق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبسق وبارك، ثم قال: ادعُ خبازة فلتخبز معك، واقدحي من برمتك، ولا تُنزِلوها، وهم ألف. فأُقسِم بالله لَأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا كما هو.[١٩]

---

[١٧] المصدر نفسه: ص٢٦٠.

[١٨] الموضع نفسه.

[١٩] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٠٠.

ورغم كل الأحاجي وروايات المعجزات، فإنك تلمس واقع الحال واضحًا، كما جاء في رواية ابن كثير التي شرحت كيف عظم البلاء على الناس، واشتد الخوف بالمسلمين، لا تُغنيهم فيه برمة تفور أو تمر وشويهة مُبارَكات، حتى ظن المؤمنون كل ظن، وأخذ كثير منهم يتهرب من العمل في ذلك البرد القارس، مثل أوس بن قيظي الذي جاء للنبي يتحدث نيابة عن قومه: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو، فأذَن لنا أن نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة. بينما طائفة أخرى تُهبِّط المعنويات وتُثبِّط الهمم وتقول للناس: يا أهل يثرب، لا مُقام لكم هنا فارجعوا. بينما يسترسل الوحي مُعقِّبًا على تلك المواقف المُتخاذِلة ليقول:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ١٣).

وهو ما يُؤكِّده تقرير الطبري عن فريق آخر، فقد «أبطأ على رسول الله ﷺ في عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا يُورون بالضعف من العمل، ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم الرسول.»[٢٠]

قريظة تنقض العهد

وحُفِر أكبر خندق عرفته الجزيرة، امتنع به أهل يثرب من هجوم الأحزاب، مع مُحاوَلات بائسة لعبوره من قبل المُهاجِمين، انتهت بفشل ذريع مع التراجع؛ مما أدخل الطمأنينة بعض الشيء في النفوس الجازعة لحصانة خندقهم، ولم يبقَ غير الانتظار لنفاد ميرة المُهاجِمين، ومُجالَدة كل من يُحاوِل اقتحام الخندق.

وقد أثبتت قريظة حتى حفر الخندق وعيَها الدقيق بموقفها الشديد الحساسية، وحتى لا يكون مصيرها مصير قينقاع ونضير، فالتزمت بنود صحيفة المعاقل، وأمدت المسلمين بالمساحي والمكاتل والكرازين، من أدوات الحفر اللازمة. وكان الموقف الدقيق يحتاج تحوُّطًا، فقد أحاط الخندق بالمدينة تمامًا، اللهم إلا جبل سلع بالخلف، كان بذاته

[٢٠] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٦.

مانعًا طبيعيًّا قويًّا، يكفيه بعض الرماة ليُصبِح حصنا منيعًا لا يمكن اجتيازه، ثم حصن قريظة القوي المتين على حافة المدينة وبمُواجَهة الأحزاب، يُطِل عليهم مباشرة. وهنا كانت نقطة الضعف التي كان يُدرِكها جميع الأطراف، المسلمون، وقريظة، والأحزاب؛ فكان يكفي أن تُفتَح أبواب حصن قريظة ليمر منها جند الأحزاب إلى داخل يثرب لينتهي الأمر فورًا. وقد وعى المُهاجِمون ذلك وقرَّروا اللعب عليه، فتحرَّك مُحزِّب الأحزاب «حيي بن أخطب» زعيم النضير المطرود من يثرب، ليدق أبواب حصن قريظة طالبًا لقاء زعيم قريظة «كعب بن أسد». وتُدوِّن هنا أقلام كُتاب السير والأخبار قصة ما حدث في ذلك الموقف الدقيق بقولها: «وخرج عدو الله حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادَع الرسول ﷺ على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب حيي بن أخطب، أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له.» فناداه ورد عليه في الحوار التالي، كما أوردته كتبنا الإخبارية:

حيي: يا كعب افتح لي.

كعب: ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشئوم، إني عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقًا.

حيي: ويحك، افتح لي أُكلِّمك.

كعب: ما أنا بفاعل.

حيي: والله إن أغلقت دوني إلا جشيشتك أن آكل معك منها.

وهنا، وحيي يستفز كعب، يُعيِّره بمسبة كبرى في العربان، وينعته بما هو أنكى من البخل وإغلاق الباب دون جائع، يفتح له كعب باب الحصن ليُغلِق خلفه سريعًا، ويستمر الحوار:

حيي: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها … قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه.

كعب: جئتني والله بذُل الدهر، بجهام قد هراق ماءه، يُرعِد ويُبرِق وليس فيه شيء. ويحك، دعني ومحمدًا وما أنا عليه، فلم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

وتستمر كتبنا الإخبارية في الرواية لتقول: «فلم يزَل حيي بكعب، يفتله في الذروة والغارب، حتى سمع له، على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يُصيبوا محمدًا، أن أدخل معك في حصنك حتى يُصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول الله ﷺ.»[٢١]

وهكذا تُقرِّر كتب السير أن قريظة قد نقضت العهد، لكنها لا تُوضِّح علامات ذلك النقض المحورية، والتي كان يمكن أن تكون قاتلة ونهائية لو فتحت أبواب حصونها، لكنها لم تفعل، ويبدو أن المقصود بالنقض هنا هو مُجرَّد تفكير قريظة، وإعمالها ذلك التفكير خلال أيام، تم فيها علاج الموقف المُتأزِّم من جانب النبي، قبل أن تسقط قريظة فعلًا في خيانة واضحة.

وبُلِّغ النبي بما له من عيون بما يحدث في حصون بني قريظة، وبلغ الأمر كذلك المسلمين المُجهَدين المكدودين الفزِعين، وأخذ بهم الخوف والرعب. فطلب النبي سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال لهم انطلقوا حتى تنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ ثم أضاف القائد الحصيف وهو يرى معنويات رجاله في التداعي: «فإن كان حقًّا، فالحنوا إليَّ لحنًا أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس.»[٢٢]

ووصل الوفد حصن قريظة «ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه، فقالوا: أكلتَ بأير أبيك.»[٢٣]

وهكذا بدأ الحوار بخطاب تهديدي، كان رده تحديًّا بجارح الألفاظ وقبيح الشتائم، وهو يُصوِّره ابن هشام بقوله: «إن رجال وفد النبي خرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين

---

[٢١] نفسه: ص٥٧١. انظر أيضًا ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١. انظر أيضًا ابن الأثير، سبق ذكره، ج٢، ص١٨٠.

[٢٢] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١.

[٢٣] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص٤٠٣.

محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ، وشاتموه، وكان رجلًا فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مُشاتَمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلَّموا عليه وقالوا: عضل والقارة (الرجيع)؛ أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه.»

وفهم النبي اللحن والرمز الهامس بكلمة السر الشفرية. وكان المسلمون ينتظرون إجابة وقد زاغت منهم الأبصار، فما كان من القائد الحكيم إلا أن رد بأنه لا شيء إطلاقًا يستدعي كل ذلك الفزع، وأن كل شيء على ما يُرام، وهو ما تمثَّل في صيحته التهليلية: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.»[٢٤]

وتأزَّمت الأزمة فعلًا، وكان لا بد من تحرُّك سريع وحاسم، قبل أن تُقدِم قريظة بالفعل على فتح أبوابها للأحزاب، وتستجيب لدافع العصبية والثورة لبني جلدتها نضير وقينقاع، حيث تُفيد مصادر أخرى أنهم اشترطوا على السعدَين لمُواصَلة الالتزام بالصحيفة، والاستمرار في المدد، إعادة بني النضير للمدينة.[٢٥] ومن ثَم بدأت دراسة الموقف مرة أخرى على أناة وهدوء وتدبُّر، لتصل إلى نتيجة مفادها أنه إذا كانت نقطة ضعف المدينة هي حصن قريظة، فإن بين الأحزاب نقطة ضعف أخرى هي غطفان الفزارية، أتباع الأحمق المطاع الطماع عيينة بن حصن؛ فهم ليسوا أبدًا أصحاب سيادة وثروات مثل المكيين، كما لم يكونوا أصحاب مصلحة فعلية في القضاء على محمد، فلم يدفعهم إليه إلا ثأر أم قرفة، والحصول على المغانم، وهو ما يمكن علاجه بالمُغرِيات المالية.

وعند هذه اللحظة من التفكير المُتأنِّي أرسل النبي سرًّا إلى قائدَي غطفان، عيينة بن حصن والحارث بن عوف، يُفاوِضهما على الانسحاب من الأحزاب مُقابِل ثلث ثمار المدينة، وجرَّت المُساوَمات السرية أخذًا وردًّا، اشترط معها عيينة النهِم نصف تلك الثمار، لكن ليشترط عليه النبي في مُقابِل ذلك الإيقاع بين الأحزاب وبين قريظة.[٢٦]

---

[٢٤] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١.

[٢٥] أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص١٥٠٠.

[٢٦] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٥٢. انظر أيضًا ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

وقام النبي يُخبِر السعدَين بما اتفق عليه مع غطفان، فيحتج السعدان ويقولان: «إنا نرى ألا نُعطيهم إلا السيف.» ليرد النبي على سعد بن معاذ: «فأنت وذاك.» فيتناول ابن معاذ الصحيفة ويمحو ما بها من تعاهُد اتفاقي ويقول: «ليجهدوا علينا.»[٢٧] بينما يأتي من غطفان رجلها الداهية نعيم بن مسعود الأشجعي ليرى النبي ويسمع منه خطته للإيقاع بين الأحزاب، فيقول له الرسول ﷺ:

خذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة.[٢٨]

ويفهم نعيم المقصود ويستوعب الخطاب ويبدأ في التنفيذ، ويُدرِك أن الأمر الآن أمر عسكرية وخدع، فالعِبرة بالنهايات والخواتيم، وليست العبرة بقواعد قد تُؤدِّي إلى دمار؛ وعليه يروي ابن هشام كيف تمَّت الخدعة وكيف حبكها نعيم بن مسعود، فيقول:

ثم إن نعيم بن مسعود ... بن غطفان، أتى رسول الله ﷺ فقال: ... إن قومي لم يعلموا بإسلامي،[٢٩] فمُرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ: فخذِّل عنا إن استطعت فالحرب خدعة. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ... فقال: يا بني قريظة ... إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وأن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، قد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم؛ فلا تُقاتِلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم، ثقة لكم، على أن تُقاتِلوا معهم محمدًا حتى تُناجِزوه.
فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

---

[٢٧] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٥٣. انظر أيضًا ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

[٢٨] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٥.

[٢٩] لم يرَ كُتاب السير في فعل نعيم بن مسعود إلا إسلامًا، دون أن يقفوا مع اتفاق غطفان مع النبي.

> وخرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش ... إنه قد بلغني أمر رأيت عليَّ حقًّا أن أُبلِغكموه نصحًا لكم، فاكتموا عني. فقالوا: نفعل. قال: تعلَّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على فعلنا، فهل يُرضيك أن نأخذ لك من القبيلتَين، من قريش وغطفان، رجالًا من أشرافهم فنُعطِيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم.
> فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا.

وأخذت الريبة برءوس قريش، ثم استبطأت فتح قريظة أبواب حصونها للأحزاب، وزاد الأمرَ توتُّرًا قدومُ تلك الليالي الشاتية القارسية على رجالهم في العراء، مع النفاد المُتزايِد للميرة، وهنا يقول لنا ابن هشام:

> فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ... أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بني قريظة ... فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال كي نُناجِز محمدًا ... فأرسلوا إليهم: إن اليوم سبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ... ولسنا مع ذلك بالذين نُقاتِل محمدًا معكم، حتى تُعطونا رهنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نُناجِز محمدًا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدَّثكم به نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا لبني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كانت غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.
> فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نُقاتِل محمدًا معكم حتى تُعطونا رهنًا، فأبَوا عليهم ...

> وخذَّل الله بينهم ...
> وبُعِثت عليهم الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم ... ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ... أخلفتنا قريظة ... ولقينا من شدة الريح ما ترون ... فارتحِلوا فإني مُرتحِل ... فانشمروا راجعين إلى بلادهم.[٣٠]

ورغم أن ابن هشام يعلم أين كانت الخديعة، وكيف دُبِّرت، ومن دبَّرها للإيقاع بين الأحزاب وقريظة، فإنه يقول بهدوء المؤمن الواثق: «وخذَّل الله بينهم.» وحتى يتضح ذلك التدخل الإلهي، الذي يجب أن تظهر له مظاهر واضحة، في أدوات فاعلة تليق بحجم فاعلها فقد ورد القول عند ابن قتيبة:

> أما رياح الشمال والجنوب فقد ساءلت بعضها عمن يتوجه لمساعدة رسول الله. عن عكرمة قال: لما كانت ليلة الأحزاب قالت الجنوب للشمال: انطلقي نمد رسول الله ﷺ. فقالت: إن الحرة لا تسري بالليل. فكانت الريح التي أُرسِلت عليهم الصَّبا.[٣١]

وهو الأمر الذي جاء تأكيده وحيًا يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ٩).

وهي الجنود الملائكية التي لم تُحارِب أبدًا في الخندق، وهو ما جاء مشروحًا عن مُجاهِد: «وجنود لم تروها؛ يعني الملائكة، ولم تُقاتِل الملائكة يومئذٍ.»[٣٢] وهو ما يعني أن الملائكة كانت وراء تلك الريح الصرصر العاتية، وأنها أخذت تعبث بالمُهاجِمين وتُقلِع خيامهم وتكفأ قدورهم وتُطفئ نارهم.

وهكذا يعود ابن هشام من قوله «وخذل الله بينهم» إلى القول بقدرات لله أعظم بكثير من أساليب الخداع الإنساني، فيُتابِع القول: «وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شاتية باردة

---

[٣٠] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٥، ٢٦٦.

[٣١] ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، مج٢، ج١، ص٢١١.

[٣٢] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٣، ص٤٤٨.

شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم.» مُصوِّرًا فعل الطبيعة قاصرًا فقط على الأحزاب. لكن بعد سنوات من الخندق، نجد الصحابي أبا حذيفة يحكي لجلسائه مَشاهده القتالية مع رسول الله ﷺ فيقول له جلساؤه: والله لو كنا شهدنا ذلك، لكنا فعلنا وفعلنا. فيغتاظ أبو حذيفة من سهولة الكلام، بعيدًا عن واقع الفعل، ليحكي لهم عن تلك الليالي الشاتية قوله:

> لا تمنَّوا ذلك؛ لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافُّون قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحًا منها، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك.[٣٣]

ويختتم ابن إسحاق وقعة الخندق، ومع آخر القوافل المُرتحِلة من الأحزاب وغبارها يسطع في الأفق تُشيِّعها كلمات الرسول ﷺ وهو يقول لأصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، لكنكم تغزونهم.» ثم يُعقِّب راوي السير بقوله: «فلم تغزُ قريش بعد ذلك، وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة ... رواه البخاري.»[٣٤] وقولة الرسول هنا تُعبِّر تعبيرًا صادقًا عن واقع حال قريش بعد الخندق، فلم تعد ذلك العدو الفتي المُهدِّد الهادر، إنما شاخت وضاعت هيبتها بين العربان.

وهكذا جاء الحدث الكبير الذي تمثَّل في تحزيب أحزاب العرب ضد يثرب، بنتائج أيضًا كبيرة لكن بعكس ما توقَّع الأحزاب وما كانوا يرجونه؛ فقد تلاحمت يثرب، ورغم جبن بعضهم وهربهم، ونفاق آخرين، ورغم ما مر عليهم من ليالي رعب وفزع شاتية، فإن الحدث أيقظ لدى الناس شعورًا وطنيًّا جارفًا زاد من تلاحُم المهاجرين والأنصار؛ حيث شعر المهاجرون أن الدار قد أصبحت دارهم، وصدق الله وعده لنبيه بانشمار الأحزاب راجعين إلى بلادهم، ناهيك عن النتيجة الأهم والأخطر من كل هذا، وهي تحرير يثرب

---

[٣٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١١٦.

[٣٤] نفسه: ص١١٧.

تمامًا من العنصر اليهودي؛ بغزوة قريظة، التي قضت على اليهود، وجعلت المنافقين عرايا من أي حلفاء، مما اضطرهم في النهاية للخضوع التام لسلطان الدولة.

مذبحة قريظة

عن عائشة: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المُغتسَل ليغتسل، وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد، أوضعتم أسلحتكم؟ فقال: وضعنا أسلحتنا. فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد، أنهد إلى بني قريظة. ثم قال البخاري ... عن أنس بن مالك قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سارع رسول الله ﷺ إلى بني قريظة.[٣٥]
أو برواية الطبري:

> فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ مُعتجِرًا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليه قطيفة من ديباج، فقال: أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة. فأمر رسول الله ﷺ مُناديًا فأذَّن في الناس:
> من كان سامعًا ومُطيعًا، فلا يُصلِّين العصر إلا في بني قريظة.[٣٦]

ولمزيد من التأكيد على أن المسير إلى قريظة كان أمرًا إلهيًّا، حمله جبريل إلى الرسول الأمين، يُقدِّم البيهقي الشواهد الدالة على مَقدم مبعوث الإله الأول جبريل، يحمل ذلك الأمر السماوي، في قوله:

> وخرج النبي فمر بمجالس بينه وبين قريظة، فقال: هل مر بكم من أحد؟ قالوا: مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء، تحته قطيفة من ديباج. فقال النبي ﷺ: ليس ذلك بدحية، ولكنه جبريل عليه السلام، أُرسِل إلى بني قريظة ليُزلزِلهم ويقذف في قلوبهم الرعب.

---

[٣٥] نفسه: ص١١٩.

[٣٦] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٨١.

هذا، ومن المعلوم أن دحية هذا رجل معلوم الشأن لأهل يثرب، فهو دحية بن فروة بن فضالة، من الخزرج، وكان صاحب رسول الله ﷺ.[٣٧]

وطاعةً لأمر السماء، خرج المسلمون إلى بني قريظة ليضربوا عليهم الحصار، ولما يهدأ بعد غبار سوائم وخيول الأحزاب المُغادِرة، واصطف جنود الرحمن يتحلقون حول الحصون القرظية، ويصل الرسول إلى مُقدِّمة الدوائر المُقاتِلة مُقترِبًا من الحصون، وبينما يصنع له أصحابه بالحجف ما يُشبِه البوق ليُسمِعهم كلامه، كان يهود قريظة يُرهِفون الأسماع وهم يرجفون لندائه ﷺ:

يا إخوة القردة والخنازير.

لكن ليرد المُرتعِدون:

يا أبا القاسم ما كنت فحاشًا![٣٨]

ليعود النبي يُناديهم:

يا إخوان القردة،
هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟

وتفهم قريظة الرسالة لترد راعشة:

يا أبا القاسم ما كنت جهولًا![٣٩]

وأمام ما تراه قريظة، أخذت تصرخ طالبةً من محمد ﷺ أن يُرسِل إليهم من حلفائهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسي، وسمح الرسول لأبي لبابة بالمرور إلى حصونهم ليسمع منهم، ونُنصِت مع كتب السير لذلك المسمع يقول:

قالوا: يا أبا لبابة، ماذا ترى وماذا تأمرنا به فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟

---

[٣٧] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٩.

[٣٨] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٢٠.

[٣٩] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٢.

ولم نجد قولًا لأبي لبابة، بل إشارة وحركة ذات معنًى، فيُورِد ابن كثير رده على التساؤل:

فأشار أبو لبابة بيده، إلى حلقه وأمرَّه عليه، يُريهم أنه إنما يريد بهم الذبح.[٤٠]

وهو ذات ما يرويه الطبري في قوله:

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف — وكانوا حلفاء الأوس — نستشيره في أمرنا. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه.
قام إليه الرجال.
وجهش إليه النساء.
والصبيان يبكون في وجهه.
فرقَّ لهم.
وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟
قال: نعم.
ثم أشاره بيده إلى حلقه.
إنه الذبح.[٤١]

وندخل مع الطبري إلى حصن قريظة الكبير، نستمع لما يدور في الداخل، في تلك الهُنَيهات البارقة الراجفة من الزمن، لنسمعه يُطالِع ما يحدث ويقول:

وقد كان حيي بن أخطب النضري، قد دخل على بني قريظة في حصونهم، حيث رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله غير مُنصرِف عنهم حتى يُناجِزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود؛ إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثًا، فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نُتابِع هذا الرجل ونُصدِّقه …

[٤٠] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٢١.

[٤١] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٤.

قالوا: لا نُفارِق حكم التوراة أبدًا ... قال: فهلمَّ نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد ... ولم نترك وراءنا ثقلًا يهمُّنا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ... قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن الليلة ليلة سبت، وإنه عسى يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرة. قالوا: نُفسِد سبتنا؟! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازمًا![٤٢]

وينتهي المشهد داخل الحصن بقرار من قريظة؛ أنها لن تُقاتِل، وأنها ستنزل على حكم رسول الله وتستأسر جميعًا. وبالفعل ينزلون في طابور طويل يُكتِّف فردًا فردًا بالحبال التي تصلهم ببعضهم لينتظروا مصيرهم، آملين في موقف أحلافهم الأوسيين لحقن دمائهم، مثلما فعلت الخزرج من قبل مع قبائل يهود التي خرجت بأرواحها، وتركت المال والعقار والعتاد، وبينما هم في وهمهم هذا، نسمع الطبري يقول:

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار امرأة من بني النجار (أي من الخزرج وليس من الأوس)، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة ... فخندق بها خنادق.[٤٣]

وقد بدا الأمر كما لو كان يسير حسبما توقَّعت قريظة من الأوس، حيث تواثبت الأوس حول النبي تُذكِّره بأن قريظة مواليها دون الخزرج، وأنه سبق ومنح حياة يهود لمواليهم من الخزرج، يطلبون كرامتهم إزاء كرامة الخزرج في المواقف السابقة، وهنا يُجيبهم الرسول ﷺ بقوله: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذاك سعد بن معاذ.»[٤٤]

في ذلك الوقت كان سعد يُعاني من قطع أصاب أكحله (شريانه) بسهم غارب جاءه من خارج الخندق إبان الحصار، ولم تلجأ كتبنا التراثية هنا إلى حديث الأحاجي والمعجزات التي ينسبونها للنبي ﷺ؛ لأن سعدًا لقي نهايته الفاجعة خلال أيام، حيث قام النبي ﷺ

---

[٤٢] نفسه: ص٥٨٣.

[٤٣] نفسه: ص٥٨٨.

[٤٤] نفسه: ص٥٨٦.

يحسم له جرحه بنفسه كيًّا بالنار، لكن يده انتفخت ثم انفجر الشريان بالنزيف، فعاد النبي إلى كيه مرة أخرى ليسد مخرج الدم بالنار فانتفخت يده مرة أخرى. أما الرواة فقد رأوا أن المعجزة لم تحدث هنا؛ لأن الأكحل إن قُطِع فلا علاج له كما أفادوا، فهناك ما يمكن علاجه بالمعجزات وهناك ما لا يمكن علاجه كقطع الأكحل.

وبينما سعد على حاله هذا، أرسل إليه النبي وجاء به في مشهد يرويه الطبري بقوله:

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال ﷺ: قوموا إلى سيدكم ... فأنزلوه. فقال رسول الله ﷺ: احكم فيهم. قال: فإني أحكم فيهم بأن تُقتَل الرجال، وتُقسَّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء.

فقال رسول الله ﷺ لسعد:

حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.[٤٥]

وهنا يكشف لنا الطبري سر الخنادق التي أمر النبي بخندقتها، بينما كان القرظيون يكتفون بالحبال، حيث يقول إن النبي قد «بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج إليه أرسالًا، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، المُكثِّر لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة.»[٤٦]

ويبدأ مشهد المذبحة كالتالي:

أُتِي بعدو الله حيي بن أخطب ... مجموعةً يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال:

أما والله ما لمت نفسي في عداوتك أبدًا.

ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، ملحمة قد كُتِبت على بني إسرائيل. ثم جلس فضُرِبت عنقه.[٤٧]

---

[٤٥] نفسه: ص٥٨٧، ٥٨٨.

[٤٦] نفسه: ص٥٨٨.

[٤٧] نفسه: ص٥٨٩.

ويشرح لنا رجالاتنا من أهل السير كيف كانت المذبحة، فيُصوِّر لنا الواقدي أحد المشاهد بقوله:

> إن رسول الله ﷺ أمر أن يشق لبني قريظة في الأرض أخاديد، ثم جلس، فجعل علي والزبير يضربان أعناقهم بين يدَيه.[٤٨]

ويُحدِّد لنا البيهقي مكان المَقتلة بدقة فيقول:

> قُتِلوا عند دار أبي جهل التي بالبلاط، ولم تكن يومئذ بلاطًا، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التي كانت بالسوق.[٤٩]

ويشرح لنا ابن هشام أنه بينما كان الأوس حلفاء قريظة في الجاهلية، فإن الخزرج لذلك السبب كانوا يحملون لقريظة العداوة، ولما كان الخزرج أخوال النبي، فقد حبس الأسرى القرظيين لديهم، ثم عند المذبحة أمرهم هم بإجراء المذبحة، فيقول مُصوِّرًا لنا مشهدًا أوسع للمذبحة:

> فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم، ويسرُّهم ذلك. فنظر رسول الله ﷺ إلى الخزرج، ووجوههم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم يرَ ذلك فيهم، فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وقريظة، ولم يكن بقي من بني قريظة إلا اثنا عشر رجلًا، فدفعهم إلى الأوس، فدفع إلى كل رجلَين من الأوس رجلًا من بني قريظة، وقال: ليضرب فلان، وليُذفِّف فلان.[٥٠]

أما شأن سعد بن معاذ فنعرف من خبره أن أكحله الذي حسمه له النبي ﷺ قد عاد وانفجر بعد مذبحة قريظة، ولما كان هو صاحب الحكم الذي هو حكم الله، فقد وجبت مكافأته، فيما يرويه البيهقي:

> إن جبريل أتى النبي ﷺ في جوف الليل، مُعتجِرًا بعمامة من إستبرق، فقال: يا محمد، من هذا الميت الذي فُتِحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

---

[٤٨] نفسه: ص٥٩٣.

[٤٩] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٢٠.

[٥٠] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٣، ص١٤٧.

فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه، مُبادِرًا إلى سعد بن معاذ، فوجده قد قُبِض.
ومن ثَم وقف النبي يُشير إلى سعد وهو يُعلِن:
إن هذا الذي تحرَّك له العرش.
وشيَّع جنازته سبعون ألف ملك.[٥١]

أما ابن سيد الناس فيُؤكِّد مشاركة الملائكة في تشييع جسد سعد إلى مثواه الأخير بقوله:

ولما حُمِل سعد على نعشه، وجدوا له خفة، فقال رسول الله ﷺ: إن له حَمَلَة غيركم.[٥٢]

وفي مجال الإشادة بسعد بن معاذ وتكريمه، يروي الترمذي والنسائي حكاية البغلة والجُبة التي أرسلها أكيدر دومة الجندل إلى النبي هدية، في القول إنها:

جبة من ديباج، منسوج فيها الذهب، فلبسها ﷺ فقام على المنبر وجلس فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها، فقال رسول الله ﷺ:
أتعجبون منها؟!
لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن مما ترون.[٥٣]

ثم نعلم من مأثورنا علمًا جديدًا بشأن تلك المذبحة، حيث يُعلِمنا أنها لم تقتصر على الرجال فقط، بل نالت أيضًا من الصبية، حيث يقول الطبري مُدعِّمًا من كل رجال السير والأخبار أن رسول الله ﷺ:

قد أمر بقتل كل من أنبت منهم.[٥٤]

---

[٥١] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٢٩، ٢٨.
[٥٢] ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج٢، ص١٠٤.
[٥٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٣١.
[٥٤] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٩١.

وهو أيضًا ما يأتينا تأكيده في حكاية ابن إسحاق عن صبي نجا من المذبحة هو عطية القرظي، حيث يقول:

> وكان رسول الله ﷺ قد أمر بكل من أنبت منهم ... عن عطية القرظي قال: كان رسول الله ﷺ قد أمر أن يُقتَل من بني قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلامًا، فوجدوني لم أُنبِت، فخلوا سبيلي. رواه أهل السنن الأربعة ... وقد استدل به من ذهب من العلماء، إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل البلوغ.[٥٥]

وعن كثير بن السائب أن بني قريظة عُرِضوا على النبي ﷺ؛ فمن كان مُحتلِمًا أو نبتت عانته قُتِل، ومن لم يكن قد احتلم ولا نبتت عانته تُرِك.[٥٦]

وكاد ينجو من المَقتلة رجل واحد من أشراف قريظة، لولا رغبته هو في الموت ذبحًا، هو أبو عبد الرحمن الزبير بن باطا القرظي، وكان يوم وقعة بعاث قد منَّ على ثابت بن قيس وخلَّى سبيله، فلما أصبح ثابت مسلمًا، رأى أن يرد الدَّين إلى أبي عبد الرحمن، فذهب بحكايته القديمة ودينه بالحياة يرويها للنبي ويطلب حياة أبي عبد الرحمن، فمنحه إياها، وذهب ثابت يُبشِّر أبا عبد الرحمن بالحياة، ليدور بينهما الحوار التالي:

أبو عبد الرحمن: أي ثابت، ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟

ثابت: قُتِل.

أبو عبد الرحمن: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟

ثابت: قُتِل.

أبو عبد الرحمن: فماذا فعل مُقدِّمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال بن سموءل؟

ثابت: قُتِل.

---

[٥٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٢٧.

[٥٦] البلاذري: فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج١، ص٢٣.

أبو عبد الرحمن: فما فعل المجلسان؟ يعني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة.
ثابت: ذهبوا، قُتِلوا.
أبو عبد الرحمن: فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت؛ ألا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو نضح، حتى ألقى الأحبة.

وهنا أخذه ثابت من يده وأوقفه في طابور المذبحة ليأخذ دوره، فضُرِبت عنقه.[٥٧]
وبعد الانتهاء من شأن المذبحة، أتى دور الغنائم والسبايا؛ فأما الغنائم فيُحصيها لنا ابن سعد في قائمة طويلة كالتالي:

- ألف وخمسمائة سيف.
- ثلاثمائة درع.
- ألفا رمح.
- ألف وخمسمائة ترس وجحفة.
- جِمال ونواضح كثيرة.[٥٨]

وهي القائمة التي تشي بمدى العُدة والعتاد التي كانت في حوزة قريظة، وهو أيضًا ما يُفصِح عن رغبة قريظة في النأي عن الحرب طمعًا في مصير نضير وقينقاع للخروج بأرواحهم دون عتادهم وأموالهم.
وجاء دور السبايا ليقول ابن سعد:

> واصطفى رسول الله ﷺ ريحانة بنت عمرو لنفسه، وأمر بالغنائم فجُمِعت، فأخرج الخُمس من المتاع والسبي، وأمر بالباقي فبيع فيمن يزيد، وقسَّمه بين المسلمين.[٥٩]

---

[٥٧] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٩، ٥٩٠.
[٥٨] ابن سعد: الطبقات، مج١، ج٢. انظر أيضًا: الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مرسدن جونز، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٦، ج٢، ص٥١٠.
[٥٩] الموضع نفسه عند ابن سعد.

أما ريحانة بنت عمرو، التي اختارها النبي، فقد قال بشأنها ابن كثير:

> عرض عليها النبي ﷺ أن يُعتِقها ويتزوجها، فاختارت أن تستمر على الرق ليكون أسهل عليها، فلم تزَل عنده حتى تُوفِّي عنها عليه الصلاة والسلام.[٦٠]

ويُؤكِّد الطبري موقف ريحانة في قولها لسيدها الجديد:

> تتركني في ملكك، فهو أخف عليَّ وعليك. فتركها، وكانت حين سباها رسول الله ﷺ قد تعصَّت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية.[٦١]

وفاضت السبايا حتى بيعت بقيتهم لرجال نجد، وكان عائد البيع عظيمًا، وتم شراء خيل وسلاح إضافي بثمنهم؛ لتتضخم الأعتدة العسكرية الإسلامية وكراعها بمخزون عظيم لما هو آتٍ.

وهكذا جاءت دية بني عامر بمجموعة من التداعيات أخذ بعضها بعقب بعض؛ فطُردت نضير من يثرب، لكن ليُحزِّب زعماؤها الأحزاب في غزوة الخندق التي انتهت بدورها لصالح يثرب، بالانسحاب بعد الخدعة، لينتهي الأمر بالقضاء على بني قريظة، وتطهير المدينة تطهيرًا كاملًا، وسيطرة النبي سيطرة تامة على يثرب، مع نمو هائل في ثروة المسلمين وقوتهم العسكرية، وهو الأمر الذي دفع المنافقين لحسم مواقفهم؛ حيث لم يعد لهم سند من حلفائهم اليهود، ولم يعد بإمكانهم التطاول على القوة الإسلامية المُتعاظِمة، وانتهى أمرهم بالخضوع الكامل لسيد المدينة، وهي النتائج التي أوجزتها الآيات الكريمة بإيجازها البليغ تُبلِّغ العربان وتُذكِّرهم بقولها:

﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ[٦٢] وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٥–٢٧).

---

[٦٠] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٢٨.

[٦١] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٩٢.

[٦٢] الصياصي: نوع من الحصون.

الباب الثاني

الاعتراف بقيام الدولة

إخضاع القبائل

يا رسول الله، لا تُحرِّم علينا حلالًا ولا تُحِل لنا حرامًا!

زيد بن رفاعة الجذامي

بالطبع لم تُنفِّذ يثرب اتفاقها مع غطفان الفزارية، بعد أن مزَّق السعدان الصحيفة التي كان من المُزمَع تنفيذها مع عيينة بن حصن الفزاري، للتخذيل بين الأحزاب؛ لذلك ما إن انصرفت الأحزاب عن يثرب، وعلم القرشيون بحجم المكيدة التي دبَّرها الغطفاني الداهية نعيم بن مسعود، حتى عاد عيينة بن حصن ببعض خيل غطفان؛ ليُغيروا على لقاح النبي بالغابة، لكن بالجوار كان سلمة بن الأكوع، يراهم، فيركض نحو التلول يرتقيها مُوجِّهًا وجهه شطر يثرب منذرًا صائحًا: واصباحاه! عدة مرات، ثم يهرع نازلًا يمنع القوم بنباله. ويروي لنا ابن كثير بطولة ذلك المسلم الفرد في صورة رائعة وهو يقول:

> فإذا وُجِّهت الخيل نحوه انطلق هاربًا، ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمي رمى ... وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: الفزع الفزع! فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّر عليهم سعيد بن زيد وقال: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس. وأقبل رسول الله ﷺ، واستنقذ بعض اللقاح، وسار الرسول حتى نزل بالجبل من ذي قرد، وتلاحَق به الناس، فأقام عليه يومًا وليلة. وقال سلمة بن الأكوع: يا رسول الله، لو سرَّحتني في مائة رجل، لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم. فقال رسول الله ﷺ: إنهم الآن ليغبقون في غطفان ... ثم رجع قافلًا إلى المدينة.

(ويقول ابن الأكوع) ثم رجعنا، وردفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى قدمنا المدينة.[1]

ومرة أخرى تتعرض لقاح الرسول لغدر الأعراب، الذين أطمعتهم سوائمه، فقدم على النبي ثمانية رجال من عرينة، وأظهروا الإسلام، وبعد أيام اشتكوا للنبي سوء حالتهم الصحية بداخل يثرب، وأنهم أهل بوادي لا يُطيقون المدن والزروع، فأذِن لهم بالخروج لرعاية لقاحه، الذي يُرعى بذي الحدر بناحية قباء، فظلوا فيها فترة، ثم عدَوا على لقاح رسول الله ﷺ وقتلوا واحدًا من عبيد النبي،[2] فكان أن أرسل وراءهم سرية كرز بن جابر الفهري ليقبض عليهم، ويلقوا جزاء ما قدَّمت أيديهم بحق النبي وبحق الدولة، وهو الجزاء الذي جاءنا ذكره في البيهقي وهو يروي:

فلم ترتفع الشمس حتى أُتِي بهم، فأمر بمسامير فأحميت، فكواهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وألقاهم في الحَرة يُستسقون فلا يُسقَون، حتى ماتوا.[3]

ويُضيف ابن سيد الناس أنه قد أمر إضافةً لذلك بسمل عيونهم.[4]

ومع تلك التحركات الطامعة الغادرة من الأعراب، كان على يثرب أن تُكثِّف مرة أخرى من سراياها المُسلَّحة التأديبية المُنذِرة؛ لتئوب القبائل إلى سابق انكماشها. فكانت سرية عبد الله بن أنيس الجهني، التي سرت إلى خيبر لتنتقم من مشاركة سادتها في تحزيب الأحزاب، فيقطع ابن أنيس من خيبر رأسها، أسير بن رزام؛ جزاءً وفاقًا لما قدَّمت يداه.[5] لتتبعها سرية عكاشة بن محصن الأسدي مُغيرًا على قومه بني أسد في الغمر، ويبدو أن الأُسود عرفوا رأس الحكمة من الغارة السابقة للنبي عليهم، فهربوا مع نَعمهم

---

[1] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٥١–١٥٣. انظر أيضًا ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢ ج١، ص٥٨–٦١.

[2] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٦٧.

[3] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٨٧.

[4] ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج٢، ص١١٩.

[5] نفسه: ص١٤٦.

وشياههم، ويصل عكاشة فيجد الديار فراغًا، لكنه لم يشأ أن يرجع فارغًا، فهجم على بني عمومة لهم في الجوار، ليستاق منهم مائتَي بعير يعود بها مغنمًا إلى يثرب.[٦]

وإذا كانت حكمة الأُسود تدعوهم كل مرة إلى الفرار بأموالهم وأرواحهم، فإن الثعالب من بني ثعلبة كانت لهم حكمة أخرى، فما إن هبطت عليهم سرية محمد بن مسلمة بذي القصة باتجاه الربذة في عشرة من المسلمين، حتى نذر به الثعالب بدهائهم، وأحدقوا بالسرية وحملوا على رجالها تقتيلًا، ولم ينجُ سوى مسلم واحد خرج سليمًا، ليحمل محمد بن مسلمة جريحًا ويعود به إلى المدينة.

وفورًا يُرسِل رسول الله ﷺ سرية أبي عبيدة بن الجراح للضرب على يد بني ثعلبة بقوة، ويمده بأربعين مُقاتِلًا يهبطون على ذي القصة مُتسلِّلين مُتخفِّين ليُفاجئوا الثعالب في عماية الصبح. ولكن مرة أخرى يُنذَر به الثعالبة — مُتأخِّرين بعض الشيء — فيهبون إلى دروبهم وشعابهم بين جبال يعلمون سُبلها ولا يتمكن المسلمون منهم، فيكتفون بحيازة أنعامهم التي تركوها، وينحدرون بها عودًا إلى المدينة.

ووسط تلك الأحداث، يأتينا خبر طلاق زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، وتزويج السماء لزينب من النبي، ليخرج من بعدها زيد للاستشفاء النفسي، في عدد من السرايا المتوالية، أو ليُرسِله النبي في عدد من السرايا المُتتابِعة، لا يهدأ ولا يكل، فينزل بسرية على بني حارثة من قبائل سليم ليُصيب منهم سوائمهم، ثم يُردِفها بسرية إلى العيص تعترض طريق قافلة تجارية قرشية قادمة من الشام بها فضة عظيمة، فيستولي على ما فيها، ثم يُتبِعها بسرية ثالثة إلى بني ثعلبة، فيغنم منهم أنعامًا جزيلة، ثم يخرج بسرية رابعة إلى حسمى من وراء وادي القرى، بأمر من الرسول ﷺ انتقامًا من بني جذام الذين قطعوا الطريق على صديق النبي دحية الكلبي، الذي كان يتمثل به جبريل الملاك، فيسلبونه منحة قيصر له. وينزل زيد بساحتهم فيقتل منهم قومًا كثيرين، ويذبح زعيمهم الهنيد وولده، ويأخذ نَعمهم وماشيتهم ونساءهم، وما يربو على خمسة آلاف شاة، وألف بعير، غير مائة من السبايا وعدد عظيم من الغلمان، ولا يُصاب البطل المسلم المُتميِّز زيد في كل تلك السرايا إصابة واحدة.[٧]

---

[٦] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٦١.

[٧] نفسه: ص٦١-٦٢.

لكن بين جذام والنبي كان كتاب مُوادَعة سابق، فيهرع أحد الناجين هو زيد بن رفاعة إلى النبي، في نفر من قومه فيهم أبو يزيد بن عمرو، ثم نستمع إلى المشهد حال دخوله على رسول الله ﷺ من ابن سعد وهو يحكي:

> فدفع إلى رسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتب له ولقومه، وقال:
> يا رسول الله، لا تُحرِّم علينا حلالًا ولا تُحِل لنا حرامًا.
> فقال الرسول: وكيف أصنع بالقتلى؟
> قال أبو يزيد بن عمرو: أطلق لنا يا رسول الله من كان حيًّا، ومن قُتِل فهو تحت قدمَيَّ هاتَين.
> فقال رسول الله ﷺ: صدق أبو يزيد.[٨]

وما إن يرحل الجذاميون، بما كان لهم عند النبي، حتى يخرج زيد مرة أخرى بسرية خامسة إلى وادي القرى.[٩] لتعطي تلك السرايا دلالتها حيث بدأت تأخذ وجهة الشمال الرومي والمشرق الكسروى. ويزداد تأكيد المقاصد والدلالات، بإغارة عبد الرحمن بن عوف مرة أخرى برجاله على قبائل كلب في دومة الجندل بالشمال، وهناك يُعلِن زعيمهم الأصبغ اتباعه للدولة وللدين ويُشهِر إسلامه، ويُزوِّج ابنته تماضر لقائد السرية عبد الرحمن بن عوف، ليعود بها وبالعهد إلى المدينة.[١٠] ولكن وجهة الشمال حيث كنوز كسرى وقيصر الهدف الأعظم، لا زالت بحاجة إلى تأكيد، فتخرج إليها سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر في فدك، ليُغير عليهم على غِرة، فيهزمهم، وهم من كانوا من القوة بحيث هزموا قبل البعثة فيالق كسرى، لكن الرعب يأخذهم فيفرون قبل وصول السرية ديارهم، ويتركون له ألفَي شاة وخمسمائة بعير يعود بها. أما كلب التي كانت في الطريق، فقد تركت له طريق العودة وهربت من ديارها بنسائها وأموالها رغم ما تأكَّد لها من عهود مع دولة النبي ﷺ.[١١]

وهكذا أبلغت السرايا وبلغت رسائلها إلى الشمال الرومي، ووصلت برقيات الرعب إلى زعيم نصف العالم آنذاك، قيصر الروم.

---

[٨] نفسه.

[٩] الموضع نفسه.

[١٠] نفسه: ص٦٤، ٦٥.

[١١] نفسه: ص٦٥.

غزوة المصطلق

سمِّن كلبك يأكلك!

عبد الله بن أُبَي بن سلول

يا منصور، أمِت، أمِت.

صيحة الفزع المُرعِبة التي دوَّت على ماء «المريسيع» فجأة ودون سوابق أو مُمهِّدات، بمضارب «بني المصطلق»، ليهبط عليهم الرسول ﷺ برجاله في جمادى الآخرة من عام ستة للهجرة، فتأخذهم الفجأة وتشلهم الصعقة، فما يُفيقوا إلا على قتلاهم وأسراهم وسباياهم وأموالهم ونَعمهم، تُجمَع بيد السيد المُنتصِر.[1]

وبين السبايا وقفت بنت السادة الرافلة في النعيم، زوجة مسافع بن صفوان المصطلقي (جويرية بنت الحارث) سيد المصطلق، تنتظر دورها،[2] فتقع في سهم جندي مسلم هو مُجرَّد نفر اسمه قيس بن الشماس؛ ومن ثَم تحكي لنا جويرية وهي ترى ما آلت إليه، باحثة عن مخرج يُلائم مكانتها:

> رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليالٍ، كأن القمر يسير من يثرب، حتى وقع في حجري، فكرهت أن أُخبِر بها أحدًا من الناس، حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سُبِينا، رجوت الرؤيا.[3]

---

[1] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، مج٤، ص٨، ٦.

[2] نفسه: ص١٩.

[3] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٥٠.

ولتحقيق الرؤيا، ساوَمت آسرها ثابت بن قيس، على أن تدفع له فداءها عن نفسها ويُطلِّقها حرة، بموجب مُكاتَبة على العتق بذلك، وهي تعلم يقينًا أنها أسيرة لا تملك مالًا تشتري به نفسها، ولا تعلم حتى إن هي اشترت نفسها أين تذهب بعد أن ذهب قومها قتلًا وأسرًا؛ ومن ثَم قرَّرت أن تختبر الرؤيا، فذهبت إلى النبي لتطلب منه إعانتها في مُكاتَبتها!

وهنا تقول لنا أم المؤمنين السيدة عائشة الغيور:

فوالله ما إن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها وعرفت أنه ﷺ سيرى منها ما رأيت.

أما ماذا رأت السيدة عائشة رضي الله عنها؟ فهو ما تُوضِّحه في قولها:

كانت امرأة حلوة ملاحة.
لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه.

ويشرح لنا السهيلي شارح السيرة المعنى لكلمة «ملاحة» في قول أم المؤمنين بقوله:

الملاح أبلغ من المليح.
والملحة هي البياض.
وملاحة في العينين.
وقال الأصمعي:
الملاحة في الفم.
وقول عائشة ... من الغيرة عليه والعلم بموقع الجمال منه ﷺ.

ونُتابِع الحدث وهو يتحرك، فنرى جويرية الأسيرة تدخل على النبي ﷺ لتقول:

يا رسول الله،
أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه،
وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك،
فوقعت في السهم لثابت بن الشماس،
فكاتبته على نفسي،
فجئت أستعينك في كتابتي.

وهنا يتطلع سيد الخلق، العارف بمواطن الجمال والملاحة، ويملأ عينَيه منها، ليُعقِّب السهيلي على ذلك التطلع الطويل بقوله: «أما نظره عليه السلام لجويرية، حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما ذلك لأنها كانت امرأة مملوكة، ولو كانت حرة، ما ملأ عينه منها؛ لأنه لا يكره النظر إلى الإماء، ويجوز أن يكون نظر إليها؛ لأنه نوى نكاحها، كما نظر إلى المرأة التي قالت له إني وهبت نفسي لك. وقد ثبت عنه عليه السلام الرخصة في النظر إلى المرأة، عند إرادة نكاحها.»

وكان ما توقَّعته جويرية الحسناء، التي تعرف قدر حسنها، وقدَّمت لها الأقدار تحقيق رؤياها، حين قال لها النبي بعد تأمُّله الطويل:

فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: أقضي عنك كتابك وأتزوجك.

قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت.

وهنا تُعقِّب السيدة عائشة رضي الله عنها: «وخرج الخبر إلى الناس؛ أن رسول الله ﷺ قد تزوَّج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ. وأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.[٤]

ويقول ابن سيد الناس: «وكان الإبل ألفَي بعير، والشاة خمسة آلاف شاة، وكان السبي مائتَي بيت.»[٥]

وبينما كان حسن جويرية وملاحتها يُحِل على أهلها بركة وسلامًا، لتُزَف إلى سيد الخلق في زيجة جديدة، عكَّر صفو العُرس حدث جديد أحدثه عبد الله بن أبي بن سلول، مع نفر من أتباعه ممن تنعتهم كتب الأخبار بالمنافقين، وهو ما يأتينا خبره في عدد من الروايات؛ أولها ما رواه بن هشام في قوله: إنه بينما المسلمون يتزاحمون على ماء

[٤] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره. انظر معه شرح السهيلي، مج٤، ص٨، ٩، ١٨، ١٩.

[٥] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص١٢٤.

المريسيع «وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من غفار يقال له جهجهاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجهاه، وسنان بن وبر الجهني حليف بن عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجهاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه، فقال:

أوَقد فعلوها؟
قد نافرونا وكاثرونا،
والله ما عُدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول:
سمِّن كلبك يأكلك.
أما والله لئن رجعنا المدينة،
ليُخرِجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم؛ أحللتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحوَّلوا إلى غير دياركم.»[٦]

ويسمع الصبي «زيد بن أرقم» ما بدر من ابن سلول، وما أفصحت عنه شفتاه من مكنون صدره، ليهرع من فوره إلى النبي يهمس له بما قال ابن سلول، ويسمع الأنصار همس الصبي، فينبرون دفاعًا عن رجلهم المُقدَّم: «يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل.» حدبًا على ابن سلول ودفعًا عنه.[٧]

وتحتد بعمر أعصابه وتأخذه الغضبة أخذًا فيقول للنبي وهو يُرعِد: مُر عباد بن بشر فليقتله. ليُنافِس عمر ولد عبد الله بن سلول الذي يحمل اسم أبيه «عبد الله»، فيهرع إلى مجلس النبي يقول: «إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلًا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه.»[٨]

[٦] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٧.
[٧] الموضع نفسه.
[٨] نفسه: ص٨.

ولكن حكمة سيد الخلق أفصح وأنصع وأكرم، فتنفرج شفتا رسول الله ﷺ عن قوله:

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس:
أن محمدًا يقتل أصحابه؟
ويلتفت إلى «عبد الله بن سلول» الابن ويقول له بكل حب أبوي ورحمة نبوية:
لا،
بل نترفق به،
ونُحسِن صحبته ما بقي معنا.[٩]

وهي الحكمة والرحمة البليغة، التي كانت ردًّا غير مُنتظَر، وضع ابن سلول في موقف شديد الهزال أمام قومه، ليعقب الشعور بالفزع والرعب شعور المهانة والتدني والخجل، وهي المشاعر التي دفعته يسعى للنبي ﷺ ليحلف له بأغلظ الأيمان، بأنه ما قال ما قال ولا تكلَّم به.

وكي تتم معالجة الأمر على وجه السرعة، لقمع دعوى الجاهلية، وإيقاف أي طارئ جانبي قد يحدث بين أنصاري ومُهاجِر هنا أو هناك، وما قد يجره أي حدث جانبي من تفكُّك في الجبهة الإسلامية؛ أمر النبي القائد الفذ وزيره عمر بن الخطاب أن يُؤذِّن في الناس بالرحيل الفوري على عجل ودون إبطاء، في ساعة هجير شديد القيظ، ويحكي ابن إسحاق:

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسد بن حضير، فحيَّاه تحية النبوة وسلَّم عليه، وقال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة مُنكَرة ما كنت تروح في مثلها. فقال رسول الله ﷺ: أوَما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ ... يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليُتوِّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا.

[٩] الموضع نفسه.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسًّا من الأرض، فوقعوا نيامًا.

ويُعقِّب ابن إسحاق على تلك القسوة من القائد على رجاله، بقوله: «وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن سلول.»[١٠]

أما إجابة الرسول الحكيمة لعبد الله بن سلول الابن، ولعمر بن الخطاب، فسرعان ما آتت ثمارها فيما يُخبِرنا ابن هشام عن ابن سلول: «فجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يُعاتِبونه ويُعنِّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يومَ قلت لي أقتله، لأرعدت له أنوف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته.»[١١]

ولم يكن حدث ابن سلول المُعكِّر الوحيد لصفو العُرس الجديد؛ فالصبي زيد بن أرقم الذي مدحه النبي وكرَّمه لما حمل إليه مقالة ابن سلول، وأمسكه من أذنه وقال ﷺ: «هذا الذي أوفى الله بأذنه.» وجد له دورًا، فعاد يهمس للنبي أنه «سمع رجلًا من المنافقين يقول ورسول الله يخطب فيهم: «لئن كان هذا صادقًا، لنحن شر من الحمير.» فيرد عليه الصبي: «فهو والله صادق، وأنت شر من الحمار.»[١٢]

ويتعالى التشكيك في نبوة النبي من بعض رجاله، فيما يرويه البيهقي:

وفُقِدت راحلة رسول الله ﷺ من بين الإبل، فسعى لها الرجال يلتمسونها، فقال رجل من المنافقين كان في رفقة الأنصار: أين يسعى هؤلاء؟ قال أصحابه: يلتمسون راحلة رسول الله ﷺ ضلَّت. فقال المنافق: ألا يُخبِره الله بمكان راحلته؟ فأنكر عليه أصحابه ما قال، وقالوا: قاتلك الله، نافقت.[١٣]

---

[١٠] نفسه: ص٧، ٨.

[١١] نفسه: ص٧.

[١٢] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٥٧.

[١٣] نفسه: ص٥٩.

أما أشد المُنكَرات من أحداث مُعكِّرة، صاحبت غزوة المصطلق، وعكَّرت عُرس النبي بجويرية، ما جاء بحدث الإفك عن أم المؤمنين الغيور وهي تصحب زوجها في زفة عُرسه، لتلوك الألسن عنها بالفحشاء وترميها بالشاب صفوان بن المعطل في القصة المعروفة التي أتى بها عصبة من الأفَّاكين، حيث حسمت السماء الأمر بتدخُّلها بالوحي الصادق، الذي برَّأ أم المؤمنين مما أتى به أهل الإفك والبهتان.

غزوة الحديبية

أما الرحمن فلا أدري والله ما هو؟!

سهيل بن عمرو

بمجيء شهر ذي القعدة، بداية موسم الحج الجاهلي، وفجأة، ودون أي علامات أو مُقدِّمات مُنذِرة، يُتِم التحوُّل دورة كبرى، عن السرايا الصغيرة والغزوات المتناثرة، إلى الهدف الأكبر، يوم قام النبي من نومه ليُعلِن لأصحابه خبر رؤيا رآها في منامه؛ أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين. وهو ما يُعقِّب عليه السهيلي في شروحه: «كان النبي قد رأى ذلك في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي.»[1]

ومن ثَم، نادى المُنادي بين مُسلِمي يثرب، وبين عربان جهينة ومزينة وخزاعة وغيرها من حلفاء يثرب، الذين حالفوها سياسيًّا بإسلام من البعض وبعدم إسلام من آخرين، ويقول ابن إسحاق:

> واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه ... فأبطأ عليه كثير من الأعراب.

ويُتابِع ابن سعد يقول:

> واستنفر رسول الله ﷺ أصحابه إلى العمرة، فتهيَّئوا وأسرعوا، ودخل رسول الله ﷺ بيته فاغتسل ولبس ثوبَين، وركب راحلته القصواء ... ثم دعا بالبُدن التي ساق فجُلِّلت ثم أشعرها في الشق الأيمن وقلَّدها، وأشعر أصحابه

---

[1] السهيلي: الروض الأنف، سبق ذكره، ج٤، ص٣٨.

> أيضًا ... وهي سبعون بدنة ... وأحرم ولبَّى ... وخرج معه من المسلمين ألف وستمائة.[٢]

ولا شك، أنه مثلما كان للنبي عيونه داخل مكة، فإن مكة ما كان ليفوتها أن تدس عيونًا لها بيثرب، تلك العيون التي — لا بد — قد أخذتها الدهشة، وهي ترى النبي يفعل فعل قريش، فيدعو إلى عمرة، ويُمارِس ذات شعائر قريش؛ فيسوق أمامه البُدن (البعير المُساقة هديًا للذبح) بعد أن جلَّلها وقلَّدها، بل ويسير أمام رجاله يُلبِّي فيُلبُّون، مُعلِنًا أنه قد جاء ساعيًا مُعتمِرًا لا يريد حربًا،[٣] في الوقت الذي كانت تأتيه عيونه الخزاعية بخبر يقول: «إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعهم، وهم قاتلوك أو مُقاتِلوك.»[٤]

ورغم التظاهرة الدينية الواضحة، التي أرادها النبي رسالة مُبلِّغة إلى قريش؛ لتعلم أنه جاء مُحترِمًا مشاعرها وشعائرها وطقوسها، وهي الطقوس المُرتبِطة جميعًا بتجارتها ومكاسبها، وما في تلك الرسالة من طمأنة ضمنية وإبراق فصيح بالتحولات الآتية؛ فإن مكة لم ترَ في ذلك العدد الهائل من المُقاتِلين الذين يصل عددهم إلى ألف وستمائة، سوى مُحاوَلة مكشوفة لدخول مكة تحت ستار العمرة، مُحتمِية بحرمة الأشهر الحرم؛ لتُعمِل سيوفها في بطن مكة من الداخل بغتة؛ وهو الدرس الذي لم تنسَه قريش منذ سرية عبد الله بن جحش التي انتهكت الأشهر الحرم، وحلَّلها الكلم القرآني وصادق عليها؛ لذلك ما إن بلغت أخبار بدء يثرب بالمسير إلى مكة، حتى أخذت مكة تُهيِّئ رجالها على الطريق؛ لتقف في وجه الغزو الآتي. وبلغ النبي أن على الطريق قد وقف بنو لؤي بجموعهم وخيلهم، فتوجَّه إلى رجاله قائلًا:

> أشيروا عليَّ، أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم، فنُصيبهم؛ فإن قعدوا موتورين محرومين وإن نجوا تكن عنقًا قطعها الله؟ أم ترون أن نؤمَّ البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟[٥]

---

[٢] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٦٦. انظر أيضًا ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٦٩.

[٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٦٦.

[٤] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٩٩، ١٠٠.

[٥] نفسه: ص١٠٠.

كان بإمكان المسلمين أن يميلوا على مضارب بني لؤي الخالية من الرجال؛ ليقتلوا ما شاءوا من أطفالهم، وتكون عنقًا قطعها الله، وكان بإمكانهم أن يتوجهوا عن طريق آخر إلى مكة، فإن اعترضتهم قريش قاتلوها؛ وردًّا على استشارة النبي رجاله جاءه جواب أبي بكر الصديق الحكيم «... من حال بيننا وبين البيت قاتلناه.»[٦]

وإعمالًا للمشورة، يُخبِرنا ابن سعد بما تلا ذلك من أحداث، فيقول:

سار النبي ﷺ حتى دنا من الحديبية، وهي طرف الحرم، على تسعة أميال من مكة، فوقعت يدا راحلته على ثنية، تُهبِطه على غائط القوم، فبركت، فقال المسلمون: حل، حل. يزجرونها، فأبت أن تنبعث، فقالوا: خلأت القصواء.

وهنا تأتي برقية جديدة لقريش لمزيد من الطمأنة، تحمل في فحواها معاني لذوي العقول، في قول المصطفى ﷺ:

إنها ما خلأت، لكن حبسها حابس الفيل. أما والله لا يسألونني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرها فقامت، فولَّى راجعًا عوده على بدء، حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية.[٧]

وبينما القوم يُنيخون رحلهم، حمل بشر بن سفيان الكعبي خبرًا آخر عند عسفان، يقول للنبي:

يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوًى، يُعاهِدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدَّموها إلى كراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ:
يا ويح قريش.
لقد أكلتهم الحرب.
ماذا لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب؟
فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا،

---

[٦] الموضع نفسه.

[٧] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٦٦.

> وإن أظهرني الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين،
> وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة.[٨]

وتحاشيًا للاصطدام بجيش خالد بن الوليد، قال النبي بين رجاله: «من رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟» فيقوم له دليل يسلك معه النبي وجيشه طريقًا وعرًا بين الشعاب، حتى يهبط الوادي. وتعلم قريش بمكانه، فتُرسِل له حليفًا له من خزاعة، هو بديل بن ورقاء، برسالة، ليرده إليهم النبي برسالة أخرى تُؤكِّد أنه جاء مُعظِّمًا لحرمة بيتهم، رمز تجارتهم وسطوتهم وسلطانهم ومعتقدهم. ويذهب بديل بالرد النبوي ليقول: «يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمدًا لم يأتِ لقتال، إنما جاء زائرًا مُعظِّمًا لهذا البيت.» لكن قريشًا التي تعلم هوى خزاعة مع النبي تتهم بديل وتُخوِّنه؛ ذلك الهوى الذي كان يعلمه كُتاب السير والأخبار وهو ما أفصح عنه ابن كثير في قوله:

> وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يُخفون عنه شيئًا كان بمكة.[٩]

ولتُجِب على بديل بردها:

> وإن كان جاء لا يريد قتالًا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا، ولا تُحدِّث العرب بذلك عنا.[١٠]

وتتذاكر قريش ما حدث لقريظة؛ ذلك الحدث الذي أذهل العرب جميعًا وقريشًا بخاصة، فأي قتال كان في الجزيرة، كان لا يصل إلى إبادة ذلك العدو جميعًا، وإبادة قوم بكاملهم، وما صحب الحدث من إنذارات تمثَّلت في الآي الكريم: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾؛ ليأخذ الرعب بقلب مكة قابضًا منها على الجوانح والحشايا، وتظن بالنبي الكريم سوء الظن، وتتسارع أنفاسها وهي تتصور دخوله عليها، ومصيرًا كمصير قريظة وفناء من على وجه الأرض إلى آخر الدهر. فقامت تدفع برسلها إليه

[٨] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٢٥.
[٩] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٦٨.
[١٠] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٢٦.

رسولًا في عقب رسول، فتبعث بعد بديل مكرز بن حفص، وهو من عامر بن لؤي الذين يحملون للنبي كراهية. فلما رآه النبي مُقبِلًا، قال: «هذا رجل غادر.» ثم قال له ما سبق وقال لبديل ليحمله إلى مكة.[١١]

ثم يُردِفون وراء مكرز، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وهم قوم قد تدروشوا في حب البيت حتى قدَّسوا أمره جميعًا، وصاروا يُمثِّلون أشد الاتجاهات تعظيمًا لحرمة البيت وشعائره. فلما رآه النبي قادمًا عن بعد، قال لرجاله: «إن هذا من قوم يتألهون.» ويشرح ابن سيد الناس مُعقِّبًا شارحًا: «يتألهون: يُعظِّمون أمر الإله. قال الخشني: التألُّه التعبُّد. ورأيت عن ابن الكلبى في نسب الحليس بن ريان، أنه الحليس بن عمرو بن عامر بن المغفل.»[١٢] ومن هنا كان التصرف الذي يمكن أن يُقنِع الحليس، فقال النبي بسرعة: «ابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه.» أي أرسلوا النوق المُشعَّرة المُجلَّلة المُهداة للذبح ليراها، وهنا يقول ابن هشام:

> فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك.[١٣]

وتُرسِل قريش رسولًا آخر إلى مجلس النبي، من سادة ثقيف، هو «عروة بن مسعود الثقفي»، الذي وصل إلى مجلس النبي وجلس قبالته مباشرة، ليُفصِح عن رعب قريش وذكرى قريظة في قوله:

يا محمد،
أرأيت إن استأصلت قومك،
فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟
يا محمد،
جمعت أوشاب الناس (الأوباش)، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟
لَكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا!

---

[١١] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٦٨.

[١٢] ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج٢، ص١٦٢.

[١٣] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٢٦.

لكن ليرد عليه أبو بكر على الفور:

امصُص بظر اللات.
أنحن ننكشف عنه؟

فيلتفت عروة ليسأل النبي: من هذا يا محمد؟

ولما لم يكن من المقبول ألا يعرف عروة شخصية أبي بكر، فإن الاستنتاج هو أن أبا بكر كان مُلبَّسًا بالحديد، خوذة ودروع، ويُجيبه النبي: «هذا ابن أبي قحافة.» فيرد عليه عروة مُعرِضًا عن إهانته: «والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بهذا، ولكن هذه بها.»

ويستمر عروة يُحدِّث النبي، ويتناول لحية رسول الله ﷺ كلما حدثه، «والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد فجعل يقرع يده إذا تناوَل لحية الرسول ﷺ ويقول: اكفُف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك. فيقول عروة: ويحك ما أفظك، ما أغلظك!»

ويبتسم رسول الله؛ لأن عروة لم يعرف ابن أخيه وهو مُدرَّع بالحديد، ذلك الحديد الذي كان كافيًا لإقناع عروة أن الأمر ليس أمر عمرة أبدًا، ويتساءل عروة: من هذا يا محمد؟ فيُجيبه: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.

وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلًا من بني مالك، ثم فرَّ إلى النبي مسلمًا، ودفع عنه عمه عروة ديتهم جميعًا، وهنا يقول عروة للمغيرة: «أيْ غُدَر؟ وهل غسلتُ سوءتك إلا بالأمس؟»

ويتطلع عروة حوله؛ فيرى بين إبل الهدي جملًا مُهدًى لأبي جهل، وهو ما جاء في قول ابن عباس: «إن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هداياه جملًا لأبي جهل، في رأسه برة من فضة.»

ويُقلِّب عروة النظر هنا وهناك فيزداد عجبًا؛ فالرسول لا يبصق بصاقًا إلا ابتدره أصحابه، ولا يتنخم نخامة إلا تسابقوا عليها يتلقونها بأكفهم يدلكون بها وجوههم، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، ولا يُحِدون النظر إليه تعظيمًا وإجلالًا، فينهض الرجل مشدوهًا مبهوتًا، ويعود إلى قريش يقول:

يا معشر قريش،
إني قد جئت كسرى في ملكه،
وقيصر في ملكه،

والنجاشي في ملكه،
وإني والله ما رأيت ملكًا قط في قومه،
مثل محمد في أصحابه.[١٤]

وهنا يخطر للنبي خاطر، قبل أن تعود إليه رسل مكة، فيختار من رجاله رجلًا عزيزًا على ملأ مكة وأشرافهم من الأمويين، هو «عثمان بن عفان» الأموي، فيُرسِله إلى أهله بمكة يحمل رسالة إليهم. ويتأخر عثمان في العودة، لأمر كان مقدورًا في باطن الزمان؛ حيث تسري شائعة لا نعلم من أطلقها؛ أن عثمان بن عفان قد قتلته قريش؛ ومن ثَم توجَّب الانتقام، فيدعو النبي المسلمين فجأة ودون مُقدِّمات واضحة، إلى بيعته، تسليمًا له في أي قرار ويتخذه دون مناقشة، فكانت بيعة الرضوان على أي أمر يراه النبي حتى لو كان الموت؛ ومن هنا كانت تلك البيعة تسليمًا لما هو في باطن الساعات الآتية، آتٍ. وكُوفِئ جميع من أعطى التسليم في قول النبي لهم: «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها.»[١٥]

وبانتهاء البيعة، يظهر عثمان بن عفان سليمًا مُعافًى ليس فيه شيء، وتعلم قريش أنها لن تستطيع أن تُزحزِح محمدًا ورجاله، وأنها لن تنجو من مصير قريظة إلا بالتساهل، خاصةً بعدما بلغتها الرسالة: «والله لا يسألونني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها.» وهي ما تعني رغبة في الصلح.

وتساهلت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو، رجل المُفاوَضات المُحنَّك إلى النبي، لكنها بدافع من الأنفة والعزة، وضعت للصلح شروطًا تضمن لها كرامتها أمام الأعراب، وهو ما وعاه النبي فورَ أن رأى سهيلًا يُهِل على المسلمين، فالتفت إلى رجاله يقول: «لقد سهَّل الله لكم أمركم.»[١٦]

ويجلس سهيل مع النبي، ويعرض عليه عروض مكة؛ وهي الصلح بهدنة مدتها عشر سنوات، لا يتعرض فيها أحد للآخر، وهو ما يضمن عودة الأمان للطريق التجاري. ويوافق النبي.

---

[١٤] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٠٢. انظر أيضًا ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٢٦–٢٩. انظر أيضًا شرح السهيلي في الروض الأنف، سبق ذكره، ج٤، ص٣٥.

[١٥] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٣.

[١٦] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص١٠٥.

وأن من أحب أن يُحالِف قريشًا من العرب حالفها، ومن أحب مُحالَفة محمد حالفه. ويُوافِق النبي.

وترتفع المطالب المكية تدريجيًّا للاختبار وجس النبض، ليقول سهيل:

ومن أتى محمدًا بغير إذن وليِّه ردَّه إليهم. ويُوافِق النبي.

ثم تتعالى نبرة التشدُّد أكثر فيقول سهيل: وأنه من أتى قريشًا من أصحاب محمد لم يردوه إليه. ويُوافِق النبي.

ويستمر سهيل: ويعود محمد برجاله عن مكة هذا العام ليعودوا في العام المُقبِل دون سلاح أو حديد إلا سلاح الراكب المسافر العادي، حيث يتركها لهم أهلها ثلاثة أيام، يعتمر بها ثم يتركها مُغادِرًا. ويُوافِق النبي.

ويقول ابن كثير إن المسلمين وهم يرون تشدُّد سهيل وتساهُل النبي أمامه كادوا يهلكون غمًّا وغيظًا ونكدًا. ويزداد الغم عندما تبدأ كتابة كتاب الصلح الرسمي؛ فعندما بدأ النبي يُملي علي بن أبي طالب الكتاب قائلًا: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.» رد سهيل على الفور:

أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو!
اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب.

ويهتف المسلمون بالرفض والاستهجان والشجب، يُصِرون على «بسم الله الرحمن الرحيم»، لكن النبي يقول لعلي: «اكتب: باسمك اللهم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.» لكن ليعترض سهيل مرة أخرى بالقول:

لو كنا نعلم أنك رسول الله،
ما قاتلناك، لكن اكتب اسمك،
واسم أبيك.

فيأمر النبي عليًّا أن يمحو «رسول الله»، فيرفض علي رفضًا قاطعًا قائلًا: «والله لا أمحاك أبدًا.» فيُمسِك النبي الصحيفة — فيما روى البخاري — ويمحو «رسول الله»، ويكتب بخط يده «محمد بن عبد الله».[١٧]

---

[١٧] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص١٦٤.

وبينما المسلمون في غم وشدة وكرب، يأتي ما يزيد الهم همًّا والكرب كروبًا؛ فيُفاجئهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو قد انفلت من مكة يرسف في قيوده ليصل في تلك اللحظة الحرجة إلى النبي جالسًا مع أبيه يكتتبون صلحهم ليقفز سهيل بن عمرو قائلًا للنبي ﷺ: «وهذا يا محمد أول من أُقاضِيك عليه أن ترده.» فيرد النبي: «إنا لم نقضِ الكتاب بعد.» لكن ليرد سهيل بعنف، مُقسِمًا إن لم يفعل: «والله لا نُصالِحك على شيء أبدًا.» فيقول النبي ﷺ: «إذن فأجِره لي.» فيقول أبوه: «ما أنا بمُجيره لك.» فيعود النبي للقول راجيًا: «بلى، فافعل.» لكن ليرد سهيل: «ما أنا بفاعل.»

ويروي لنا ابن كثير تفاصيل تلك الوقائع فيما يروى:

> فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا لا يشكُّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ. فلما رأوا من الصلح، والرجوع، وما تحمَّل عليه رسول الله في نفسه، دخل من ذلك أمر عظيم على الناس حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد قد لجَّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فجعل ينتزه بتلبيبه ويجره، يرده إلى قريش؛ وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرَد إلى المشركين يفتنوني في ديني. فزاد ذلك الناس إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المُستضعَفين مخرجًا، إنا عقدنا مع القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهدًا، وإنا لا نغدر بهم. فوثب عمر بن الخطاب يمشي مع أبي جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. ويُدني قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، فضن الرجل بأبيه.[١٨]

[١٨] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٠٧. انظر أيضًا البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص١٠٥، ١٠٦. انظر أيضًا ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٠، ٧١. انظر أيضًا ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص١٦.

وقد لقي عمر بن الخطاب من أمر هذا الصلح رهقًا شديدًا استنفره استنفارًا حتى ذهب إلى النبي يقول:

ألم تعِدنا أن نأتي البيت ونطوف به؟
قال: نعم.

وبين الإجابة، وبين واقع ما يحدث، أخذت الحيرة والرعدة الغاضبة عمر ليذهب إلى أبي بكر يقول في حوار مُتوتِّر:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟
أبو بكر: بلى.
عمر: أوَلسنا بالمسلمين؟
أبو بكر: بلى.
عمر: أوَليسوا بالمشركين؟
أبو بكر: بلى.
عمر: فعلامَ نُعطي الدنية في ديننا؟
أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه؛ فإني أشهد أنه رسول الله.
عمر: وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة!

ويشرح السهيلي مُعقِّبًا على قولة عمر، التي لم تُحوِّله إلى منافق كما هي العادة مع المعترضين والشكاكين:

وفي هذا أن المؤمن قد يشك، ثم يُجدِّد النظر في دلائل الحق، فيذهب شكه، وقد رُوِي عن ابن عباس أنه قال: هو شيء لا يسلم منه أحد.[١٩]

وأمام شك رجل في وزن عمر، وهو من هو، وهو وزير الرسول، وهو الذي عز به الإسلام، جاء الوحي ليقطع الشك باليقين الصادق مُؤكِّدًا:
﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ (الفتح: ٢٧).
و﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: ١).

[١٩] السهيلي: الروض الأنف، سبق ذكره، ج٤، ص٣٧، ٣٨. انظر أيضًا ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٧٠.

ومع تأكيد الوحي أن الرؤيا قد صدقت، وأن كتاب الصلح كان فتحًا مُبينًا، كان يُفترَض أن يهدأ الأمر ويستكين، لكن بعض صحابة رسول الله ﷺ كان لهم رأي آخر؛ «فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح؛ لقد صدونا عن البيت، وصُد هدينا. ورد رسول الله رجلَين من المسلمين كانا قد خرجا إليه، فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك فقال: «بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح.»[٢٠] ومن ثم يُثني ابن هشام مُوضِّحًا ما حدث من لبس عند الصحابة، فيقول: «إن بعض من كان مع رسول الله ﷺ قال له لما قدم المدينة: ألمْ تقُل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمنًا؟ قال: بلى. أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا: لا. قال: فهو كما قال لي جبريل عليه السلام.»[٢١]

ونعود إلى المسلمين وهم في كربهم إبان كتابة الصحيفة الرسمية في اتفاق هدنة ومصالحة، لنرى النبي بعد توقيعات الشهود يقوم يُنادي رجاله لاستكمال شعائر العمرة التي لم تتم، قائلًا: «قوموا فانحروا ثم احلقوا.» ليقول لنا ابن الأثير إن الناس جميعًا قد تعصَّبوا على رسول الله، في قوله: «فما قام أحد، حتى قال ذلك مرارًا، فلم يقُم أحد منهم، فدخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يا نبي الله، اخرج ولا تُكلِّم أحدًا منهم، حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك. ففعل. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا.»[٢٢]

ويقول ابن هشام إن النبي «قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق ... فرأى الناس أن رسول الله قد نحر وحلق، فوثبوا ينحرون ويحلقون ... عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصَّر آخرون. قال رسول الله: يرحم الله المُحلِّقين. قالوا: والمُقصِّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المُحلِّقين. قالوا والمُقصِّرين يا رسول الله؟ قال: والمُقصِّرين. فقالوا: يا رسول الله، فلمَ ظاهرت بالترحيم للمُحلِّقين دون المُقصِّرين؟ قال: لم يشكُّوا.»[٢٣]

أما الرجل الآخر الذي جاء النبي مسلمًا فرده إعمالًا لبنود الهدنة، فهو أبو بصير بن عتبة، حيث هرب إلى يثرب ولحق بالرسول ﷺ فكتب فيه للنبي الأزهر بن عوف والأخنس بن شريق، وبعثا بالكتاب رجلًا من بني عامر ومعه مولًى له، يطلبون رد أبي بصير،

---

[٢٠] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص١٦١.

[٢١] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٣٢.

[٢٢] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٠٥.

[٢٣] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٢٩.

فرده معهما، لكن ما إن غادروا يثرب حتى انتهز أبو بصير فرصة أخذ فيها سيف العامري وقتله، وعاد للنبي يقول: «يا رسول الله وفَّيت ذمتك، وأدَّى الله عنك. أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أُفتَن فيه، أو يُعبَث بي.» وغادر أبو بصير مجلس النبي مُيمِّمًا خارج يثرب نحو الساحل، على طريق تجارة قريش، ليتبعه النبي بقوله يُردِّد:

ويل أمه مِحَش حرب،
لو كان معه رجال.

وبلغت كلمات النبي المُستضعَفين بمكة «لو كان معه رجال» فخرج إليه نحو سبعين رجلًا من المُستضعَفين يقطعون تجارة قريش، يقتلون رجالها ويسلبون ما فيها، حتى اضطرت قريش أن تكتب للنبي تسأله فيها بصلة الرحم أن يأوي أبا بصير ورجاله في يثرب، وأنها لا حاجة لها بهم، فعادوا إلى يثرب بموافقة مكة، ورغم بنود عهد الهدنة.[٢٤]

ولم يكن ذلك أول كسر لبنود صحيفة الهدنة، وهو وإن تم برضا قريش، فهو رضا المُكرَه، وكان بتحريض من النبي، لكن حدثت كسور أخرى، عندما هربت أم كلثوم بنت عقبة إلى النبي، وخرج وراءها أخواها عمارة والوليد يطلبان ردَّها بمُوجِب شروط عهد الحديبية، وببساطة تامة يقول ابن هشام عن رد النبي ﷺ: «فلم يفعل، أبى الله ذلك.»[٢٥] فالله هو الذي أبى وليس النبي، بدليل الوحي القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (الممتحنة: ١٠).

ورغم تأكيد النبي، والله، أن ما حدث يوم الحديبية كان أعظم الفتح، فإن هناك من شك، وهناك من اعترض؛ ومن جانبهم رأى كُتاب السير والأخبار أن يُضيفوا للأمر بعض المُبهِرات من أحاجيهم المعتادة، فيروي البيهقي عن البراء:

> كنا مع النبي أربع عشرة مئة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء ماء منها، فتوضَّأ ثم مضمض ودعا، ثم صبَّه فيها، فتركها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا نحن وركائبنا.

---

[٢٤] نفسه: ص٣١.

[٢٥] نفسه: ص٣٢.

ومعجزة مائية أخرى، يرويها لنا الصحابي جابر في حوار له مع شعبة إذا يقول:

أُتِي رسول الله بماء في تَور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسِعنا وكفانا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفًا وخمسمائة.[٢٦]

ثم معجزة ثالثة حول تكثير الطعام عندما جاع الجيش في قول الصحابة للنبي:

يا رسول الله، لو انتحرنا من ظهورنا، فأكلنا من لحومها وشحومها وحسَونا من المرق، أصبحنا غدًا إذا غدونا عليهم وبنا جمام. قال: لا، ولكن ائتوني بما فضل من أزوادكم. فبسطوا أنطاعًا ثم صبوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم. فدعا عليها رسول الله ﷺ بالبركة، فأكلوا حتى تضلَّعوا شبعًا، ثم لفلفوا فضول ما فضل من أزوادهم في جُرُبهم ... عن عبد الله قال ... كنا نأكل مع النبي ونحن نسمع تسبيح الطعام.[٢٧]

نتائج الحديبية

يقول ابن الأثير عن صلح الحديبية: «فما فُتِح في الإسلام قبله فتح أعظم منه؛ حيث آمن الناس كلهم، فدخل الإسلام في تَينك السنتَين مثلما دخل فيه قبل ذلك وأكثر.»[٢٨] ويقصد ابن الأثير بالسنتَين، السنتَين اللتَين مرَّتا ما بين صلح الحديبية وبين عام فتح مكة، وهو الفتح الذي سبق وشك فيه الصحابة، وتساءلوا رغم الوحي الواضح: أوَفتح هو؟ حتى اضطر سيد الخلق على القسم بالله للناس أنه فتح قائلًا: «إي والذي نفسي بيده إنه لفتح.»[٢٩] فكيف يمكن رؤية ما حدث في الحديبية باعتباره بالفعل أعظم الفتوح؟

إن قليلًا من التمعُّن في خط سير الأحداث، سيكشف من فوره عن صلح الحديبية كفتح عظيم بالفعل، وعمل دبلوماسي من أعظم أعمال الدبلوماسية والسياسية، يستحق

[٢٦] أخرجه البخاري في ٦٤ كتاب المغازي ٣٥ باب غزوة الحديبية، الحديث ٤١٥٢.

[٢٧] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص١١٥، ١٢٠، ١٢٩.

[٢٨] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٠٥.

[٢٩] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٦.

أن تدرسه بإمعان أكاديميات العالم العسكرية، وأنه كان بمصداقية الرسول الكريم وبلاغة الوحي الصادق، هو الباب إلى فتح الفتوح.

لو عُدنا قليلًا إلى الوراء نُطالِع تطوُّر الأحداث بعد غزوة الخندق سنلحظ دون جهد يُذكَر أن خيبر بعد نزول يهود يثرب إليها بقياداتها، ودورها الذي قامت به في الخندق، قد تحوَّلت إلى مركز قوة طالع، مع النشاط الذي لم يهدأ لليهود بين قبيلتَي أسد وغطفان لتجديد الأحلاف القديمة، مع الإغراء بمِيرة خيبر الزراعية، ناهيك عن مفاوضاتهم لقبائل الشمال من فدك وما وراءها.

وكان وصول المعلومات إلى النبي عن خيبر أولًا بأول قد كوَّنت لديه فكرة واضحة عن تنامي قوة خيبر، بحيث دخلت توازنات القوى في الجزيرة وأصبحت مركز قوة جديد أصاب تلك التوازنات باختلال، أزاح قريشًا إلى موقع خلفي، وكان معنى أن تُترَك خيبر تتنامى دون تدخُّل يحد من ذلك التطور، فهو ما كان يعني أن المدينة سوف تُصبِح بين طرفَي معادلة شديدة الخطورة؛ فخيبر في الشمال مع أحلافها، وقريش في الجنوب، وأي تحالف ثنائي بين خيبر وقريش كما حدث في الخندق كان كفيلًا بتهديد حقيقي لدولة يثرب.

ومن ثَم كانت عمرة الحديبية التي وعى مُؤرِّخونا أهدافها فأسمَوها غزوة الحديبية، حيث كان النبي قد توجَّه نحوها بعسكره مُسلَّحين مُدرَّعين مُلبَّسين بالسلاح، لكنه عندما التقى ببديل بن ورقاء الخزاعي حمَّله إلى قريش رسالة واضحة تقول:

> إننا لم نجِئ لقتال أحد،
> ولكننا جئنا مُعتمِرين.
> وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأخذت بهم؛
> فإن شاءوا مادَدتهم مدة ويُخَلوا بيني وبين الناس،
> وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا،
> وإلا فقد حُموا.
> وإن هم أبَوا،
> فوالذي نفسي بيده لأُقاتِلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو ليُنفِذن الله أمره.[٣٠]

---

[٣٠] الديار بكري: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د.ت، ج٢، ص١٨.

وهكذا أعلن النبي لقريش أنه يعلم بحالتها المُنهَكة والمُتردِّية، وأنه مع ذلك يعرض عليها من الخيارات ثلاثة: أولاها هدنة مُحدَّدة المدة؛ وكي يدفعهم لقبول الهدنة، أرفق بخيار الهدنة خيارات أخرى أشد قسوة عليهم، وجاءهم بقوة مسلحة قادرة، ولم يُعلِن لأصحابه أبدًا الرغبة في الهدنة بل وعدهم بالفتح، حتى يظهروا أمام قريش وسفاراتها إليهم في أكمل استعداد للانقضاض، ولم يُظهِر لهم إطلاقًا ما قر في ضميره لدفع قريش إلى قبول الهدنة.

وقد وضح لدينا مدى شعور قريش بالضعف، الذي ظهر في إرسالها السفراء واحدًا إثر آخر. أما أبرز الشواهد على أن النية على الهدنة كانت معقودة بداخله وحده، وربما علم بها أبو بكر فقط، تتمثل في أنه سمح بتسرُّب الأخبار لقريش عن مسيره إليها، بقصد أن يعلموا بتحرُّكه، ثم إعلانه ذلك صراحة لكن ضمن خيارات أخرى، مع تشديده على رجاله بإظهار القوة، ثم خطوته المحسوبة بدقة بإرسال عثمان بن عفان الأموي تحديدًا برسالته إلى أهل مكة، ثم حرصه الواضح بعد ذلك لتذليل كل العقبات التي تقف أمام عقد الهدنة مع سهيل بن عمرو، مع ذلك القدر من المرونة الذي فاجأ رجاله وجعلهم يجأرون بالمعارضة والوجيعة مما يحدث.

لأول مرة يعترف الملأ المكي سادة الحجاز وأشراف العرب، أصحاب الأشهر الحرم، وأهل الله ورعاة بيته، رجال العرب المُقدَّمون وسراتهم، لأول مرة يعترفون في عهد مكتوب وكتاب مُوثَّق بشهادات الشهود، بدولة يثرب، وبسيدها؛ اعتراف واضح من سيد لسيد أنه سيد، بل هو اعتراف من سادة العرب للسيد الجديد أنه رئيس دولة مُستقِلة ذات سيادة، وهو ما يعني تخلي قريش عن فكرة قيادتها وحدها للعرب، بدليل البند الخاص بترك الحرية لمن أراد أن يدخل في عقد محمد، واكتفائها بتحصين نفسها ضد مُؤثِّراته؛ وهو الأمر الذي سمح بعد ذلك بانتشار أتباعه يدعون بين العرب، ودخول العرب في حلف يثرب بأعداد لم تشهدها الدولة من قبل. أليس ذلك إذن فتحًا حقيقيًّا من وجهة نظر الدبلوماسية، والتكتيكات العسكرية المرحلية؟

ومن بنود الصحيفة أصبح بإمكان النبي مع رجاله أن يزوروا مكة أيامًا ثلاثة، وهو أمر شديد الخطورة؛ حيث سيكون بإمكان أهل مكة أن يروا بنيانه ودولته ورجاله عن قرب مما يُتيح لهم المقارنة والفهم.

كما أدَّت الحديبية إلى تفكُّك المجتمع المكي وانهيار مُقاوَمته النفسية بعد تدهور قناعة أهل مكة بإمكان استمرار وضع قريش السيادي؛ ومن ثَم دخل رجالهم المُقدَّمون في دين الله، وكان أبرزهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

كان اليهود يُشكِّلون في بداية الأمر مَطمحًا لدعوة الإسلام؛ للانضواء تحت لوائها واتباع صاحبها، لكن بمضي الوقت تكشَّف لليهود وللنبي ﷺ اختلاف توجهاتهم بل وتضاربها، وكان استمرار وجود اليهود في يثرب على يهوديتهم يُشكِّل شرخًا عميقًا في بناء دولة قامت على أيديولوجيا دينية واحدة مُوحَّدة؛ وعليه فقد كانوا عقبة كأداء بحسبانهم أصحاب كتاب من ذات المصدر السماوي الذي يأتي منه الكلم القرآني، وكان مُفترَضًا أن يكونوا مُصدِّقين لما أتى محمد من آي الكتاب القرآني، لكنهم إطلاقًا لم يعترفوا له بهذه الصلة مع السماء، وكان رأيهم باعتبارهم أصحاب الكتاب الأول هو العامل الحاسم لدى العربان في مدى صدق علاقة الآي القرآني بالسماء، لكن وجودهم في يثرب وعدم اتباعهم دعوة النبي الدينية حمل للعربان إشارات واضحة ودلالات بإنكارهم عليه تلك النبوة، فكانوا المُنكِر السماوي القائم في الواقع العربي للوحي القرآني؛ وهو ما أدَّى إلى بدء صراع طويل معهم انتهى بطردهم من يثرب، وطردهم من رحمة الإله بعدما كانوا عنده أفضل العالمين، وتم أثناء ذلك إزاحة رموزهم الدينية إلى الوراء، فحلَّت الكعبة المكية محل أورشليم، وعاد النبي إلى تمجيد المعبد الذي قدَّسه الجاهليون طوال عصورهم الجاهلية، وهي العودة التي صحبت باحترام ذلك البناء المكي المُتواضِع هندسيًّا ومعماريًّا، وإلقائه في رحم تاريخ أقدم يعود به إلى زمن آدم ثم إبراهيم فإسماعيل. وهو التحول الذي لفت انتباه قريش، حيث بدأت تلحظ ما يمكن أن يتحقق لها مع محمد وبه، وهم يرونه نتيجة الخندق يتخلص من آخر يهودي بيثرب، ليتحول تمامًا مع غزوة الحديبية إلى المشاعر العربية القرشية المكية، فيُهِل بالمناسك الأولى التي هي مناسكهم وأعرافهم التي تواضعوا عليها. ثم لا شك يتذكرون قول عتبة بن ربيعة حكيمها المُقدَّم، وهو يقول لهم منذ زمان قبل أن يُواريه ثرى بدر: «أطيعوني وخلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن للذي سمعت منه نبأ؛ فإن أصابته العرب فقد كُفِيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فمُلكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.»

والمقصد من هذا كله أن عقلاء مكة، قد أصبحوا الآن يرون ما لم يكن بإمكانهم رؤيته من قبل، خاصة بعد أن وجَّه أنظارهم لما ينتظرهم من أمجاد، بغزواته على حدود الروم فيما بين ٦٢٦ و٦٢٩. وجلَّى لديهم أنهم فقط بالاتفاق السلمي والتسليم له ولقيادته، يمكنهم المحافظة على مكانتهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، والخروج معه إلى الدنيا الرحبة، خاصة بعد أن رأت النبي ﷺ يفتح لها الأبواب ويعُد لها المواقع في منظومة دولته سياسيًّا ودينيًّا واقتصاديًّا ومجتمعيًّا.

وكان اعتراف النبي لقريش بقواعد التعامل مع البيت المكي الحرام، وبالعمرة، وبالنسق الديني الجاهلي المُتعلِّق بالكعبة، بلاغًا واضح المعاني والمعالم بخطواته التوفيقية الجديدة؛ ومن ثَم تصرَّف النبي في الحديبية بحنكة ومهارة رجل السياسة وسائس الدولة الدبلوماسي، وهو ما لم يفهمه المسلمون الصحابة لأول وهلة، بينما كان عروة بن مسعود يعود يُعلِن لقريش قبيلة النبي أن ولدهم قد أصبح ملكًا لا تُدانيه ملوك الأرض، وأنه ما رأى ملكًا مثله قط، وهي مجموعة المتوافقات التي أدَّت خلال الهدنة، بل خلال أشهر قليلة، إلى اندفاع العربان وجند قريش إلى سيد الدولة اليثربية، يُعلِنون الطاعة والإسلام، وعلى رأسهم خالد بن الوليد، الجندي الحاذق الذي سيُصبِح سيف الدولة وسيف الله، وعمرو بن العاص داهية العرب ورجل السياسة الذي لا يُشَق لمكره غبار، وغيرهم ممن شكلوا من بعيد قيادات العسكرتاريا العربية.

وتأسيسًا على ما أدَّت إليه الحديبية من اعتراف سادة العرب لمحمد بالسيادة، مع الاعتراف الواضح بدولته، صنع الرسول لنفسه وللدولة خاتمًا رسميًّا؛ ليُصدِّق به على رسائله الرسمية للعالم، التي بدأت تفد على الملوك والقياصرة ممهورة بخاتمه، يدعوهم فيها إلى اتباعه، ووصلت تلك البعوث الأولى من العرب إلى الدنيا تُعلِن النجاشي والمقوقس وعظيم الروم وكسرى فارس بقيام دولة جديدة على خريطة عالم ذلك الزمان.

أما النتيجة الأهم إطلاقًا وتتشابك مع كل الأسباب والنتائج، فهي أن النبي قد تمكَّن بصلح الحديبية من تأمين خطوطه الخلفية من أي تحرُّك مُعادٍ تقوم به قريش، ومع انهيار قريش توجَّه النبي إلى مركز القوة الصاعد، إلى خيبر.

فتح خيبر

الله أكبر! خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذَرين.

النبي ﷺ

﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ... وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾ (الفتح: ١٨–٢١).

وهذا وعد آخر بفتح قريب، تليه فتوح أخرى مُقبِلة لم يتمكن المسلمون منها، لكن الله يُمهِّدها لهم، فيُحيط بها ويُجهِّزها للفتح، حيث يبدو أن الأتباع لم يُعجِبهم ما حدث بالحديبية، ولم يُدرِكوا مرامي العهد البعيدة، وأفصح بعضهم عن أن النبي لم يُحقِّق لهم في الحديبية ما وعدهم به سلفًا، ومع تأكيده لهم أن ما تم من عقد صلح الهدنة كان فتحًا عظيمًا، فإن رؤاهم قصرت عن تتبُّع البصيرة النبوية وهي تعمل في الآتي؛ ومن هنا جاءت تلك الآيات بوعد جديد، يُعوِّض المسلمين عن فتح مكة ويُثيبهم بدلًا عنها بفتح آخر قريب، إضافة لفتوحات أخرى أعظم حاولوها ولم يقدروا عليها؛ ومن ثَم عقَّب الحكم على الآيات بقوله:

أخبرني عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، قال: خيبر. ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾، قال: فارس والروم.[١]

وعقَّب موسى بن عقبة بقوله: «لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، مكث عشرين يومًا أو قريبًا من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، وهي التي وعده الله إياها.» أما مروان والمسور

[١] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٣.

فقد قالا: «انصرف رسول الله عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة.»[2] وهو الأمر الذي يُفصِح عن معرفة القائد بدواخل رجاله، وضرورة الإسراع بما يُعوِّضهم بغنائم فورية، عوضًا عن أملهم الطَّموح في ثروات مكة العظمى، وهو ما وعاه البيهقي وهو ينقل عن الرواة القول:

> انصرف رسول الله ﷺ عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر.
> وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها،
> فعجل لكم
> هذه خيبر.[3]

وفي الطريق إلى خيبر، كانت غطفان بثقلها، تلك القبيلة الفزارية التي يقودها الطماع الأحمق المطاع، الذي خُذِل في اتفاقه السري بالخندق، وتم التخذيل بين الأحزاب دون أن يجني لطمَعه مَغنمًا، وعاد صفر اليدَين، فلا هو حارب برجاله مع قريش فغنم، ولا هو عاد من محمد بما اتفقا عليه من مكاسب.

ومن ثَم كانت خطة القائد أن ينزل الرجيع ليقطع بين غطفان وخيبر، وكان توقُّع القائد صائبًا؛ فقد جهَّزت غطفان رجالها لما سمعت بمسير جند الله لتُظاهِر خيبر ضد الجيش الإسلامي. وهنا، وما إن تحرَّك رجال غطفان نحو الرجيع حتى سمعت مُؤخِّرة جندهم ضجيجًا خلفهم، في بيوتهم، وجلبة شديدة، فعاد رجال غطفان سراعًا إلى ديارهم؛ خوفًا على أموالهم ونسائهم وذراريهم، لكن كتبنا الإخبارية لا تُحيطنا علمًا شافيًا وواضحًا بحقيقة ما حدث في ديار غطفان مما أجبرها على لزوم ديارها.[4]

المهم، وما يجب استنتاجه، أن غطفان لزمت ديارها بعد خطة مُقدَّرة ومُحكَمة أجبرتها على عدم الحركة، ليستمر الجيش اليثربي في تقدُّمه الوئيد الهادئ الكامن، يسير ليلًا ويكمن نهارًا، يستخفي حتى يبغت خيبر فجأة في حصونها وصياصيها. ويصل

---

[2] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٨٣.

[3] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص١٩٧.

[4] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢١٦. انظر أيضًا ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، ج٤، ص٤٠.

جند الله سارِين دون صوت عند سدول الليل، يُحيطون بالحصون دون أن يُصدِروا صوتًا أو يُشعِلوا نارًا، حتى تبدأ خيوط الفجر تُضيء المزارع حول الحصون. ويخرج مُزارِعو خيبر كعادتهم مع إشراقة الصباح، يسحبون ماشية الحرث والسكك والفئوس، لكن ليلمح أحدهم الخوذ والدروع المُتحرِّكة، ويلمحهم آخر كامنين بين الزروع، ليكتشف مُزارِعو خيبر الدوائر المُحكَمة تُحيط بهم من كل جانب، فيرجعون يدفعهم الفزع صارخين نحو حصونهم:

محمد، والخميس معه.
ليُجاوِب صراخهم الفازع هتاف النبي في رجاله مُعلِنًا بدء الهجوم.
الله أكبر!
خربت خيبر.
إنا إذا نزلنا بساحة قوم،
فساء صباح المُنذَرين.[٥]

كانت خيبر أرض زرع وسط بدو جياع، خبرت غدر العربان وإغاراتهم المُتكرِّرة وقت نضوج المحصول، عندما كانوا يهبطون عليها كالجراد ينهبون عرَق الشهور والتعب والجهد؛ وهو ما دعا الخيابرة إلى إقامة عدد من الحصون القوية والصياصي، لصد تلك الغزوات البربرية، لكن التجربة الجديدة مع الجيش الإسلامي المُنظَّم، أثبتت أنهم ليست مانعتهم حصونهم، فتدنى المسلمون يفتتحون الحصون حصنًا حصنًا، ليسقط حصن ناعم، وعنده يستشهد الصحابي محمود بن مسلمة، عندما ألقت عليه امرأة خيبرية رحاها من على سور الحصن، ثم حصن النطاة ليسقط بعده حصن الشق، ويهرب سكان كل حصن إلى الحصن الذي يليه، حتى يتحصنوا جميعًا في الحصون الخمسة الباقية، الأخبية والوطيح والسلالم والقموص والكتيبة.

ويظن الخيابرة أنهم باتوا في أمان، فيرفضون النداء المُردَّد حولهم بالخروج من الحصون مستسلمين، ليمر أربعة عشر يومًا من الحصار، انتهى بعدها النبي إلى قرار يتم تنفيذه لأول مرة في بلاد العرب، هو الأمر بإقامة المنجنيق لدك الحصون؛ ذلك السلاح

---

[٥] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢١٧. انظر أيضًا ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٤٠. انظر أيضًا ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٨٦.

الذي كان قاصرًا على جيوش الإمبراطوريات. وأيقن المُتحصِّنون بالهلاك، وأنه لو ضربها بالمنجنيق لدكها دكًّا، وآل مصير البقية الباقية إلى مآل قريظة.

وما إن يُشاهِد المُتحصِّنون فوق أسوارهم شكل العمل الذي يتم تحتهم في العراء، وطبيعته، حتى يُدرِكوا أنها أيام حتى ينتصب السلاح الرهيب. وهنا يخرج من الحصن تحت راية السلام زعيمهم كنانة بن أبي الحقيق، حاملًا للنبي صلحًا على شروط صلح النضير؛ أن يُغادِروا بلادهم، ويتركوا للنبي أموالهم وحصونهم وأرضهم، لا يأخذون معهم لا صفراء ولا بيضاء، اللهم إلا ما يستر العورة من لباس؛ فقط نظير أن يحقن النبي ﷺ دماءهم، ووافق النبي، وهو ما نقله ابن كثير عن الواقدي وهو يروي:

> فنزل إليه ابن الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم ويُسيِّرهم، ويُخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، على البر، إلا ما كان على ظهر الإنسان يعني لباسهم.[٦]

ثم يُردِف:

> فنزلوا من شدة رعبهم منه فصالحوه، وأموال بني النضير المُتقدِّم ذكرها، مما لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله خاصة.[٧]

لكن الصلح بهذه الشروط الواضحة لم يسِر حتى كمال اكتماله، فقد أضاف النبي ﷺ إلى الشروط شرطًا آخر حول الأموال حين قال:

> وبرئت منكم ذمة الله ورسوله، إن كتمتم شيئًا.
> فصالحوه على ذلك.[٨]

أو ما جاء عند ابن سعد برواية ابن عباس، في سؤال النبي ﷺ للزعيم الخيبري المرعوب كنانة بن أبي الحقيق، وأخيه الربيع:

> أين آنيتكما التي كنتما تُعِيرانها أهل مكة؟

---

[٦] ابن كثير: البداية، سبق ذكره. ج٤، ص٢٠٠.

[٧] نفسه: ص٢٠٤.

[٨] الموضع نفسه.

ويرتبك الزعيم المهزوم، ويجف حلقه وهو يقول مُتلعثِمًا: «هربنا فلم تزَل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فذهبنا، فأنفقنا كل شيء.» فيرد النبي ﷺ:

إنكما إن كنتما تكتماني شيئًا فاطلعت عليه، استحللت دماءكما وذراريكما.
فقالا: نعم.[٩]

وهنا نعلم أنه كان شَركًا وقع فيه الزعيمان حيث نعلم أن النبي كان يعلم سلفًا بأمر كنز عظيم، بل كان يعلم بمكانه، حيث يقول ابن سعد: «إن الله قد دل رسوله على ذلك الكنز.»[١٠] بينما يُوضِّح لنا ابن هشام في سيرته، سر معرفة الرسول بالكنز المخبوء، في قوله:

أتى رسولَ الله ﷺ رجل من يهود فقال لرسول الله ﷺ:
إني قد رأيت كنانة يُطيف بهذه الخربة كل غداة.

وهو ما دفع النبي للشرط السابق ذكره، والذي أورده ابن هشام في قوله:

فقال رسول الله ﷺ لكنانة:
أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟
قال: نعم.[١١]

وهنا نُتابِع من ابن سعد، الذي لم يعلم بأمر ذلك اليهودي الذي باع قومه وأفشى سر الكنز العظيم، مما دعا ابن سعد لاعتبار معرفة النبي بأمر الكنز خبرًا إلهيًّا، فنجده يقول في روايته مُتابِعًا:

فدعا النبي ﷺ رجلًا من الأنصار فقال: اذهب إلى قراح كذا وكذا، ثم ائتِ النخل فانظر نخلة على يمينك أو عن يسارك، فانظر نخلة مرفوعة، فأتِني بما فيه. فانطلق، فجاء بالآنية والأموال.[١٢]

---

[٩] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨١.
[١٠] نفسه: ص٧٧.
[١١] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره. ج٤، ص٤٣.
[١٢] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨١.

والآن وقد كُشِف خداع الرجلَين، وجِيء بكنزهم للنبي، توجَّه النبي إلى كنانة مرة أخرى يسأله ما بقي من كنزه، فأنكره.

فأمر به رسول الله الزبير بن العوام فقال:
«عذِّبه حتى تستأصل ما عنده.»
فكان الزبير يقدح بزند في صدره، حتى أشرف على نفسه.
ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.[١٣]

وانطلق السيف الإسلامي يعمل في المستسلمين، ليقتل منهم في قول ابن سعد «ثلاثة وتسعين رجلًا من يهود، منهم الحارث أبو زينب، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبي الحقيق، وأخوه، وإنما ذكرنا هؤلاء وسمَّيناهم لشرفهم.»[١٤]
وكان تبرير تلك المقتلة واضحًا لكل ذي عينَين، وهو ما ألح ابن كثير على شرحه وبيانه في قوله:

قلت: ولهذا لما كتموا وكذَّبوا وأخفوا ذلك المسك الذي كان فيه أموال جزيلة،
تبيَّن أنه لا عهد لهم!
فقتل أبي الحقيق، وطائفة من أهله، بسبب:
نقض العهود والمواثيق!
فقتل رسول الله ابنَي أبي الحقيق،
وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب.
وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم وأموالهم؛
بالنكث الذي نكثوه.
وأراد إجلاءهم عنها، فقالوا:
يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نُصلِحها ونقوم عليها. ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلال يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل.[١٥]

---

[١٣] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٤٣.
[١٤] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٧.
[١٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٠٠.

وهكذا، وبعد المقتلة التي نتجت عن نقض العهود من زعماء خيبر، رأى من بقي منهم أن يقترحوا على النبي أمرًا آخر، هو أن يظلوا في أرضهم يزرعونها يفلحونها ويستخرجون خيراتها، بدلًا من مُغادَرتهم وخراب الأرض وبوارها من بعدهم، على أن يظلوا على دينهم دون تبعية دينية، لكن مع تبعية خراجية، يُعطون بموجبها ليثرب شطر محصولهم، مع شرط تنبيهي من النبي، يقول لهم مُردِفًا:

على أنا إذا شئنا أن نُخرِجكم أخرجناكم.[١٦]

وبانتهاء المعركة وبعد هذا الاتفاق، جاء دور السبايا وتقسيم الأموال؛ فأما الأموال التي أوجف عليها المسلمون بالخيل والركاب، فقد قُسِّمت بينهم، أما التي استسلمت وعقدت الاتفاق، فعائدها كان خاصًّا لرسول الله، أما السبايا فقد تم تقسيمهن بين المُقاتِلين من جند الله.

ويُؤَكِّد لنا رواة السير والأخبار جميعًا، أن غزوة خيبر قد فشا فيها إتيان المسلمين لنساء يهود على ملأ، ففشت السبايا الخيبريات في المسلمين، إلى الحد الذي دفع النبي لوقف اغتصاب النساء الحبالى، يُناشِد رجاله بندائه الراقي الرحيم:

لا يحل لامرئ أن يسقي ماءه زرع غيره.[١٧]

وكان النبي قد قتل كنانة بن أبي الحقيق، زوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد النضير، وكان قد سبق وقتل أباها حييًّا في مذبحة قريظة؛ لذلك، وحتى لا ينصرف ذهن كائد للإسلام ونبيه الكريم، إلى أن قتل زوجها كنانة، كان للاستيلاء على صفية، فإن كتب الأخبار تأتي هنا واضحة لا تحمل في خبرها لبسًا، فتُعلِمنا أن النبي لم يعلم بجمال صفية بنت حيي زوجة كنانة، إلا بعد أن قُتِل زوجها بالفعل، لنقضه العهود والمواثيق، وتتفق جميعًا حول رواية أنس بن مالك الذي قال:

قدمنا خيبر، فلما فُتِح ﷺ الحصن،
ذُكِر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب،
وقد قُتِل زوجها،

---

[١٦] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص١٧٦.

[١٧] نفسه: ص١٧٣. انظر أيضًا ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٤١.

وكانت عروسًا.
فاصطفاها لنفسه.[18]

وقد قدَّرت الأقدار، أن تحظى صفية بالإكرام، فتحظى بسيد الخلق أجمعين ﷺ، رغم أنها بنت عدو الله حيي بن أخطب، الذي حزَّب الأحزاب، وزوج زعيم يهود خيبر كنانة بن أبي الحقيق، الذي نقض العهود والمواثيق، بعد اتفاقه السلمي مع النبي، وهو ما يشرحه أنس في قوله:

جُمِع السبي،
فجاء دحية الكلبي فقال: يا رسول الله، أعطِني جارية من السبي.
قال: اذهب فخذ جارية.
فأخذ صفية بنت حيي،
فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:
يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك!
قال: ادعوا بها. فلما نظر إليها ﷺ،
قال: خذ جارية من السبي غيرها.[19]

وفي رواية أخرى أن دحية الكلبي صديق النبي، تم تعويضه عن صفية بسبعة رءوس دفعة واحدة، وهو ما أخبرنا به ثابت في قوله: «وقعت صفية في سهم دحية، وكانت جارية جميلة، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة رءوس، ودفعها إلى أم سليم تصنعها وتُهيِّئها.»[20]

وما إن ارتحل الجيش عن خيبر، حتى أناخ في سد الصهباء في الطريق إلى يثرب، وضُرِبت للنبي وصفية قبة، ظل فيها النبي معها من الأيام ثلاثة، أو بتعبير ابن كثير:

وأقام ثلاثة أيام يبني بها.

---

[18] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٩٧.
[19] نفسه: ص١٩٨.
[20] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٤.

وكانت التي جمَّلتها إلى رسول الله ﷺ ومشَّطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك.[٢١]

ويروي البيهقي:

وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله ﷺ قائمًا قريبًا من قُبته.

ولما خرج الرسول من القبة سأله عن طوافه حول القبة كل ذلك الوقت، فرد أبو أيوب مُفصِحًا عن مدى إخلاص الرجال لصاحب الدعوة:

لما دخلت بهذه المرأة،
وذكرت أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها،
وعامة عشيرتها،
فخفت لَعمر الله أن تغتالك.[٢٢]

وهو الأمر الذي يجد صداه فيما أفصح عنه لسان صفية عندما آلت إلى النبي في قولها: «كان رسول الله من أبغض الناس إليَّ، قتل زوجي وأبي، فما زال يعتذر إليَّ ويقول إن أباك ألَّب عليَّ العرب، حتى ذهب ما بنفسي.»[٢٣]

أحداث في خيبر

وفي خيبر أحداث حدثت، تُفصِح عن كثير مما في النفوس من مكامن، وتكشف عما في العقول من مفاهيم؛ فهذه صفية تصفو للنبي ويزول ما بنفسها من بغض له، لتُخبِره وهو يبني بها داخل القبة برؤيا رأتها، يأتينا خبرها في قص البيهقي علينا:

أقام رسول الله ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليالٍ يبني بصفية ... ورأى ﷺ بعين صفية خُضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ قالت: كان رأسي في حجر ابن أبي الحقيق وأنا نائمة، فرأيت القمر زال من مكانه فوقع في حجري،

[٢١] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢١٢، ٢١٣.
[٢٢] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٢٣٠، ٢٣٢.
[٢٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٠١.

فأخبرته بذلك، فلطمني وقال: وقال: «تمنِّينَ مِلِكَ يثرب؟!» أو: «تمنِّينَ هذا المِلكَ الذي بالمدينة؟!»
فأُعجِب الرسول ﷺ برؤياها.[24]

وهو الرد الذي يُعبِّر عن رؤية العرب آنذاك للنبي كمَلِك على يثرب، أو رؤيتهم الأوسع لما هو آتٍ، في صياغة ابن هشام لرد كنانة على زوجته صفية:

ما هذا إلا لأنك تمنَّين ملك الحجاز محمدًا.[25]

وهو ما أعجب ابن كثير فطرب له وهو يُوصِّف رؤيا صفية في قوله: «فسألها ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضي الله عنها وأرضاها.»[26]
ومفهوم كنانة بن أبي الحقيق، ومفهوم صفية بنت حيي عن النبوة بحسبانها ملكًا، هو الفهم الطبيعي الناشئ عن تأسيس دولة للعرب في يثرب، وهي رؤية واضحة من صفية تتفق مع مفاهيم توراتها، قبل أن تُعاشِر النبي وتعرف معنى النبوة الحقة، فهي لا تعلم حسب مأثورها الديني سوى الملك، كملك داود، وملك سليمان وغيرهما، أما أنبياء التوراة فكانوا مجرد دراويش، وما يفعله محمد هو بالمطابقة فعل داود وسليمان عندما وحَّدا قبائل البدو في دولة تأسيسية في فلسطين، وفي ضوء هذا الفهم يلتقي تجريد الكتائب والجيوش مع أساليب ملوك التوراة، وهو الأمر الذي ترك في نفسها في مبدأ الأمر بغضًا شديدًا لذلك الملك الذي حلمت به، وزادها بغضًا ما رأته يفعل بقومها إزاء إخفائهم أمر كنزهم عنه، ويروي ابن هشام مشهدًا لا شك كان ذا أثر عميق في نفس صفية، حيث يقول نقلًا عن ابن إسحاق:

ولما افتتح رسول الله ﷺ القموص، حصن بني الحقيق، أُتِي رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب وبأخرى معها فمر بهما بلال، وهو الذي جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية، صاحت، وصكَّت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ، قال: أغربوا عني هذه الشيطانة.

---

[24] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٢٣٠، ٢٣٢.
[25] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٤٣.
[26] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص١٩٧.

وأمر بصفية فحيزت خلفه،
وأبقى عليها رداءه.
فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله ﷺ لبلال: أنُزِعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتَين على قتلى من رجالهما؟[٢٧]

وهكذا كان الرسول يُنبِّه هذا وينهى ذاك، ويُحاوِل رفع القسوة وانعدام الرحمة، ويمنع نكاح الحبالى من النساء، ومع ذلك ظلَّت هناك مظاهر للقسوة تنبو هنا وتطفو هناك، مثلما حدث مع محمد بن مسلمة الذي لم يكتفِ بقتل كنانة أبي صفية ثأرًا بأخيه محمود الذي أُلقِيت عليه الرحى، حيث يقول الواقدي: «إن محمد بن مسلمة ضرب ساقَي مرحب فقطعهما، فقال مرحب: أجهِز عليَّ يا محمد. فقال محمد: ذُق الموت ذق، كما ذاقه أخي محمود.» وظل الرجل على حاله يُعاني لولا أن مر عليه الإمام علي ففصل رأسه عن جسده رحمةً به.[٢٨]

ومن الجدير بالذكر أن الرواة اختلفوا في أمر صفية؛ هل ظلَّت محظية ضمن جواري الرسول أم تزوَّجها لتُصبِح من أمهات المؤمنين، خاصة أنه قد بنى بها ولم تُكمِل عِدتها؟ لكن تميل الأغلبية إلى أنه أعتقها وتزوَّجها، وهو ما جاء في الشاهد: «قال حماد: قال عبد العزيز لثابت: يا أبا محمد، أنت قلت لأنس ما أصدَقها؟ قال: أصدقها نفسها. فحرَّك ثابت رأسه كأنه صدَّقه.»[٢٩] بمعنى أنه تزوَّجها بدليل أنه أعطاها صداقًا، وأن هذا الصداق كان عتقها ولكن … «كأنه صدقة»؟!

ولا يمضي من الزمن هُنَيهات وأيام، حتى يحدث أمر جلل، حيث كانت محاولة اغتيال سيد الخلق بالسم، وهو ما جاء في رواية تقول:

دخل رسول الله ﷺ على صفية، ومعه بشر بن معرور، وهو أحد بني سلمة، فقدَّمت إليهم الشاة المَصلية، فتناول رسول الله الكتف وانتهش منها، وتناوَل بشر عظمًا وانتهش منه.[٣٠]

---

[٢٧] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٤٣.

[٢٨] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٤١٦.

[٢٩] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٥.

[٣٠] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢١١.

ويلوك النبي نهشته من لحم الكتف، ليلفظه بسرعة ويهتف بضيوفه: «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يُخبِرني أنه مسموم.» فلم يقُم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان، ويموت بشر من نهشته، ويشعر النبي بآثار السم القاتل تسري في بدنه، فيحتجم يومئذٍ، وقد حجمه مولى بني بياضة بالقرن والشفرة، وبقي رسول الله بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي تُوفِّي فيه، فقال: «ما زلت أجد في الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عددًا، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري.» فتُوفِّي رسول الله شهيدًا. قال ابن هشام: الأبهر هو العرق المُعلَّق بالقلب ... فكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ قد مات شهيدًا، مع ما أكرمه به الله من النبوة.»[٣١]

ثم نعلم من كتب الأخبار والسير والتاريخ، أن تلك الشاة المسمومة، جاءت صفية هدية من قريبة يهودية لها هي زينب بنت الحارث أهدتها لها لتُقدِّمها إلى سيد الخلق المصطفى، ولما سألها النبي لمَ اقترفت ذلك العمل الشنيع؟ قال: «قتلت أبي وعمي وزوجي وأخي.» قال القاضي عياض: واختلفت الآثار والعلماء؛ هل قتلها النبي ﷺ أم لا؟»[٣٢]

ورغم أن غزوة خيبر كانت ناجحة بكل المقاييس، إلا أن رواتنا لم يعودوا بقادرين على تجاوُز منهجهم الإعجازي، في إلحاق كل حدث بمعجزات مناسبة، ونموذجًا لذلك ما روته الأخبار عما حدث أمام أحد حصون خيبر في رواية ابن كثير حيث يقول:

> فترامَوا ... حتى أصاب نبلهم بنان النبي ﷺ، فأخذ عليه السلام كفًّا من الحصى فرمى حصنهم، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض، وأخذهم المسلمون أخذًا باليد.[٣٣]

من غير أن يُدرِك ذلك الراوية أن هذا الحل العملي، كان بديلًا مُناسِبًا عن كل ذلك الحصار الطويل وساعات المعارك وإقامة المنجنيق، وأنه كان بالإمكان في سُوَيعات أن يرمي النبي تلك الحصى على كل حصن لينتهي الأمر بكل بساطة، ويُؤمِن الجميع إزاء تلك المعجزة الكبرى، وهو ما يُذكِّرنا بحصى بدر الإعجازية.

---

[٣١] الموضع نفسه.

[٣٢] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٢٥٧.

[٣٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٣، ص٢٠٠.

وأحاديث أخرى عن معجزات أخرى، تبزر وسطها رواية هي بحق من اللطائف، لتُعبِّر عن الجزاء الفوري للمؤمن بالنكاح حتى للموتى، وهو ما جاء خبره مُتعدِّدًا في كتب الأخبار عن الراعي الأسود الذي أسلم يوم خيبر ودخل المعركة، فقُتِل بحجر، وجاء الرسول ووقف أمام الشهيد الذي أسلم من لحظات، «فالتفت إليه رسول الله ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: لمَ أعرضت عنه؟ قال: إن معه الآن زوجتَيه من الحور العين.»[٣٤]

وبينما الجيش في الطريق إلى يثرب، يأمر الرسول بالالتفاف دورة كبرى، يهبط بها بغتة على وادي القرى، وفي أربعة أيام أنهى الأمر وقسَّم غنائم وادي القرى على أصحابه، وعامل يهود الوادي على أرضهم بشروط خيبر، يزرعون أرضهم ويُعطون نصف الناتج ليثرب، وبلغ ذلك يهود تيماء وفدك، وبينما يُعرِّج عليهم أتَوه هم بالطاعة، يُصالِحونه على ذات الشروط دون حروب.[٣٥]

وهكذا جاءت حصافة يهود خيبر بمنفذ لقبائل الشمال، الضاربة على مواطن الخصب، لتنجو من الذبح والدمار، فسارعت القبائل تدفع الجبايات، وتثوب لسلطان الدولة العربية معلنة الخضوع طوعًا، لبرز هيكل الدولة واضحًا في قواعد زراعية ثابتة، تتجاوز مفهوم الغنيمة البدوي الابتدائي، الذي كان سائدًا حتى غزوة خيبر.

ثم يأتينا خبر حادث آخر يحمل أكثر من دلالة، فيعود الركب المُنتصِر قافلًا نحو يثرب، نسمعه من الواقدي عن أم عمارة عندما قالت:

> سمعت رسول الله ﷺ بالجرف وهو يقول لا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء. قالت: فذهب رجل من الحي فطرق أهله فوجد ما يكره، فخلى سبيلها ولم يهجر، وضن بزوجته أن يُفارِقها، وكان له منها أولاد وكان يحبها، فعصى رسول الله ﷺ فرأى ما يكره.[٣٦]

---

[٣٤] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٤٦.

[٣٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ٢١٩. انظر أيضًا البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٢٧١. انظر أيضا ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص١٨٦، ١٨٨.

[٣٦] ابن كثير: البداية، سبق ذكره. ج٤، ص٢١٩.

ويتأكد ذات المعنى في رواية مثيلة عن سعيد بن المسيب قال:

> لما نزل النبي ﷺ المعرس، أمر مُناديه فنادى: لا تطرقوا النساء. فتعجَّل رجلان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلًا.[٣٧]

ويبدو أن الأمر كان مُتكرِّرًا مع خروج المجاهدين، حتى قال رسول الله ﷺ:

> حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله، إلا نُصِب له يوم القيامة فقيل له: هذا خلفك في أهلك، فخذ من حسناته.[٣٨]

ولما أصبح الأمر فيما يبدو شديد الوطأة على المجاهدين، كثير التكرار، قام الرسول هذه المرة خطيبًا في الناس يقول مُهدِّدًا مُتوعِّدًا بالنكير:

> ألا كلما نفرنا غازِين في سبيل الله، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس يمنح أحدهم الكثبة؟
> أما والله إن يُمكِّنني الله من أحدهم، لأُنكِّلنه عنه.[٣٩]

كانت تلك الأحداث تجري بين خيبر ويثرب، بينما مكة تُحاوِل أن تتسمع الأخبار، يهبطها الحجاج بن علاط السلمي قادمًا من عند النبي، ولا يعلمون أنه من أتباعه، ليجمع أموالًا له عندهم، ويحكي الحجاج قائلًا:

> ولم يكونوا قد علموا بإسلامي، فقالوا: الحجاج بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا عن محمد، فإن قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهو بلد يهود وريف الحجاز. قلت ... هُزِم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقُتِل أصحابه قتلًا لم تسمعوا بمثله قط، وأُسِر محمد أسرًا. وقالوا: لا نقتله حتى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بما كان أصاب من رجالهم.

---

[٣٧] ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، مج١، ج١، ص٢١٨.

[٣٨] أبو داود: السنن، ج٢، ص٧، ٨.

[٣٩] صحيح مسلم، ج٣، ص١٣١٩.

فقاموا، وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدِم عليكم فيُقتَل بين أظهركم. قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة، وعلى غرمائي؛ فإني أريد أن أقدم خيبر، فأُصيب من نفل محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني التجار إلى هناك.
فقاموا فجمعوا لي مالي كأحث جمع سمعت به.

وهنا يسمع العباس عم النبي وعينه على قريش بالخبر الذي أتى به الحجاج بين علاط فيُهرول إلى الحجاج فزعًا، لكن ليهمس له الحجاج سرًّا:

احفظ عليَّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى الطلب ثلاثًا، ثم قُل ما شئت، فإني والله تركت ابن أخيك عروسًا على بنت ملكهم؛ يعني صفية بنت حيي، ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها، وصارت له ولأصحابه.

وفي هذه الساعة، رأى العباس أن أمر ابن أخيه قد صار أمرًا، وأنه قد بات في إمكانه أن يُعلِن اتباعه له جهرًا «حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس له حُلة، وتحلَّق، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة. قال: كلا والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر، وتُرِك عروسًا على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه.»[٤٠]

وقد وضع هذا الإعلان القاسي قريشًا ورجالها العقلاء في موقع الحيرة، فلم يعرفوا هل يحزنون لنصر محمد الذي هو عدوهم الألد، أم يفرحون وهو ولدهم وفخرهم بانتصاراته؟ لكن المُؤكَّد أن نصر خيبر قد قُوبِل بحماسة قومية انتشرت في الفيافي مع أخبار السلطان العظيم لدولة الإسلام. أما الناتج المُؤسَّسي لتلك الغزوة الكبرى فقد تمثَّل في قيام دولة يثرب على هيكل إنتاجي وفَّر لها الأسس الزراعية المستقرة في خيبر.

أما العرب الذين خذلوا النبي من مزينة وجهينة وبكر عندما دعاهم إلى الحديبية،[٤١] فقد أخذوا درسًا من نوع يليق بهم، فتم حرمانهم من غنيمة خيبر التي وُزِّعت فقط على من حضر الحديبية.[٤٢]

[٤٠] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٤٦، ٤٧.
[٤١] الواقدي: المغازي، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د.ت، ج٢، ص٦٢٠.
[٤٢] ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٢.

الباب الثالث

فتح الفتوح

الإسلام وقاء

> الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة.
>
> خالد بن أُسَيد

وهكذا أَمِنت قريش بالحديبية على تجارتها، وعلى حلفائها، لكن التكوين العسكري لدولة يثرب، وقيام العسكرية فيها على المغانم، كان يتطلب دومًا إيجاد المنافذ لهؤلاء الجند؛ ومن ثَم استمرت سياسة السرايا العسكرية على قبائل العرب، فخرج أبو بكر على رأس سرية أغار بها فجأة على بني فزارة، ليقتل الناس على مائهم، ويغنم المال والذراري والنساء، وينفل أبو بكر فتاة غاية في الجمال ويمنحها للصحابي سلمة مكافأة له على بلائه، ويحكي سلمة كيف حصل على تلك الغادة الموصوفة بأحسن العرب، في قوله:

> إنه لما اشتدت المعركة مع فزارة، نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو في آثارهم، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم وقع بينهم وبين الجبل، فجئت أسوقهم إلى أبي بكر حتى أتيته على الماء، ومنهم امرأة من فزارة عليها قشع من أدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلني أبو بكر بنتها.

فما كشفت لها ثوبًا حتى قدمنا المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوبًا، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال لي: يا سلمة، هب لي المرأة. فقلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبًا. فسكت رسول الله ﷺ وتركني حتى إذا كان الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: يا سلمة، هب لي المرأة. فقلت: يا رسول الله ﷺ، والله لقد أعجبتني

وما كشفت لها ثوبًا. فسكت رسول الله ﷺ وتركني، حتى إذا كان الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: يا سلمة، هب لي المرأة لله أبوك. قلت: يا رسول الله ما كشفت لها ثوبًا وهي لك يا رسول الله.

ويشي إصرار الرواية على أن سلمة لم يكشف لها ثوبًا، أنها ستنتهي إلى رسول الله، لكن الرواية تستمر لتقول: «بعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة وفي أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول الله ﷺ بتلك المرأة.»[1] وفي هذه الإضافة خلل واضح، حيث لم يكن في ذلك الوقت تحديدًا أي أسارى من المسلمين في مكة، كما كان العقد قد وقع بالحديبية في هدنة مدتها من السنوات عشر. وتظل هذه المرأة غير المُسمَّاة بكتبنا التراثية لغزًا غامضًا رغم إشارة الأحداث إلى بقائها بحوزة النبي.

وبعد سرية أبي بكر إلى فزارة خرج عمر بن الخطاب على رأس سرية إلى تربة من وراء مكة، فهرب الناس وعاد عمر ورجاله إلى يثرب، ثم تلتها سرية ثالثة بقيادة بشير بن سعيد إلى بني مرة في فدك، ونزل بلادهم واستاق نَعمهم لكن لتكر عليه قبائلها ويقتلوا جميع أفرادها ويهرب بشير بن سعيد إلى بيت يهودي يُخفيه ويأويه ليعود بعد أيام إلى يثرب مُستخفيًا. فيعود النبي ﷺ ليُرسِل عليهم غالب بن عبد الله الكلبي وأسامة بن زيد في سرية تالية، وهناك يُدرِكون فرداس بن نهيك، فيُشهِر عليه أسامة السيف فيصرخ الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله. ولكن أسامة ورفاقه لا يُمهِلونه وينزلون عليه بسيوفهم فيقتلونه.

ويحكي أسامة يقول:

> فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله، إنما قالها تعوُّذًا من القتل ... فكرَّرها حتى تمنَّيت أني لم أكن أسلمت يومئذٍ.[2]

وهنا نجد عودة إلى البدء، أيام كانت الدعوة طازجة في مكة، تحمل للناس بشرى وسلامًا، حيث يعود هنا الأمر يبرز بين العربان، فيستجيب له الرسول الكريم، فيُعلِن الأعرابي شهادته بوحدانية الإله ليأمن على حياته وماله، ليُصبِح ذلك الإعلان في

---

[1] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٢١.

[2] الموضع نفسه.

زمن الهدنة إعلانًا صريحًا من سيد الدولة اليثربية، أنه يكفي للعربان الشهادة للإله بالوحدانية، والاعتراف له بأنه رسول هذا الإله؛ ليُصبِح للشاهد الجوار والأمان، وتُصبِح شهادته توقيعًا مُعلَنًا على ميثاق الدولة، وبموجبها يُصبِح مُواطِنًا يستحق رعاية الدولة وحمايتها، كما يُصبِح هو فردًا في جنودها، وهي السياسة التي ستُؤتي ثمارها خلال أشهر قليلة، أدَّت إليها مجموعة غزوات وسرايا جعلت للأمن سورًا بابه الإيمان، حيث يجتمع للنبي خلال تلك الأشهر، جيش يربو على عشرة آلاف مُحارِب.

ولم يلحظ الأتباع في مبدأ الأمر تلك العودة؛ لإيقاف الأطماع في الغنائم دون قواعد واضحة، قد تضر بالدولة بعد الاعتراف بها رسميًّا ضررًا جسيمًا، فتأتي سرية أبي حدرد لتُؤكِّد عزم النبي على التحول إلى شكل الدولة، بالشهادة لأيديولوجيتها؛ تلك الشهادة التي تعني توقيع ميثاق الانضمام إليها، وهي السرية التي حكى لنا عنها قائدها، وهو يقول:

> بعثنا رسول الله ﷺ إلى أضم في نفر من المسلمين منهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، ومعه متيع له ووطب، فسلَّمنا عليه بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتاعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر.

وجاء الجواب وحيًا يُقرِّع القاتل، ويُؤكِّد خلل رواية أبي حدرد، حيث تُوضِّح الآيات أنه لم يكن بين القاتل والمقتول شيء سوى استلابه متاعه واغتنام ما معه، رغم أن الله قد منَّ على المسلمين بمغانم عظيمة كفتهم الناس، وأن عليهم من الآن اتباع الأمر الجديد، ليُتابِع أبو حدرد قائلًا:

> فنزل فينا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ٩٤).[٣]

---

[٣] نفسه: ص٢٢٤.

عمرة القضاء

وانصرم عام على الحديبية، وجاء الموعد من العام التالي سريعًا يهرع، وآن أوان مُغادَرة أهل مكة لمكة، ثلاثة أيام، ليدخلها المسلمون يعتمرون، ومن جانب قريش كان عليها أن تفي بعقدها؛ لتُثبِت لكل العرب، أنها لا زالت ذلك البلد الآمن المفتوح لمن أراد من العرب، لكنها هذه المرة تحديدًا كانت تعلم يقينًا أن تركها ديارها إنما عن ضعف منها، كما لا شك هي تعلم أن جميع العربان بذلك الأمر نفسه تعلم، فلم تكن تلك العمرة لأجل مزيد من الرواج التجاري، إنما كانت تنازلًا واضحًا ونقصًا في السيادة لسيادة أخرى مُنافِسة على ذات الدار وذات الأيديولوجيا وذات المعبد؛ فلم يكن المُعتمِرون أفرادًا فرادى، إنما جيش كبير هو في النهاية ذلك الجيش المُعادي الذي بدأ يتحول عن قطع الطريق إلى التطهُّر، نحو السيادة الدينية، حيث يُخبِرنا ابن سعد أن عدد المُعتمِرين قد وصل إلى الألفَين عددًا.[٤] وكل تلك المعاني تُفصِح عنها تصرفات سيد الخلق نفسه، فيما رواه ابن عباس، أن بعض أهل مكة بقي في مكة فضولًا وتطلعًا ورصدًا، وأن من بقي منهم في مكة:

> صفُّوا عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى ثم قال:
> رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة.[٥]

ولتأكيد رسالة القوة أمام عيون العربان، أمر النبي رجاله قائلًا:

> اكشفوا عن المناكب واسعَوا في الطواف.

وهو ما عقَّب عليه البيهقي مُوضِّحًا الداعي له:

> لِيُري المشركين قوتهم وجَلدهم.
> فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت.[٦]

---

[٤] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٧.

[٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٢٧.

[٦] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٣١٥.

وتُصعَق قريش مأخوذة، عندما ترى النبي، ذلك الذي حاصرها اقتصاديًّا وقتل أفلاذ كبدها، وفكَّك عُرى إيلافها، وأعلن كفرانها، يسلك مسالكها وينسك مناسكها ويُهِل بشعائرها، فيسعى بالبيت، وبالصفا والمروة، وهو ما فاجأ الصحابة المسلمين أنفسهم؛ فما كانوا يرون أنهم بعائدين إلى شعائر الجاهلية ومناسكها، وهو ما جاء واضحًا في رواية ابن هشام وهو يروي لنا المشهد النبوي داخل مكة بقوله:

> ثم استلم الركن،
> وخرج يُهروِل، ويُهروِل أصحابه معه،
> ... واستلم الركن اليماني،
> ومشى حتى يستلم الركن الأسود،
> ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف،
> ومشى سائرها. فكان ابن عباس يقول:
> كان الناس يظنون أنها ليست عليهم؛ وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحي من قريش ... حتى إذا حج حجة الوداع لزمها فمضت السنة بها.[٧]

ومن ثَم لزم النبي شعائر قومه، لكنه توَّجها بالإعلان الجديد، واحتوائها وتضمُّنها في الأداء العلني لدولته النبوية مُمثَّلًا في الأذان الإسلامي؛

> ولما قضى رسول الله ﷺ نسكه في القضاء، وداخل البيت لم يزَل فيه، حتى أذَّن بلال الظهر من فوق الكعبة.

لم تُسجِّل صحيفة الحديبية في بنودها ذلك، لكن بلالًا صعد بأمر الرسول فوق كعبة قريش، ومن هناك أعلن بأعلى الصوت أداء دولة النبي العلني؛ ليعلم جميع العرب بالصيغة الإسلامية، وأهمها: أن محمدًا رسول الله. لكن ليُعقِّب من بين الواقفين بعيدًا عكرمة بن أبي الحكم بقوله:

> لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

---

[٧] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٦٩.

ليُثنِّي خالد بن أسيد:

> الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة.[٨]

ولا تمر تلك العمرة دون فرحة كبرى تأخذ بأفئدة الهاشميين، ويتقدم العباس بن عبد المطلب بإجراء يُدخِل السرور إلى قلب ابن أخيه نكايةً في الملأ الأموي، فيُزوِّجه ميمونة بنت الحارث شقيقة زوجته أم الفضل بنت الحارث، لينكحها وهو مُحرِم، وهو ما تأكَّد في قول ابن عباس: «إن رسول الله ﷺ تزوَّج ميمونة بنت الحارث وهو في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذي زوَّجه إياها العباس بن عبد المطلب ... تزوَّجها وهو مُحرِم.»[٩]

ومن تلك النكايات الواخزة، ما كان من أمر عبد الله بن رواحة الذي دخل مكة يحجل أمام رسول الله مُتوشِّحًا سيفه يُطوِّحه يمينًا ويسارًا، يسب قريشًا، وينعتها بالكفر داخل ديارها، مُهدِّدًا بالقتل وسفك الدم لمن لا يعترف بسيادة النبي، وهو يرتجز قائلًا:

خلُّوا بني الكفار عن سبيله
أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صُحفٍ تُتلى: رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
ضربًا يُزيل الهام عن مقتله
ويُذهِل الخليل عن خليله[١٠]

فيأمره النبي زيادة في النكاية، وللرصانة، أن يقول:

لا إله إلا الله.
نصر عبده.

---

[٨] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٣٢.

[٩] الموضع نفسه.

[١٠] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٣١٥.

وأعز جنده.
وهزم الأحزاب وحده.[١١]

وهو ما عقَّب عليه البيهقي: «وكان يُكابِدهم بكل ما استطاع.»[١٢]

وبانتهاء اليوم الثالث، يهبط سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى في نفر من قريش، ليقولوا للنبي:

إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا.

فيرد النبي بلطفه وسماحته:

وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه؟

فيُجيبونه الإجابة المُعبِّرة عن مكنونات الصدور من وجع:

لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا.[١٣]

لينطلق صوت سعد من بين المسلمين مُعبِّرًا عن إمكان الاستيلاء على مكة الآن ببساطة، فيقول:

يا عاضًّا ببظر أمه،
أأرضك وأرض أمك هي دونه؟[١٤]

لكن ليتدخل سيد الخلق المُطهَّر، ويُسكِت سعدًا، ويفي بالعهود والمواثيق، مُكتفِيًا بذلك الإعلان العملي السافر لكل العرب، ويأمر رجاله بالرحيل عن مكة.

---

[١١] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٧.

[١٢] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٤، ص٣١٥.

[١٣] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٧٠.

[١٤] السهيلي: الروض الأنف، سبق ذكره، ج٤، ص٧٧.

استمرار السرايا المسلحة

ويعود جند الله إلى مدينة يثرب بعد الاعتمار المشهود، وتعود السرايا مرة أخرى للخروج على القبائل، فينزل شجاع بن وهب بسرية على جمع من هوازن، فيبغتهم ويُصيب أنعامهم وسبيًا منهم، لكن هذا الجمع الهوازني كان قد علم طريق الأمن وبابه، فقدِم وفدهم على النبي يُعلِن إسلام جماعتهم ليرد إليهم النبي كل أملاكهم وسباياهم، في بلاغ إلى كل العرب واضح المعالم مُحدَّد المعاني.

وتخرج سرية كعب بن عمير إلى أطراف الشام لتُغِير على قضاعة بذات أطلاح، المُستنِدة على أسِنة الإمبراطورية، وناداهم كعب بدعوة الإسلام، لكن قضاعة الشامية ما كانت ترى فيهم سوى كرَّة عربية مثل كرَّات عهدتها على حدود الإمبراطورية، بل وتعمل سيوفها في أفراد السرية، ويهرب منها جريح واحد يعود إلى الرسول بالخبر، وهنا يُعلِن الرسول أنه قد آن الأوان لمُهاجَمة إمبراطورية الروم، حيث الأرض التي لم يقدروا عليها وأحاط بها الله.

وعلى رأس السرية يُوفِد النبي زيد بن حارثة في ثلاثة آلاف مُقاتِل، وكان النبي يعلم جيدًا ماذا يُواجِهون، ويعلم سلفًا النتائج، لكنها كانت أول هجمة كبرى مقصودة للإعلان عن الآتي؛ ولعلمه ﷺ بما هو مُقدِم عليه قال في رجاله إن أُصِيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أُصِيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل عبد الله فليرتضِ المسلمون بينهم رجلًا فليجعلوه عليهم.[١٥]

وتخرج سرية الشهداء العظام، تلك السرية الفدائية، مُيمِّمة وجهها شطر البلقاء على تخوم جنوبَي دمشق، ويبلغ خبرها إلى هرقل عظيم الروم، فينزل بنفسه إلى لقاء هؤلاء الذين تجرَّءوا على حدود مملكته، في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من القبائل العربية المُتاخِمة للروم والموالية لها، وهو الهول الذي يُصوِّره أبو هريرة قائلًا:

> شهدتُ مؤتة، فلما دنا المشركون منا، رأينا ما لا قبل لأحد به.[١٦]

---

[١٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٤١.

[١٦] الموضع نفسه.

وكان طبيعيًّا أن يقتل الروم الأمراء الثلاثة، وكثيرًا من مُقاتِلي المسلمين المُقدَّمين، حتى تناوَل خالد بن الوليد الراية، لينسحب بما بقي من الجيش الذي عاد مُمزَّقًا إلى يثرب، ويستقبلهم العامة على أبواب المدينة بالتراب يحثونه في وجوههم يقولون:

يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله.

لكن ليرد عليهم سيد الخلق بعد أن بلَّغ رسالة عملية إلى هرقل بعد رسالته المكتوبة، وإلى قريش، وإلى العالم أجمع، بقوله للناس:

ليسوا بالفُرَّار،
لكنهم الكُرَّار إن شاء الله.

إعلانًا عن أن تلك السرية الفدائية كانت مُقدِّمة، وأن الإصرار على غزو الروم وكسرى قائم لا يلين، وأن هناك كرَّات آتية وكرَّات، وأن الوعد النبوي قائم كعَلم يُرفرِف لا يتراجع، يُردِّد في مِسمع العربان: «والذي نفس محمد بيده، لتملِكُّن كنوز كسرى وقيصر.»

أما إذا كان عدد من خيار الصحابة قد قدَّموا أنفسهم شهداء على مذبح الهدف الأكبر، فقد نالوا كفايتهم من الثواب، إلى الحد الذي ارتفعوا فيه إلى مصافِّ كبار الأنبياء، بعد أن رآهم النبي في رحلة سماوية في رؤياه، حيث اطَّلع عليهم في فردوس الرحمن «فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هذا جعفر بن أبي طالب،
وزيد بن حارثة،
وعبد الله بن رواحة.

ثم أشرفوا شرفًا آخر فإذا بنفر ثلاثة، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هذا إبراهيم،
وموسى،
وعيسى،
عليهم السلام، وهم ينتظرونك.»[17]

[17] نفسه: ص٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٠.

وإعمالًا للوعد لا ينتظر النبي طويلًا، فقط يُغيِّر في التكتيك، فيُرسِل على العربان المُتحالِفين مع الروم من بلى وقضاعة سريةً يقودها عمرو بن العاص، فتصل إلى ذات السلاسل، فيخاف عمرو كثرة عدوه، فيُمِده النبي بأبي بكر بعدد آخر من الجند، لكن ليرى قادة السرية أنه لم يأنِ الأوان بعد فيعودون دون أية مغانم أو فتوح.[١٨]

ولكن ببعض التدقيق والملاحظة، لا يمكن أن تُعتبَر غزوة مؤتة هزيمة في نظر عرب الجزيرة، ولا عدَّها النبي كذلك، ولا حتى قريش؛ لأن مُجرَّد خروج العرب لمُجابَهة الروم، كان أمرًا بعيدًا حتى عن الأحلام. لقد كان مُجرَّد الخروج إلى الروم والاصطدام بهم في معركة حقيقية واجهوا فيها فيالقهم المُنظَّمة الهائلة تحت قيادة ملكهم بنفسه، كان بلا شك انتصارًا وحده وبحد ذاته.

---

[١٨] نفسه: ص٢٧٢.

مكة: فتح الفتوح

والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداةَ عظيمًا.

أبو سفيان

تعود بنا كتب السير والأخبار القهقري زمنًا إلى ما قبل الدعوة، لتُطلِعنا على السر وراء نقض مُعاهَدة الحديبية قبل موعدها بزمن طويل، فتحكي لنا عن مُخاصَمة ثأرية كانت بين قبائل خزاعة وقبائل بكر؛ كان سببها أن رجلًا من بكر خرج تاجرًا، فلما توسط ديار خزاعة، عدَوا عليه وقتلوه واستلبوا تجارته، فكان أن ثارت بكر لرجلها وأخذت بثأرها برجل من خزاعة، فترد خزاعة بإطلاق سيفها ليُطيح بالرءوس من أشراف كنانة، فيسقط رأس مالك بن عياد، ثم الديلي، ثم سلمى، ثم كلثوم، ثم ذؤيب،[1] وهنا تأتي الحديبية.

وتنص بنود الحديبية على أن من أراد الدخول في عقد محمد دخل، وأن من أحب الدخول في عقد قريش دخل، فتدخل خزاعة في حلف محمد، وهو الأمر الذي لم يكن جديدًا ولا خافيًا، فقد كانت خزاعة طوال الوقت مع محمد، مشركها ومسلمها؛ ترى بذلك أنها تنال من قريش جميعًا، بعدما أقصاهم قصي الجد البعيد لقريش عن مكة، واستلبهم الكعبة ومفاتيحها، وسيادة كانوا يرونها لهم؛ ومن ثَم كان منطقيًّا تمامًا، أن تدخل عدوتها بكر في حلف قريش.

---

[1] أبكار السقاف: نحو آفاق، سبق ذكره، ج٢، ص١٥٥٥.

وإبان هدنة الحديبية، ولم يمضِ على توقيعها بعد عام عمرة القضاء أسابيع، حدثت مُقاتَلة بين بكر وخزاعة فجأة، أرجعها رواتنا إلى غدر بكر، حيث انتهز بنو الديل أحد بطونها فرصة من خزاعة؛ لتثأر لرجلها الديلي، فيُطارِد بعض رجالهم خزاعيًّا عليل القلب مفئودًا اسمه منبه، وكان برفقة رفيق له يُدعى تميمًا، ولما ركض الرجلان أمام مُطارِديهم لم يستطع منبه الاستمرار، فنادى رفيقه تميمًا قائلًا: «... يا تميم، انجُ بنفسك، فأنا والله لَميت، قتلوني، أو تركوني، لقد أنبت فؤادي.» وينطلق تميم، ويموت منبه. وتُضيف كتب الأخبار باقتضاب شديد لا يُفصِح عن أية تفاصيل حول مدى صدق تلك الإضافات، فتقول إن الأمر قد هاج بين القبيلتَين، وإن بعضًا من قريش أمدُّوا بكرًا بالسلاح، وربما قاتلوا معهم مُتخفِّين.[٢]

هذا بينما هناك رواية أخرى تُؤكِّد أن من أشعل أُوار الحرب بين كنانة وخزاعة هم الخزاعيون وليس الكنانيين، وذلك فيما رواه البلاذري في قوله: «سمع رجل من خزاعة، وكانوا مع رسول الله ﷺ في عهده وعقده، رجلًا من كنانة، وكانوا في عهد قريش وذمتها، يهجو رسول الله ﷺ، فوثب عليه وشجَّه، فاقتتلت خزاعة وكنانة، وأعانت قريش بني كنانة وخرج وجوههم يُقاتِلون مُتنكِّرين.»[٣]

وسواء كان الأمر هكذا، أو كذلك، ولو سلَّمنا بأن كنانة كانت البادئة، وأخذنا بقصة الرجل الخزاعي المفئود، فإن الموقف قد تصاعَد بموته؛ فخرجت خزاعة في أربعين راكبًا وراء سيدهم عمرو بن سالم، من فخذ كعب الخزاعي، ليقدموا على النبي في يثرب، وهو جالس في مسجده بين أصحابه، ليقف عمرو بن سالم يقص الحدث شعرًا تحريضيًّا طالبًا نصرة النبي في قصيدة طويلة جاء في بعضها:

يا رب إني ناشد محمدًا ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم ولدًا وكنا والدًا ... ثُمَّت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرًا أعتدًا ... وادعُ عباد الله يأتوا مددا

[٢] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٨٤، ٨٥.
[٣] البلاذري: أنساب الأشراف، سبق ذكره، ج١، ص٣٥٣.

ويُنصِت سيد الخلق للرجل حتى ينتهي من قصيدته الشاكية المُستنصِرة، ليقف النبي وسط الناس، ويُجِيبه بهدوء ما قبل العاصفة:

نُصِرتَ يا عمرو بن سالم.[٤]

ثم يلتفت إلى الناس، مُعلِنًا مُناصَرته بني كعب من خزاعة قائلًا:

لا نُصِرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي.

ثم يتطلع إلى سحابة مارة، ويُشير إليها مُردِّدًا:

إن هذا السحاب ليستهل بنصر بني كعب.

ويروي لنا ابن سعد مجرى الحدث وراء الأحداث وهي تتسارع في قوله:

> وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب، أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون في غزوة الفتح عشرة آلاف. ونادى مُنادي رسول الله: من أحب أن يُفطِر فليُفطِر، ومن أحب أن يصوم فليصُم.[٥]

ومع إفاقتها، تعلم قريش بما يجري، فتأخذها الرعدة، وتُرسِل زعيمها وحامل لوائها أبا سفيان صخر بن حرب إلى زعيم يثرب؛ لإيقاف الأمر، وإعلان أن قريشًا لا دخل لها بثأر كنانة، وأن قريشًا على عهدها باقية، وببنود صحيفة الحديبية مُستمسِكة. ولا تعلم قريش إلا ما حدث بين كنانة وخزاعة، ولا يعلم أبو سفيان أن وفد خزاعة قد ذهب إلى المدينة يستنصرها، لكنه يلقى ركبهم عائدًا من المدينة، ويُنكِرون عليه قدومهم من هناك ويرحلون إلى ديارهم، لكن روث بهائمهم يفضحهم بالحق، بما فيه من نوى بلح يثرب؛ فيعلم أبو سفيان أن الأمر قد عظم، فيحث خُطاه مُسرِعًا، مُقرِّرًا أنه سيمدُّ العهد ويُوطِّد العقد بين محمد وقريش.

---

[٤] نفسه: ص٨٦.

[٥] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٩٧.

ويدخل أبو سفيان يثرب، ويختار بيت ابنته أم حبيبة، التي تزوَّجها النبي بعد عودتها من مُهاجَرها بالحبشة، ويذهب ليجلس على فراش النبي فتطويه عنه، فيقول: يا بُنَية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فترد على أبيها: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجِس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ. فيُبغَت الرجل من رد ابنته عليه ليقول لها: والله لقد أصابك يا بُنَية بعدي شر.

ويتركها ويخرج إلى مجلس النبي، ويجلس أمامه، ويُكلِّمه، ويُكلِّمه، ويشرح، ويُفصِّل في بنود العقد، ويعتذر، ويعتذر، ويطلب إبقاء الحديبية، بل وتمديدها، ويظل الرجل يتكلم والنبي صامت لا يرد عليه بشيء، ويكتشف الرجل أنه وحده فقط الذي يتكلم والكل ينظر إليه بصمت مُخيف ومُريب؛ فيقوم زعيم قريش يُجرجِر كرامته إلى بيت أبي بكر، ينتظره ثم يُكلِّمه، ليتوسط لدى النبي، لكن أبا بكر يرد ببساطة: ما أنا بفاعل. فيتركه ويلهث إلى عمر بن الخطاب، لكن ليرد عليه عمر بحدة وانفعال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ...» ولا يدري الرجل أين يذهب، فيتذكر عليًّا، فيركض إلى داره ليجد معه فاطمة وولدها الحسن صبي يدب بين يدَيها، ليقول لعلي:

> يا علي، إنك أمسُّ القوم رحمًا، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبًا، فاشفع لي عند رسول الله. فيقول له:
> ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نُكلِّمه فيه.

وهنا يلتفت الزعيم المذعور إلى فاطمة، مُشيرًا إلى طفلها يائسًا:

> يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيُجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

ولا تبذل فاطمة جهدًا كبيرًا لتكتشف أن الرجل يهذي فترد عليه:

> والله ما بلغ ابني ذاك أن يُجير بين الناس، وما يُجير أحد على رسول الله.

ويُسقَط في يد الرجل بعد أن سقط إعياءً ليتوجه بالكلام قانطًا إلى علي قائلًا: «يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدَّت عليَّ فانصحني.» ولا يجد علي ما يقول سوى: «والله ما أعلم لك شيئًا يُغني عنك شيئًا.» ثم يُذكِّره بمكانته قائلًا: «إنك سيد بني كنانة،

قُم فأجِر بين الناس ثم الحقْ بأرضك.» ويسأله أبو سفيان: «أوَترى ذلك مُغنِيًا عني شيئًا؟» فيرد علي: «لا والله ما أظنه، لكني لا أجد لك غير ذلك.» وينهض أبو سفيان يُلمِلِم كرامة كنانة المُبعثَرة ليدخل المسجد ويقف وسط الناس يُنادي والعيون تتشظى لهبًا حوله: «أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس.» وحتى لا يسمع ما يكره يخرج مُسرِعًا إلى بعيره مُيمِّمًا شطر مكة.[٦]

وما إن يُغادِر أبو سفيان باب المسجد، حتى ينهض الرسول رافعًا يدَيه إلى السماء مُخاطِبًا ربه والناس تسمع:

اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

ويتحول نحو الناس يأمرهم بالجهاز إلى مكة، ويركب على رأس عشرة آلاف مُقاتِل ينزل بهم مر الظهران، «وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتِهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل». هذا بينما كان العباس قد أخذ أهله وخرج من مكة مُتجِهًا للمدينة، ليُفاجَأ بغتة بهذا الجيش الهائل، وعلى رأسه ابن أخيه فيُردِّد قائلًا:

واصباح قريش!
والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة،
قبل أن يستأمنوه،
إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

وينضم العباس إلى ابن أخيه، ويُحكى أنه أخذ بغلة النبي البيضاء، وخرج يجوس بها ليلًا حول الجيش قرب مكة؛ عساه يجد لمكة مخرجًا، فيسمع اثنَين يتحاوران، يعرف في صوتَيهما أبا سفيان وبديل بن ورقاء؛ إذ يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا. فيقول بديل: هذه والله خزاعة قد خمشتها الحرب. فيرد أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وهنا يُنادي العباس أبا سفيان، ويلتقي العباس بالزعيم المأخوذ بذعره، ليُسرِع إليه بالخبر: «ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله.»

[٦] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٨٦، ٨٧.

فيرد أبو سفيان: «فما الحيلة فداك أبي وأمي.» فيقول له العباس: «والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجُز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك.»

ويأخذ العباس أبا سفيان ردفه على بغلة رسول الله وسط نيران الكتائب نحو خيمة النبي، ليراه عمر بن الخطاب فيهرع إلى رسول الله ﷺ يقول: «هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني لأضرب عنقه.» لكن يقتحم العباس الخيمة مُسرِعًا قائلًا: «يا رسول الله إني قد أجرته.» وهنا يقول النبي: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتِني به.»[٧]

وهكذا ينزل أبو سفيان في ضيافة العباس، ضيافة هي إلى الأَسر أقرب، وعند الصباح يخرج به العباس، فيرى الناس قد وقفوا صفوفًا مُنتظِمة، فيُذعَر الرجل ويظنها لحظة الهجوم على بلده، فيقول للعباس: «يا أبا الفضل، ما للناس؟ أؤُمِروا فيَّ بشيء؟» فيرد العباس: «لا، لكنهم قاموا إلى الصلاة.»

وينظر أبو سفيان لذلك الانتظام العظيم، والانضباط الشديد، عشرة آلاف مُقاتِل خلف الزعيم، يُكبِّر فيُكبِّرون، يركع فيركعون، يتلو فيُنصِتون، يرفع فيرفعون، فيُصاب سيد مكة بالبهتة، ويقول:

> ما رأيت كاليوم طاعة!
> قومٌ جمعهم من ها هنا وها هنا،
> ولا فارس الأكارم،
> ولا الروم ذات القرون،
> بأطوع منهم له.[٨]

لم يُدرِك الرجل حتى الآن وهو في فهمه القبلي يرفل مُتخلِّفًا، أن هناك أمرًا أعظم من القبيلة قد جمع الناس من ها هنا وها هنا، وتوجَّه مع العباس بعد الصلاة ليراه النبي فيُفاجئه بالسؤال:

> ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

[٧] نفسه: ج٤، ص٨٧–٩٠.

[٨] نفسه: ج٤، ص٩٩.

يقينًا يعلم أبو سفيان ذلك، وكذلك سائر قريش يعلمون يقينًا، أن لا إله إلا الله، وقد شهدت لهم الآيات القرآنية بذلك العلم، فالله لا إله سواه، لكن هناك الأرباب الأدنى درجة من الإله، تلك التي تشفع للناس عند الله؛ ومن ثَم كانت إجابة أبي سفيان:

بأبي أنت وأمي!
ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصلَك!
والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره،
لقد أغنى عني شيئًا بعد.

وهنا ينتقل النبي إلى الشق الثاني من السؤال، وهو الشق الذي لا شك سيشق على أبي سفيان، فيقول له:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟

فتأخذ الرجل أنفة الصدق العربي في التعبير عن الدواخل ليرد قائلًا:

بأبي أنت وأمي!
ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصلَك!
أما هذه،
والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا.

لم يكن الرجل بعالم أن إجابته غير مُوفَّقة بالمرة، وأن الأمور قد تغيَّرت، حتى أساليب التعامل العربية؛ لأن صراحته هنا لن تكون سوى مدخل له إلى المثوى الأخير، فيُسرِع العباس يُنبِّه الرجل بقوله:

ويحك!
أسلِم واشهد أن لا إله إلا الله،
وأن محمدًا رسول الله،
قبل أن تُضرَب عنقك.

وعلى الفور يقولها زعيم قريش، ويُسلِم الرجل،[9] ثم يقول مُتلعثِمًا مُحاوِلًا إظهار تمسُّكه بدينه وبهيبته:

وكيف أفعل بالعزى؟

ليسمعه عمر بن الخطاب بجوار الخيمة، فيرد عليه بصوت عالٍ ساخرًا ضاحكًا ليُسمِعه:

نخرأ عليها.

فيقول أبو سفيان: «ويحك يا عمر إنك لرجل فاحش، دعني مع ابن عمي فإياه أُكلِّم.»[10]

ومرة أخرى يتدخل العباس يقول للنبي ﷺ: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا.»

كان الأمر إذن مَقضيًّا، وانتهى أمر زعامة مكة قبل دخولها، حتى إن العباس رأى أن يجعل لزعيم قريش شيئًا بعدما لم يبقَ له شيء.

ويرى النبي أنه لا بأس من شيء لأبي سفيان، فيقول: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.»

ومن ثَم خرج أبو سفيان يحمل عن السيد الجديد رسالة حاسمة قاطعة، هي أوامر بحظر التجول عند دخول الجيش الإسلامي مكة، وقبل أن يهبط مكة، همس النبي لعمه العباس: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عن خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها.» ويأمر النبي باستعراض القوة. وبينما العباس مع أبي سفيان عند مضيق الوادي، يروي لنا:

> مرَّت القبائل على راياتها، كلما مرَّت قبيلة قال: يا عباس، من هذه؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي وسليم. فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: ما لي ولمزينة. حتى نفدت القبائل …

---

[9] الموضع نفسه.

[10] الموضع نفسه.

ومرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء؛ لكثرة الحديد وظهوره فيها ... منها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار.

قال:
ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة.
والله يا أبا الفضل،
لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداةَ عظيمًا.
قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذن.
قلت: النجاءَ إلى قومك.[١١]

وهنا نجد شباب قريش وقد أخذتهم الحمية، بينما يُقسِّم النبي جيشه أربعة ألوية كبرى ليدخل مكة، ونقرأ الخبر عند أبي هريرة وهو يحكي:

فبعث رسول الله ﷺ الزبير على إحدى المجنبتَين، وبعث خالدًا على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الجسر، وأخذوا بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبته، وقد وبَّشت قريش أوباشها ... فنظر فرآني، فقال: يا أبا هريرة. فقلت: لبيك يا رسول الله. قال: اهتف بالأنصار ولا يأتيني إلا أنصاري. فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله ﷺ، فقال: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ ثم قال بيدَيه، إحداهما فوق الأخرى: احصدوهم حصدًا حتى تُوافوني بالصفا. فقال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء واحد منا إلا أن يقتل منهم ما شاء، وما أحد منهم يُوجِّه إلينا منهم شيئًا. فقال أبو سفيان:
أُبِيحت خضراء قريش،
ولا قريش بعد اليوم.[١٢]

ويهرع أبو سفيان بالفزع إلى مكة يصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه

[١١] نفسه: ص٩٠.

[١٢] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٠٥.

هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت الدسِم الأحمس، قُبِّح من طليعة قوم. قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فقد جاءكم بما لا قِبَل لكم به؛ فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تُغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه عليه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرَّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.[١٣]

وبدأ حظر التجول في أم القرى، بعد أن رأى سيد قريش ما رأى، وأراده النبي أن يرى، ثم كيف جمع الأنصار تحديدًا أمامه، أهل الحرب والدم والحلقة، أعداء قريش وفدائيِّي الإسلام ورجاله؛ ليستبيح بهم مكة، حيث ثروات الملأ التي تربو على مئات الملايين، وفيها كان الغيد الحسان اللائي يرفلن في النعيم؛ ومن ثَم تصوَّر سعد بن عبادة أن ما صنعه الرسول من استعراض للقوة والعنف أمام أبي سفيان أمر نهايته استباحة مكة، فخرج يحمل راية القيادة أمام الجيش، ويحمل معها مشاعر كل يثربي إزاء مكة، هاتفًا: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحَل الحرمة.

ويسمعه المهاجرون فيهرعون بالبلاغ إلى النبي، ومعهم ضرار بن الخطاب شاعرًا يُفصِح عن المشاعر قائلًا:

يا نبي الهدى إليك لجا حيٌّ قريش ولات حين لَجاءِ
حين ضاقت عليهمُ سعة الأر ض وعاداهمُ إله السماءِ
والتقت حلقتا البطان على القو م ونُودوا بالصيلم الصلعاءِ
إن سعدًا يريد قاصمة الظهـ ـر بأهل الحجون والبطحاءِ
خزرجيٌّ لو يستطيع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعواءِ
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة اللواء أهلَ اللواءِ
لَتكونَن بالبطاح قريش فقعة القاع في أكف الإماءِ[١٤]

وهنا يُنادي رسول الله ﷺ سعدًا ليأخذ منه الراية، ويُعطيها لأكثر المهاجرين رأفة ورحمة ليدخل بها مكة، لعلي بن أبي طالب، وخلف علي دخل الجيش في رسالة طمأنة واضحة لمن ينظرون من خلف فرج الأبواب يتطلعون ويرجفون؛ لتتجرأ النساء

[١٣] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص١٠٧.

[١٤] نفسه: ص١٠١.

فقط فيكشفن عن أنفسهن، ويفتحن الأبواب ويقفن في دلع على شارع الموكب العظيم، يحملن أباريق الخمر يضربن بها وجوه خيل الفتح في دعوة واضحة تُعلِن استسلام النساء للفاتحين عن رضًا. ويُلخِّص ابن الأثير ما روته كتب الأخبار بشأن ذلك الاستقبال الحريمي في قوله:

> قام نساء مشركات في وجوههن، يلطمن وجوه الخيل بالخمر، وقد نشرن شعورهن، فرآهن رسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان؟[١٥]

لينطلق حسان مُستجيبًا يصف المشهد شعرًا يقول:

تظل جيادنا مُتمطِّراتٍ	يُلطِّمهن بالخمر النساءُ
فإما تُعرِضوا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاءُ
وقال الله قد سيَّرت جندًا	هم الأنصار عرضتها اللقاءُ
ألا أبلغ أبا سفيان عني	مُغلغَلة فقد برح الخفاءُ
بأن سيوفنا تركتك عبدًا	وعبد الدار سادتها الإماءُ[١٦]

ولم يعترض الجيش أحد إلا النساء المُرحِّبات، واللهم إلا مجنبة خالد بن الوليد، الذي لقيه بعض المُتحمِّسين من شباب قريش في جمع عند الخندمة، فقتل منهم ثمانية عشر وفرَّ البقية، وعلم النبي فقال: ألم أنهَ عن القتال؟ فأجابه مُجيب: خالد قُوتِل فقاتل. فقال: قضاء الله خير. ومن المسلمين لم يُقتَل غير رجلَين خطأً لسريانهما في أماكن محظورة وقت حظر التجول، هما كرز بن جابر الفهري، وخالد الأشقر الخزاعي.[١٧]

ودلف النبي إلى البيت، وأرسل بلالًا إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة؛ ذلك المفتاح التاريخي الذي انتقل عبر القرون من أيادٍ إلى أيادي فوق دماء كثيرة، لينتهي إلى سليل البيت الهاشمي. ويُمسِك النبي بالمفتاح رمز السيادة جميعًا، ويفتح باب الكعبة

[١٥] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٤٧.

[١٦] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص١٠٧.

[١٧] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج٢، ص٩٨.

ليُصلِّي بداخلها ركعتَين، ثم يخرج فيقف على الباب آخذًا بعضادتَيه وقد لبط الناس حوله، فيخطب فيهم قائلًا:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.
ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى، فهو موضوع تحت قدمَيَّ هاتَين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغلَّظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.
يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب.
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ...﴾ (وقرأ الآية كلها).
يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟

ويأتيه الرد:

خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم.

رد ما كان جوابه إلا:

اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويدعو النبي عثمان بن طلحة، فيدفع إليه مفتاح الكعبة وهو يقول: «خذوها يا بني طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم.» بينما لا شك كان عثمان بن طلحة يتذكر أيام كان محمد مَهيضًا ضعيفًا في بداية دعوته بمكة، عندما أراد أن يدخل محمد الكعبة مع الملأ القرشي من السادة ليُطالِع ما بداخلها، فمنعه عثمان بن طلحة ورده ردًّا غليظًا، ونال منه. ولا شك يتذكر الآن وهو يستلم المفتاح من محمد ﷺ بعد أن أصبح سيد السادة، ما سبق وقاله له محمد يومذاك: «يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح بيدي يومًا، أضعه حيث شئت.» ولا شك أيضًا أنه لم يزَل ذاكرًا بقية الحوار عندما أجابه: «لقد هلكت قريش يومئذٍ وذلَّت.» فرد علي النبي: «بل عمرت وعزت يومئذٍ.»[١٨] وقد أثبتت الأيام صدق كل كلمة قالها سيد الخلق.

[١٨] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص٢٣١.

ثم يُنادي النبي عمه العباس بن عبد المطلب؛ ليُقيمه كما كان على منصب السقاية قائلًا: «أعطيتكم ما ترزأكم ولا ترزءونها.» ثم يبعث إلى تميم بن أسد الخزاعي ويأمره بتجديد أنصاب الكعبة، ثم يأمر بلالًا بالصعود فوق سطح الكعبة عند الظهر؛ ليرفع شعار دولة الإسلام مُؤذِّنًا به، بينما يُردِّد النبي: «لا تُغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة.» وكانت بنت أبي الحكم تُردِّد قولًا آخر وهي تسمع الأذان، فتقول: «أما الصلاة فسنُؤَدِّيها، ولكن والله ما تحب قلوبنا من قتل الأحبة.»[١٩]

وبعدها خرج النبي إلى ساحة الكعبة، يطوف على الأصنام يُشير إليها بقضيب في يده وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا. ويُؤكِّد ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ما أشار إلى صنم إلا وقع لساعته على وجهه أو قفاه، لكن ابن كثير لم يُعجِبه ذلك، ورأى في سقوط الأصنام بمجرد الإشارة تزيُّدًا ورواية ضعيفة.[٢٠]

وبعدها يدخل النبي إلى قبة بنوها له، وهناك يُصدِر أوامره بقتل نفر سمَّاهم بالاسم، حتى لو وُجِدوا مُتعلِّقين بأستار الكعبة؛ منهم جاريتان كانتا تتغنيان بهجاء النبي، فقُتِلت واحدة واستُؤمن للأخرى من النبي فعفا عنها. وسارة وهي جارية كانت تُؤذيه بمكة قبل الهجرة وقد استُؤمن لها بدورها. والحويرث بن نقيد وهبار بن الأسود وهما اللذان نخسا بعير زينب بنت الرسول فسقطت عنه وألقت جنينها. وعبد الله بن خطل الذي أسلم فأرسله النبي يجمع الصدقات فقتل عبده وعاد إلى مكة مشركًا، وقد قتله سعيد بن حريث. ومقيس بن صبابة الذي ذهب إلى يثرب مسلمًا، ثم قتل أنصاريًّا ثأرًا لأخيه ثم عاد إلى قريش مشركًا، وقد قتله نميلة بن عبد الله. وعكرمة بن أبي جهل، وقد جاءت به امرأته للنبي فاستأمنته له.[٢١]

كذلك صدر الأمر النبوي بقتل الشاعر عبد الله بن الزبعرى السهمي؛ لأنه كان ممن يهجو النبي بشعره، وقد هرب مع هبيرة المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب إلى نجران، وهناك أقام هبيرة مشركًا حتى مات، وعاد ابن الزبعرى إلى النبي مُعتذِرًا

---

[١٩] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٩٩. انظر أيضًا السهيلي: الروض الأنف، سبق ذكره، ج٤، ص١١٤.

[٢٠] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٠٠.

[٢١] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٩٢، ٩٣. انظر أيضًا السهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص١٠٤.

مُتحبِّبًا بقصائد المديح، فعفا عنه. كما صدر الأمر بقتل وحشي الحبشي لقتله حمزة بن عبد المطلب عم النبي في أحد، لكنه جاء للنبي مُعتذِرًا مسلمًا فقبل منه، كذلك قبل النبي اعتذار حويطب بن عبد العزى، وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان.[٢٢]

وممن صدر بحقهم حكم الموت كان شقيق عثمان بن عفان من الرضاعة، عبد الله بن أبي سرح؛ لأنه كان قد أسلم، واشتغل بكتابة الوحي للنبي، ثم ارتد إلى مكة مشركًا، وقد جاء به عثمان إلى النبي يستأمنه، وهو ما جاء عند ابن كثير راويًا: «فلما جاء ليستأمن له صمت عنه الرسول طويلًا، ثم قال: نعم. فلما انصرف مع عثمان قال الرسول لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا — حين رآني قد صمت — فيقتله؟! فقالوا: يا رسول الله، هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن النبي لا يقتل بالإشارة.»[٢٣]

وتقول رواية أخرى بذات الخصوص إن واحدًا من الأنصار كان قد نذر أن يقتل ابن أبي سرح نقمةً عليه، فلما جاء به عثمان وكان الأنصاري حاضرًا، وبعدما خرج عثمان وأخوه قال النبي للأنصاري: «هلا وفَّيت بنذرك؟ فقال: يا رسول الله، وضعت يدي على قائم السيف أنتظر منك أن تُومئ لي فأقتله. فقال النبي: ليس لنبي أن يُومئ.»[٢٤]

ووسط زخم الأحداث، وبين الحشد المُتجمِّع حول قبة النبي ﷺ جاء أبو بكر بشقيقته، التي كانت قد خرجت على باب بيتها حين دخول جيش الفتح إلى مكة مع النسوة اللائي خرجن يستقبلن جيش الفتح، فتلقَّاها رجل وخطف من رقبتها طوقها الذهبي، وأمسك أبو بكر بيد شقيقته يُنادي جند الله: «أنشُدكم الله والإسلام طوق أختي.» فلم يُجِبه أحد، فقال لأخته: «أي أُخَية، احتسبي طوقك، إن الأمانة في الناس اليوم لقليل.»[٢٥]

وتنتهز خزاعة الموقف فتعدو على هذيل، فتقتل رجلًا منها بثأر قديم، وهنا يغضب سيد الخلق ويقف يُنادي في الناس:

يا أيها الناس

إن الله حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يُؤمِن بالله واليوم الأخر أن يسفك فيها دماءً ولا يعضد

[٢٢] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٠، ٢٥١.

[٢٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٩٦.

[٢٤] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٢.

[٢٥] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص٩١.

فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة؛ غضبًا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس؛ فليُبلِّغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسول الله ولم يُحِلها لكم. يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد كثر القتل.[٢٦]

وهكذا، وقفت الأنصار دهِشة، كما وقفت قريش أيضًا مأخوذة؛ فالنبي يكف أيدي الأنصار عن مكة، ويكف أيدي الناس عن بعضهم البعض، ويُعلِن حرمة البيت إلى نهاية الدهور، ويُطلِق أهل مكة دون شروط، ويُمارِس طقوس قريش الدينية بتمامها، حتى تجديد الأنصاب، واحترام الحجر الأسود وتقديسه؛ لتتساءل الأنصار مُتوجِّسة بالهواجس عما سيئول إليه الأمر، وهل من الممكن للنبي بعد أن تحرَّك رحمةً لبلده أن يمكث فيها بين أهله؟ لكن ليأتيها الجواب من رسول الله ﷺ: «مَعاذ الله، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمَحيا محياكم والممات مماتكم.» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: «والله ما قلنا الذي قلنا، إلا للضن بالله ورسوله.»[٢٧]

وبعدها يصعد النبي إلى الصفا، لتقف مكة في طابور طويل، رجالها ونساءها، يمرون أمامه ليُلقي كل منهم صيغة الاعتراف والرضوخ ومُبايَعة الرسول عليهم سيدًا أو رسولًا، بينما يجلس عمر بن الخطاب أسفل مجلسه «يأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله.»[٢٨]

[٢٦] نفسه: ص٩٤، ٩٥.

[٢٧] نفسه: ص٩٥، انظر أيضًا ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٠٦.

[٢٨] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣١٧.

سرايا خالد بن الوليد

اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد.

النبي ﷺ

بفتح مكة، انتهت الشفاعات، إحدى ركائز العقائد العربية والقرشية، وتم تدمير تماثيل الأرباب الوسيطة جميعًا؛ تلك التي كانت قائمة في فناء الكعبة، تتوسط لدى إله السماء لمن هم في الأرض من عُباده، وسقط عمود أساسي من أعمدة الوثنية المكية المرتبطة بالكعبة وبالتجارة، حيث كانت تلك الأرباب أربابًا للقبائل الضاربة في بطن شبه الجزيرة، استضافتها الكعبة المكية جذبًا لأتباعها نحو المركز التجاري المكي؛ لمزيد من الرواج التجاري، وإثباتًا لسيادة الإله المكي الأعلى السماوي على بقية الأرباب، بما يحمل ضمنيًّا التسييد القرشي على بقية القبائل؛ ومن ثَم سقطت الوساطات ودُمِّرت الشفاعات بتدمير تلك التماثيل، الذي جاء تدميرًا للرموز القبلية المُتعدِّدة وصهر تلك القبائل جميعًا في منظومة الأمة الواحدة، عبر العبادة المباشرة لإله واحد لا يقبل وساطة من أحد إلا بإذنه، وقد أذِن بذلك لصفيِّه النبي القرشي كشفيع أوحد، لتنتقل حالة التشتت القبلي الساعي نحو التوحيد بتماثيل مُتجاوِرة في الكعبة، إلى توحيد كامل بصهر جميع الشفاعات في شخص سيد أوحد من قريش هو النبي عليه الصلاة والسلام؛ لتضمن قريش بذلك سيادة أعظم، فينوب عنها جميعًا سيد الخلق سيدًا للعرب وشفيعًا أوحد للإله الأوحد في الدولة المُتوحِّدة المُوحِّدة.

وإعمالًا لذلك انطلقت سرايا المسلمين لتدمير هياكل الأرباب الوسيطة في مُحيط الجزيرة، وبين تلك السرايا كانت سرية خالد بن الوليد لتدمير العزى وبيتها في ناحية نخلة؛ ذلك الصنم الذي اجتمعت حوله قريش وكنانة ومضر؛ ليُفكِّك بذلك هذا التحالف القبلي السابق بين تلك القبائل ويصهرها في منظومة الدولة.

وتروي لنا كتبنا الإخبارية أن خالدًا انتهى إلى العزى فهدمها وقطع سمراتها الثلاث وكسر ما لحق بها من رموز مُقدَّسة، ورجع إلى النبي، لكن لتتدخل تلك الروايات مرة أخرى تُحاوِل التأكيد على ما كان وراء العزى من قوة غيبية، لكنها قوة مُخيفة شيطانية؛ فتسوق رواية تحكي أنه بعد عودة خالد إلى النبي سأله النبي ﷺ: ما رأيت؟ فيرد أنه لم يرَ شيئًا، فيأمره النبي بالعودة مرة أخرى إلى العزى. ولا نتفهم السبب إلا باستمرار الرواية وهي تُؤكِّد أن النبي كان يعلم أن العزى ليست مجرد حجر وأشجار، حيث يعود خالد إلى المكان فتخرج إليه امرأة سوداء ناشرة شعرها تُولوِل، فيعلوها خالد بالسيف وهو يُنادي: يا عزى كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك. ويقتل خالد تلك الربة أو تلك الشيطانة فينكشف له ما في البيت المقدس من مال مخبوء، فيعود به إلى النبي، ليُعقِّب الرسول قائلًا: تلك العزى ولا تُعبَد بعد أبدًا.[١]

ويعود النبي فيُرسِل خالدًا في سرية أخرى، ترتبط أحداثها بمبدأ «الإسلام وقاء» وأهميته والتأكيد عليه، حيث سيُعلِن النبي تبرؤه من خالد بن الوليد وشكواه إلى الله؛ لكسره تلك القاعدة الأساس في بناء الدولة، حيث خرج خالد برجاله المُقاتِلين، بعضهم من المسلمين الأوائل، وبعضهم من الطلقاء والأعراب اللاحقين بالدولة طمعًا في المغانم أو الأمن، ليهبط على مياه بني جذيمة، وإعمالًا لمبدأ «الإسلام وقاء» يُؤكِّد ابن كثير المعنى ذلك في قوله: «بعث عليه السلام خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة ... بعثه داعيًا ولم يبعثه مُقاتِلًا، ومعه قبائل من العرب.»[٢]

ويروي الطبري أن بني جذيمة ما إن رأوا خالدًا حتى أخذوا السلاح، فناداهم خالد:

ضعوا السلاح؛
فإن الناس قد أسلموا.[٣]

---

[١] نفسه: ص٣١٤، ٣١٥.

[٢] نفسه: ص٣١١.

[٣] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٣، ص٦٧.

وهو النداء الذي يحمل معنى السلام بالإسلام، وما يستدعي الشعور بالأمان ووضع السلاح. ويُعلِمنا ابن سيد الناس من جهته أن جذيمة قد أسلمت بالفعل سلفًا قبل أن يصلها خالد برجاله، وهو ما يتضح في الحوار الذي ساقه بين خالد وبينهم حيث يقول لهم خالد: «ما أنتم؟» قالوا: «مسلمون قد صلَّينا وصدَّقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذَّنا فيها.» قال: «فما بال السلاح عليكم؟» قالوا: «بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح.» قال: «فضعوا السلاح.» فوضعوه، فقال لهم: «استأسروا.» فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتَّف بعضًا وفرَّقهم في أصحابه.[٤]

وتطفر هنا إشارة لا تفوت قارئًا مُدقِّقًا، حيث تُجمِع كتب الأخبار أن بني جذيمة عندما رأوا خالد بن الوليد، صرخ أحدهم واسمه «جحدم» صرخة الفزع يُنادي قومه مُحذِّرًا الاستجابة لخالد:

يا بني جذيمة، إنه خالد،
والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار،
وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق،
والله لا أضع سلاحي أبدًا.

فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم، إن الناس قد أسلموا، ووُضِعت الحرب وأمن الناس. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم.[٥]

لكن يبدو أن «جحدمًا» هذا كان ذا وعي نافذ، لا يطمئن ولا ينسى، فهو لم ينسَ أبدًا ذلك الأمر الذي دعاه للفزع عندما رأى خالدًا، ويبدو أنه الأمر الذي لم يغرب عن بال خالد لحظة منذ خرج لبني جذيمة؛ ذلك الأمر الذي يشرح لنا ابن هشام أمره، عما كان بين بعض قريش وبعض جذيمة قبل الدعوة الإسلامية إذ يقول:

«وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وعوف بن عبد مناف بن الحارث بن زهرة، وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، قد خرجوا تجارًا إلى اليمن … فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جذيمة بن عامر — كان قد هلك باليمن —

[٤] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص٢٣٩.
[٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣١١.

إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يُقال له خالد بن هشام، ولقيهم بأرض جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبوا عليه، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فقُتِل عوف بن عوف، والفاكه بن المغيرة، فهمَّت قريش بغزو جذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مُصاب أصحابكم عن ملأ منا، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال. فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب.»[٦]

هكذا أدرك جحدم أن لخالد ثأرًا عند بني جذيمة، بعمه الفاكه بن المغيرة، ولم يثق الرجل في أن الإسلام قد غيَّر شأن خالد، بينما رأت بقية جذيمة أنه يجب الوثوق برسول رسول الله، بعد أن أسلم الناس وأمنوا الحرب، وطرحوا ما كان من شأن الجاهلية وراءهم، فأمنوا لخالد وأطاعوه مُوقِنين من السلامة في النهاية، لكن ظن جحدم كان هو الظن الصادق، فقد أمر خالد رجاله أن يقتل كل منهم أسيره.

وانقسم الصحابة فريقَين حول أمر خالد، حيث رفض المسلمون الأوائل تنفيذ أمر القائد، بل وأطلقوا ما كان بأيديهم من أسرى، أما بقية العربان وطلقاء قريش فقد نفَّذوا الأمر على الفور، واستحر القتل بليغًا في الأسرى.

وفي مقتلة مسلِمي جذيمة حادثة أوردتها كتب السير تحمل قصة حب رائعة، رواها الرواة عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، إذ يقول: «وأدركنا الظُّعُن — النساء — فأخذناهن، فإذا فيهم غلام وضيء الوجه به صفرة كالمنهوك، فربطناه بحبل وقدَّمناه لنقتله.» فقال لنا: «هل لكم في خير؟» قلنا: «ما هو؟» قال: «تُدرِكون بي الظعن في أسفل الوادي ثم تقتلونني.» قلنا: «نفعل.» فعارضنا الظعن، فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: «اسلمي حبيش على فقد العيش.» فأقبلت جارية بيضاء حسناء وقالت: «وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء.» قال: «سلام عليك دهرًا وإن بقيت عصرًا.» قالت: «وأنت سلام عليك عشرًا وشفعًا تترى وثلاثًا وترًا.» فقال:

إن يقتلوني يا حبيش فلم يدع ... هواك لهم مني سوى غلة الصدرِ
فأنت التي أخليت لحمي من دمي ... وعظمي، وأسلبت الدموع على نحري

[٦] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص١١١.

فقالت له:

ونحن بكينا من فراقك مرة　　وأخرى، وواسيناك في العسر واليسرِ
وأنت فلم تبعد فنِعم فتى الهوى　　جميل العفاف والمودة في سترِ

ليُجيبها الحبيب المُفارِق:

فلا ذنب لي قد قلت إذ نحن جيرة　　أثيبي بود قبل إحدى الصفائقِ
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى　　وينأى الأمير بالحبيب المُفارِقِ

فقدَّموه فضربوا عنقه.[٧]
فجاءت فجعلت ترشفه حتى ماتت عليه.[٨]

ونعلم من رواية ابن كثير أن الشاب لم يكن من بني جذيمة المسلمين، لكنه جار لهم لحق بهم عشقًا وهيامًا في بنتهم حبيش؛ ومن ثَم ربما كان من المشركين، حيث يقول ابن كثير إن الشاب عندما قبض عليه رجال خالد قال لهم: «إني لست منهم، إني عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم.» فإذا امرأة أدماء طويلة، فقال لها: «اسلمي حبيش قبل نفاد العيش» … فقالت: «نعم فديتك.» فقدَّموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتَين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه بالخبر، فقال: «أما كان فيكم رجل رحيم؟»[٩]

وكان أول المُحتجِّين على فعل خالد بمسلِمي جذيمة ذلك الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، وهو ابن عوف بن عوف، الذي عدت عليه جذيمة في الجاهلية وقتلته مع عم خالد الفاكه بن المغيرة، فقام عبد الرحمن بن عوف ينتهر خالدًا يقول له غاضبًا: «لقد عملت بأمر الجاهلية في الإسلام.» فأراد خالد أن يُشرِك الصحابي الأول في

[٧] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٧٥.
[٨] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٨.
[٩] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣١٤.

الجريمة الشنيعة، ويُلبِسه جميلًا غير جميل بقوله له: «إنما ثأر لأبيك.» لكن ليرد عليه عبد الرحمن بن عوف مُكذِّبًا مُحتجًّا فاضحًا:

كذبت؛
فلقد قتلت قاتل أبي،
لكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة.[10]

وأخذ المسلمون يتلاومون في أمر قتلى مسلِمي جذيمة المُستسلِمين لأمان الإسلام، حتى بلغ الأمر رسول الله بليغًا، فانتفض رافعًا يدَيه حتى رأى الناس ما تحت إبطَيه وهو يهتف بأعلى صوته أمام الكعبة، ليبلغ الجميع أن الإسلام ينبغي أن يكون وقاءً لأهله، مُردِّدًا من المرات ثلاث صارخات:

اللَّهم إني أبرأ إليك،
مما صنع خالد بن الوليد.[11]

ثم أردف هتافه المُلتاع الغاضب الحزين بديات القتلى يُرسِلها إلى جذيمة حتى ترضى، وحتى ترى العرب ذلك واضحًا، لكن ابن كثير يلحظ الموقف بعين فاحصة واعية فيقول إنه رغم قتل خالد لعدد كبير من مسلمي جذيمة، وأنه «قتل طائفة كثيرة منهم وأسر بقيتهم، وقتل أكثر الأسرى أيضًا، فمع هذا لم يعزله رسول الله ﷺ بل استمر به أميرًا ... لهذا لم يعزله أبو بكر في خلافته حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأوَّل عليه ما تأوَّل حين ضرب عنقه واصطفى امرأته أم تميم، فقال له عمر بن الخطاب اعزله فإن في سيفه رهقًا. فقال له الصِّديق لا أغمد سيفًا سلَّه الله على المشركين.»[12]

وبالطبع — وفي المعنى المُضمَر — حتى لو ذبح حسب مزاجه وثاراته الكثير من المسلمين الأبرياء.

[10] نفسه: ص٣١٢.

[11] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٣، ص٦٧.

[12] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣١٣.

غزوة هوازن

يغفر الله لرسول الله، يُعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم.

الأنصار

لم تُدرِك هوازن تلك القبيلة الكبرى، ولا ثقيف التي لا تقل عنها شأنًا، أن الأمر يسير إلى نتائجه التاريخية، ولا أدركت كلتاهما أن وحدة العرب في جزيرتهم قد انعقدت في صفحات الزمن بعد فتح الفتوح، والاستيلاء على أم القرى، ولم تُدرِك القبيلتان أن غزوات الجاهلية في سبيلها إلى زوال؛ حيث يحكي لنا ابن الأثير ذكر غزوة هوازن في وادي أوطاس بجبال حنين، فيقول: «وكانت في شوال، وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة، جمعها مالك بن عوف النصري، من بني نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مُشفِقين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وقالوا: لا مانع له من غزونا، والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليه أهل ثقيف.»[1] أما الطبري فيُعلِمنا أن هوازن وثقيف قد جمعوا جموعهم عندما سمعوا بمسير جيش يثرب نحو مكة، ظنًّا منهم أنه يريدهم هم.[2] وقد ذهب البلاذري مذهب ابن الأثير في قوله: «وكانت أشراف هوازن بن منصور وغيرهم من قيس قد تجمَّعوا مُشفِقين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ، وقالوا: قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا والرأي أن نغزوه.»[3]

---

[1] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٦١.

[2] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٣، ص٧٠.

[3] البلاذري: أنساب الأشراف، سبق ذكره، ج١، ص٣٦٤.

وعلم رسول الله ﷺ بالرعب الذي أخذ هوازن، ودفعها دفعًا لتخرج في حلف مع ثقيف، يتقدمها رجالها، قد أخذوا معهم نساءهم وأموالهم وأطفالهم، بتقرير فدائي من مالك بن عوف ملكهم وسيدهم؛ حتى يجد كل رجل منهم في نفسه الغيرة والحمية للقتال دون عرضه وماله، فكان وجود المال والنساء والعيال وراء الرجال دافعًا للاستماتة القتالية من وجهة نظر قائدهم مالك بن عوف، طالبًا بذلك روحًا فدائية ونصرًا لا يشك فيه.

وخرج النبي برجاله من مكة غازيًا لهوازن، لكنه ترك لأهل مكة، ولفرعها الأموي تحديدًا طمأنة واضحة، تبليغًا بمكانتهم ودورهم في الدولة، فاستخلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموي، وكان عمره إذ ذاك قريبًا من عشرين سنة؛[٤] مُنبِّهًا بذلك إلى دور الجيل القرشي المقبل، ومُطمئنًا لتجار مكة وسادتها على نظامها الاقتصادي والتجاري، بل والديني الذي أفرزه ظرفها التاريخي، وهو ما تُؤكِّده رواية ابن الأثير حيث يقول إن عتاب الأموي قد حج بالناس هذا العام، «وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج.»[٥]

وبينما تتحرك كتائب الإيمان نحو أوطاس حنين في اثنَي عشر ألف مُقاتِل، منهم جيش الفتح وكان عشرة آلاف، وقد انضم إليه ألفان من الطلقاء، يقول النبي وهو على رأس ركبه العظيم، تهتز تحته أرض البوادي تُسمِع العربان:

لن نُغلَب اليوم من قلة![٦]

وكانت كلمة الرسول ﷺ مُعبِّرة تمامًا عن واقع موضوعي واضح فصيح، فمهما كانت قوة هوازن وثقيف، فلن تُقاس عدًّا على جند الله الذين يُمثِّلون أكبر جيش عرفته الجزيرة من عربها، ولم يعد الأمر بحاجة في تلك الجولة لاستدعاء ملأ السماء المُقاتِل ولا تعبئة للملائكة، ونادى النبي في رجاله هاتفًا:

من قتل قتيلًا فله سلبه.[٧]

---

[٤] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣١٣.

[٥] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٧٢.

[٦] ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص١٢٤.

[٧] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٩.

وجاءه رجل من عيونه المُتقدِّمين يحمل أخبار العدو يقول: «يا رسول الله، إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنهم وبنعمهم وشائهم قد اجتمعوا إلى حنين.» فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال:

تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله.[٨]

لكن على طريق هوازن، يظهر بين ذلك الجمع من جند الإيمان كثير من سوء الفهم للإسلام وأهدافه، خاصة بين أولئك الذين احتشدوا معه على حداثة عهد بالإسلام من العربان والطلقاء، حيث يمرون بشجرة مُقدَّسة لعرب الجاهلية اسمها ذات أنواط، وعندما يرونها يقولون للنبي ﷺ: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.» وكانت ذات أنواط قد بلغت رتبة الربوبية في الجاهلية؛ ومن ثَم لم يُدرِك هؤلاء مغزى التوحيد القومي والتوحيد الألوهي الذي لا يقبل شراكة، وهم من لا شك ينطبق عليهم قول الآيات الكريمة:﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات: ١٤)؛ لذلك كان رد رسول الله عليهم المُستنكِر: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة. لتركبُن سنن من كان قبلكم.»[٩]

هذا بينما كان مالك بن عوف قد عزم من جانبه على نصرٍ إن حدث غيَّر تاريخ الجزيرة والعالم، فاستفاد من دروس غزوة بدر الكبرى، حين كان المسلمون قلة أمام كثرة، وعلم الأسباب ودرس الخطط، ليفعل ما سبق وفعله المسلمون أوانها؛ فسبق جيش المسلمين برجاله إلى مواقع مُتميِّزة اختارها بجبال حنين المرتفعة والتي تنحدر إلى قعر فسيح يُسمَّى أوطاس، ووزَّع رجاله في مواقع مختارة بعناية، وهيَّأه ما بين رامٍ وفارس وراجل ودارع، ووضع خلفهم نساءهم وأطفالهم وبعيرهم وشياههم وأموالهم، وهو يعلم من جانب آخر حال ذلك الجيش الهائل وما فيه من ثغرات، أهمها أولئك الذين دخلوا الإسلام كرهًا، وأطلق عليهم المسلمون الأوائل اسمًا يليق بهم، أسموهم الطلقاء.

ونسمع من الصحابي جابر تصوير المشهد الأول للغزوة وهو يقول:

فلما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادٍ أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحدارًا، في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في

[٨] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٤.

[٩] أخرجه الترمذي في كتاب الفتن ١٨ باب: «لتركبن سنن ...» الحديث ٢١٨٠.

> شعابه ومضايقه، قد تهيَّئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن مُنحطُّون إلا الكتائب قد شدَّت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لا يلوى أحد على أحد.[١٠]

الآن ينهزم جيش دولة النبي وهو الكثير أمام فئة قليلة؟! الآن وبعد ذلك المشوار الطويل الكبير العظيم، وبعد أن قاربت الدولة الكبرى على القيام في جبين التاريخ، وبعد كل تلك المعاناة والتجارب والهزائم والانتصارات، وبعد كل تلك الدماء وذلك العمر الذي انقضى، والدولة الكبرى من التحقيق قاب قوسَين أو أدنى، وبعد كل ذلك التواصل بين الأرض والسماء، وكل الآيات التي تتحدث عن الاستشهاد وعن الجنة وعن النار؛ تفر الكثرة أمام القلة، ويتبعثر الاثنا عشر ألف مُقاتِل مُنهزِمين يُحاوِلون الصعود من أوطاس إلى حنين، والصعود ليس كالهبوط، فيه الذعر وفيه الكبوات، فيه سهام تئز ورماح تُطارِد، لا أحد يلتفت إلى أحد، ولا حتى إلى رسول الله ﷺ وهو يرى المشروع برمته يتزلزل زلزالًا عنيفًا، ليقف مكانه ثابتًا؛ فالآن بعد كل تلك الحياة الحافلة بزخم الأحداث الكبرى، إما حياة تصل إلى مُبتغاها أو لا حياة، ويصمد القائد العظيم وحده ويهرب المؤمنون فرارًا من الموت، ولا يبقى من القضية كلها والشعارات جميعًا عن جنة الشهداء ونار الكافرين، سوى رابطة الدم وحدها، فيجتمع حول بغلة الرسول أهل بيته فقط من بني عبد المطلب وأبي طالب، ثمانية فقط من الاثنَي عشر ألفًا وقفوا ترسًا واحدًا في حلقة حول ابن أخيهم، بينما النبي يهتف في رجاله المؤمنين:[١١]

> أين أيها الناس؟!
> هلمَّ إليَّ،
> أنا رسول الله،
> أنا رسول الله،
> أنا محمد بن عبد الله.

ويُعقِّب ابن كثير على النداء النبوي:

> ولا شيء!
> وركبت الإبل بعضها بعضًا.

---

[١٠] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٦٢، ٢٦٣.

[١١] السهيلي: الروض الأنف، سبق ذكره، ج٤، ص١٤١.

أو:

وانكفأ الناس مُنهزِمين،
لا يقبل أحد على أحد.[١٢]

ووسط الغبار الثائر تحت خطو الهاربين وسنابك خيولهم، يلمح أحد الفارين عمر بن الخطاب فيسأله: «ما شأن الناس؟» ليُجيبه عمر مُعبِّرًا عن مدى اللوعة واليأس: «أمر الله!»[١٣]

وانتحى أبو سفيان مع رفقة له من رجال مكة الطلقاء، مكانًا آمنًا يُطالِعون مشهد الارتداد والنكوص لجند المسلمين الفزعين، ليُفصِح لسانه عن مكنون صدره، فيهتف مُعبِّرًا عن فرحه العظيم:

لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

أما كلدة بن الحنبل، الذي خرج من مكة مع النبي وهو على شركه، وكان يظن أن ما حقَّقه محمد إنما بفضل السحر، فقط علا صوته وهو يُعلِن سعادته جهيرة بما يرى ويصرخ:

ألا بطُل السحر اليوم!

لكن ليرد عليه أخوه لأمه صفوان بن أمية، أحد كبار أشراف مكة، مُعبِّرًا عن قبليته العميقة وعصبيته المُتجذِّرة لأهله، يقول: «اسكت فضَّ الله فاك، فوالله لئن يُربِّني رجل من قريش، أحب إلى من أن يُربِّيني رجل من هوازن.»[١٤]

ويقول ابن كثير: «اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة.»[١٥] فيمر عليهم رجل من قريش يُنادي صفوان بن أمية: «أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجتبرونها أبدًا.» ليرد صفوان مُكرِّرًا مُعبِّرًا عن أسفه مما يسمع من بني قريش: «تُبشِّرني بظهور الأعراب؟ فوالله لَرب من قريش أحب إليَّ من

[١٢] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ص٣٢٥، ٣٢٦.
[١٣] نفسه: ص٣٢٩.
[١٤] نفسه: ص٣٢٥.
[١٥] نفسه: ص٣٢٨.

رب من الأعراب.» وهي ذات المشاعر العشائرية التي عبَّر عنها لسان مصعب بن شيبة، عندما سئل بعدها عن خروجه مع رسول الله إلى هوازن، حيث يقول: «والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش.»[16]

أما النبي الذي وقف يُشاهِد هذا الانهيار، فقد نظر إلى السماء وهو يهتف بربها:

اللهم إنك إن تشاء،
لا تُعبَد في الأرض بعد اليوم.[17]

وكان لا بد من عمل سريع، وتصرُّف حاسم، فينظر الرسول إلى حامل راية هوازن، يرفع الراية ويُمسِك برمح طويل لا يحمله إلا رجل شديد المراس، يقتحم الناس بفرسه ووراءه رجال هوازن وثقيف، وهنا يرفع النبي إصبعه مُشيرًا إلى حامل الراية، ويتبع علي بن أبي طالب الإشارة ليهويَ بسيفه على عقب الفرس، فيسقط فيقتلُه فتسقط الراية ... وترتبك هوازن.

ثم يجول المصطفى بعينَيه يبحث بين الهاربين عن خئولته من أهل الدم والحرب والحلقة اليثاربة، ثم يهتف بعمه العباس فجأة، بينما هو واقف يُمسِك بزمام بغلة الرسول دلدل:

يا عباس،
نادِ: يا معشر الأنصار،
يا أصحاب الشجرة.

كان النداء نداء رحم وخئولة، وتذكيرًا بعهد البيعة حتى الموت تحت الشجرة، وتنبيهًا إلى عقد العربي وجواره المعقود بين الأنصار والنبي في العقبة، واستشرافًا لشهامة النجدة والمروءة، واستنفارًا للنخوة العربية، ويستمر العباس يُنادي والنبي يُلقِّنه:

يا أصحاب البيعة يوم الحديبية،
الله الله!

---

[16] نفسه: ص٣٢٩، ٣٣١.

[17] نفسه: ص٣٢٦.

> الكرة على نبيكم،
> يا أنصار الله،
> يا أنصار رسول الله،
> يا بني الخزرج،
> يا أصحاب سورة البقرة،
> يا أصحاب السمرة.[18]

نداء لمس الحواشي وهز ما بين الجوانح ولجَّت به الخئولة في تعبير العباس بن عبد المطلب وهو يقول:

> فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا:
> يا لبَّيكاه!
> يا لبَّيكاه![19]

ويمضي العباس، الشاهد على عقد العقبة مع الأنصار، الذين تكفلوا بحماية النبي بعهد وعقد عربي، ليصف لنا المشهد الثاني للمعركة الكبرى، لينظر إلى الأنصار ويقول شاهدًا على التزامهم عهدهم ووفائهم رحمهم:

> فيذهب الرجل منهم يريد أن يُثني بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم عن بعيره، فيُخلي سبيله في الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ما كانت: يا لَلأنصار. ثم جُعِلت أخيرًا: يا لَلخزرج.[20]

وصمد المسلمون، وبدأ الفارُّون في العودة والتكاثر، وعاد السيف الإسلامي يشتد مرة أخرى ليعمل عمله في هوازن وثقيف لينتحي النبي يمينًا وحوله آل بيته الهاشمي، ويقول من مُعتلاه: الآن حمي الوطيس.

---

[18] نفسه: ص٣٢٨، ٣٢٩.

[19] نفسه: ص٣٢٩.

[20] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٣، ص٧٤.

وبلاغة المصطفى هنا ظاهرة في تعقيبه على دورة الدائرة على هوازن في وادي أوطاس، وقوله الآن حمى الوطيس. والوطيس في شرح السهيلي هي نقرة في حجر تُوقَد حوله النار فيُطبَخ به اللحم، ويُعقِّب بأنها من الكلم التي لم يُسبَق النبي إليها أحد.[٢١]

ومع صمود الأنصار عاد الجيش المنهزم ليحط على عدوه ليستحر القتل حتى قال ابن سعد: «فأمر رسول الله أن يُقتَل من قُدِر عليه، فحنق المسلمون عليهم يقتلونهم حتى قتلوا الذرية، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك، فنهى عن قتل الذرية.»[٢٢] وما هي إلا سويعات حتى جمع المسلمون من الأسرى ما يربو على ستة آلاف نسمة أعمهم نساء وأطفال تركهم رجالهم وهربوا أو قُتِلوا،[٢٣] ووقف المسلمون يُحصُون غنائمهم التي وصلت أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة.[٢٤] أمر رسول الله ﷺ أن يتم حبسها في الجعرانة حتى ينظر في أمر توزيعها على أفراد الجيش المُنتصِر.

هذا بينما كانت أم سليم تُعبِّر عن مشاعر السخط على الخونة في الجيش والطلقاء من قريش، الذين فروا والذين شمتوا والذين فرحوا والذين وقفوا ينتظرون تحديد موقفهم بتحديد العلامات المُبشِّرة لمن ستكون الكرَّة، فتقول للنبي: «يا رسول الله، اقتل من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك.» فقال: «إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم.»[٢٥] وفاضت مشاعر حسان بن ثابت الأنصاري ضد الطلقاء، فقال في كلدة بن الحنبل الذي كان يهتف: «ألا بطل السحر اليوم»:

رأيت سوادًا من بعيد فراعني ... أبو حنبل ينزو على أم حنبلِ
كأن الذي ينزو به فوق بطنها ... ذراع قلوص من نتاج ابن عزهلِ[٢٦]

---

[٢١] السهيلي: الروض الأنف، سبق ذكره، ص١٣٨.
[٢٢] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٩.
[٢٣] الطبري: تاريخ، سبق ذكره، ج٣، ص٨٢.
[٢٤] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١١٠.
[٢٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٦.
[٢٦] ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٢٤.

حصار الطائف

والله لَنحن أذل من العبيد.

عيينة بن حصن

الطائف، مدينة الثقفيِّين الكبرى التي بلغت شوطًا عظيمًا في التمدين، كانت المدينة التي لا تقل شأنًا عن مكة، ونافست يثرب طويلًا على صدارة الموقع الثاني بعد مكة، وربما سعت مثلما سعت يثرب لتحوز المركز الأول، مُستمِدة ذلك من قوة أدَّت إليها عوامل عدة؛ فهي من أعدل مناطق الجزيرة مناخًا وأكثرها خصوبة وزرعًا، إضافة إلى موقعها الذي يقف على طريق التجارة بين مكة واليمن، طريق رحلة الشتاء؛ وهو الأمر الذي جعلها في حسابات الرسول ﷺ عندما كان بمكة يبحث عن مدينة تُحقِّق مشروعه العظيم، تقع في الموقع الأول، فزارها داعيًا لكنهم ردوه ردًّا سفيهًا، فيمَّم وجهه بعد ذلك نحو الأخوال في يثرب، بعد أن فقد الأمل في فهم سراة ثقيف وأشرافها لأبعاد ذلك المشروع الهائل.

وعندما نتذكر عدد رجالها المُقاتِلين، يجب أن نُوقِن من وجود صراع على النفوذ بينها وبين قريش، التي كانت تتطلع إلى مد نفوذها إلى الطائف لحل مشكلة وضعها في المعادلة التجارية، لوجودها على الخط التجاري لرحلة الشتاء؛ وقد تمكن بعض أثرياء قريش بالفعل من شراء بعض الأماكن الخصبة بين الثقفيين، وتتابعوا يستحوذون على أراضيها الخصبة، وهو ما نجده واضحًا عند ابن حبيب.[١]

---

[١] ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، الهند، ١٩٦٤، ص٢٨٠، ٢٨١.

وطبيعي أن تُحاوِل ثقيف الاستقلال الاقتصادي؛ وهو ما أدَّى إلى تنافسٍ جعل أهل الطائف يستجلبون قوافل التجارة إليهم، بجعل مدينتهم ذات المناخ المتميز، مركزًا للتجارة والتجار، ووصل الأمر إلى حد وقوع الحرب بين الفريقَين فيما يعرف بحرب الفجار، وغني عن الذكر أنها سُمِّيت كذلك لأنها نشبت إبان الأشهر الحرم، والتي أرادت ثقيف ضرب حرمتها لضرب التجارة القرشية.[٢]

ويبدو أن قريشًا قد اضطرت إلى لون من المصالحة باقتسام المنافع المشتركة، بعدما جد ظرف جديد لصالح الطائف، تمثَّل في استيلاء الفرس على اليمن؛ وهو ما أدَّى بإرسال كسرى وملوك الحيرة قوافلهم التجارية إلى اليمن عبر الطائف دون المرور على مكة. ويمكن للعين الفاحصة أن تتلمس أسباب حرب الفجار، حيث شجعت قريش عن عمد حليفًا قبليًّا لها ليُهاجِم قافلة للنعمان ملك الحيرة، ويُغلِق طريق الحيرة إلى اليمن عبر الطائف.

ومن جانبها وجدت الطائف نفسها مضطرة إلى السلام مع قريش، بالنظر إلى ظرفها الداخلي، حيث نشب الصراع بين عشائرها، وهو المعلوم بشأن بني عوف مقابل بني مالك، بينما اتجهت قريش إلى مد نفوذها الاقتصادي داخل الطائف بشراء أراضيها، وإقراض رؤسائها ما يريدون من أموال؛ لينتهي القرشيون إلى السيطرة على السوق الداخلية للطائف، بل وحوَّلوا مدينة الطائف إلى سوق الحجاز المركزي. وبالمقابل كانت ثقيف بحاجة لتصريف منتجاتها الزراعية في مكة، فاعترفت بالأمر الواقع، وبصدارة مكة وبالتحالف مع قريش لعدم إهدار المصالح، فكانا يقتسمان النفوذ تقريبًا عند ظهور الإسلام؛ حيث سيطرت قريش على طريق الإيلاف الشامي، وتركت للطائف طريق الشتاء، وانتقل الصراع إلى تحالف واختلاط ومُصاهَرات ومشاركة في رءوس الأموال.

وعندما نتذكر أن ثقيف هي التي كانت دليل جيش أبرهة الحبشي نحو مكة عام الفيل،[٣] يمكن أن نفهم فورًا موقف ثقيف المُتصلِّب عندما ذهبها محمد داعيًا، ثم موقفها المُتصلِّب من النبي ومن قريش بعد سقوط مكة واستسلام سادتها للنبي، حيث اكتشفت أن مصيرها الخضوع التام لسيادة قريش إن غزاها النبي؛ ومن ثَم قامت تُحالِف هوازن

---

[٢] نفسه: ص٢٠٩.

[٣] ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ص٢، ١٩٥٥، ج١، ص٤٧.

لتكوين جبهة تُحاوِل إنقاذ مصالحها من ذلك التهديد الهائل، وخاضت حربها اليائسة ضد جيش المسلمين، بينما كان النبي على الطرف الآخر يسعى إلى هذه المعركة سعيًا، حيث كان قراره بحفظ مكة قريته وأهله من السبي؛ ومن ثَم لم يغنم جنده شيئًا يُعوِّضهم عن فتحها، حيث لم يغنموا شيئًا على الإطلاق؛[٤] ومن ثَم كان توجيه المسلمين نحو هوازن وثقيف اللتَين كانتا قد تهيَّأتا بدورهما للمعركة الانتحارية.[٥]

وبالهزيمة، تراجعت ثقيف إلى الطائف، ومعها من انضم إليها من هوازن، حيث حصونهم القوية وميرتهم وزادهم الكثير،[٦] وهنا أمر النبي بالمسير فورًا إلى الطائف ليضرب الحصار على حصونها.

ولما كانت ثقيف قد ترفَّلت في النعيم، ولا تقلُّ ثرواتها عن ثروات المكيِّين، واقتنى سادتها الثمين من مُقتنَيات الذهب والفضة، وحلَّوا نساءهم بالجوهر على أنواعه؛ فقد انسلَّت خولة بنت حكيم بن أمية زوجة عثمان لتقترب من النبي وهم يُوجَّهون نحو الطائف تقول له:

> يا رسول الله، أعطِني إن فتح الله عليكم الطائف، حُلى بادية بنت غيلان، أو حُلى الفارعة بنت عقيل.[٧]

هذا بينما كان المخنث «هيت» مولى فاختة بنت عمرو خالة النبي، يقول لعبد الله بن أمية:

> إن فتح الله عليكم الطائف، فسَل رسول الله أن ينفلك بادية بنت غيلان؛ فإنها هيفاء شموع نجلاء، إن تكلَّمت تغنَّت، وإن قامت تثنَّت، وإن مشت ارتجت، وإن قعدت تبنَّت، تُقبِل بأربع وتُدبِر بثمانٍ، بثغر كالأقحوان، بين رجلَيها كالقعب المُكفأ.[٨]

---

[٤] الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص١٦٤.

[٥] اليعقوبي: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٤، ١٩٧٤، ج٢، ص٥٣.

[٦] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٢٦٦.

[٧] ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٥٠.

[٨] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص٢٦٨.

وكان «هيت» يدخل على نساء النبي ويذهب إلى بيوته، والرسول لا يظن أن له شيئًا مما للرجال، وأنه لا يفطن إلى شيء من أمر النساء مما يفطن إليه الرجال، ولا يرى أن له في ذلك إربًا. فلما سمعه يقول ما قال لعبد الله بن أمية قال: «لا أرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع.» ثم قال لنسائه: «لا يدخلن عليكن.» فحُجِب عن بيت الرسول.[9] لكنه في رواية السهيلي قال لهيت: «قاتلك الله، لقد أمعنت النظر.» ثم قال: «لا يدخلن هؤلاء عليكن.» ثم نفاه إلى روضة خاخ، فقيل إنه يموت جوعًا، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس.[10]

وصيغة الجمع في قول رسول الله «لا يدخلن هؤلاء عليكن» تُشير إلى آخرين مُخنَّثين عاشوا في مدينة الرسول مثلما كان حال «هيت» وهو ما يُفيدنا به السهيلي في شرحه لأمر مُخنَّثي المدينة حيث يقول إن المُخنَّثين المعلومين كانوا أربعة يحملون أسماءً تليق بهم؛ فهم «هيت» و«هرم» و«ماتع» و«أنَّ»، ووصفهم بقوله: «كان تأنيثهم لينًا في القول، وخضابًا في الأيدي والأرجل كخضاب النساء، ولعبًا كلعبهن، وربما لعب بعضهم بالكرج، وفي مراسيل أبي داود أن عمر رضي الله عنه رأي لاعبًا يلعب بالكرج، فقال: لولا أني رأيت هذا يُلعَب به على عهد النبي ﷺ لنفيته من المدينة.»[11]

وبالوصول إلى الطائف أمر النبي بقصر مالك بن عوف المُتطرِّف فأُحرِق،[12] ويقول البيهقي إنه نصب عليهم المنجنيق أربعين يومًا، فكان أول من رُمِي بالمنجنيق والدبابات والضبور في الإسلام، لكن ثقيف المُستميتة تمكنت من صد دبابات المسلمين، بإلقاء الحديد المُحمى بالنار عليها وعلى من فيها من فوق الأسوار، وهنا أمر النبي بقطع كرومهم الهائلة الموجودة خارج حصونهم لتدميرهم معنويًّا،[13] فنادوه من على الأسوار: «لا تُفسِدوا الأموال فإنها لنا أو لكم.»[14] فرد عليهم بنداء آخر يُسمِع عبيدهم؛ أن من

---

[9] نفسه: ص٢٦١.

[10] السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٦٣.

[11] نفسه: ص١٦٤.

[12] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص١٥٧.

[13] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٩.

[14] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٤٦، ٣٤٧.

خرج إليه من عبيد ثقيف فهو حر، فخرج إليه هربًا بعضهم، على رأسهم من أصبح بعد ذلك الصحابي الجليل أبا بكرة.[١٥]

ولما طال الحصار جاء الأحمق الذي لم يعد مُطاعًا «عيينة بن حصن» زعيم غطفان الفزارية إلى النبي، والمفترض أنه قد أصبح مسلمًا، فطلب منه الإذن ليذهب إلى ثقيف في حصونها، يدعوهم إلى الاستسلام والإسلام، لكنه عندما وصلهم أفصح عن لسان حال الزعماء الذين خضعوا راغمين، فقال لهم:

> بأبي أنتم، تمسَّكوا بمكانكم، والله لَنحن أذلُّ من العبيد، وأُقسِم بالله لئن حدث به حدث لتملكُن العرب عزةً ومنعة، فتمسَّكوا بحصونكم، وإياكم أن تُعطوا بأيديكم، ولا يتكاثرن عليكم قطع الشجر.[١٦]

وطال الحصار، وعلم النبي أن الأمر سيطول أكثر، وأن ثقيف تمتنع في حصونها ولديها من الزاد وفرة، فاستشار نوفل بن معاوية الدؤلي، فقال له: يا رسول الله، ثعلب في جحر؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.»[١٧] فاستدعى النبي أبا بكر وقال له: «يا أبا بكر، إني رأيت أني أُهدِيت لي قعبة مملوءة زبدًا، فنقرها ديك، فهراق ما فيها.» فقال أبو بكر: «ما أظن أنك تُدرِك منهم يومك هذا ما تريد.» فقال رسول الله: «وأنا أرى ذلك.»[١٨] ومن ثَم أذَّن في الناس برفع الحصار والعودة إلى الجعرانة، حيث أسرى وسبايا وغنائم حنين.

وعندما سمع الزعيم الغطفاني عيينة بن حصن الفزاري نداء رفع الحصار عن ثقيف، هتف لفوره مُعبِّرًا عن عظيم فرحه: «أجل والله مجدة كرامًا.» فقال له رجل من المسلمين: «قاتلك الله يا عيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟» فقال: «والله إني ما جئت لأُقاتِل ثقيفًا معكم، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها.»[١٩]

---

[١٥] نفسه: ص٣٤٧.

[١٦] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص١٦٣.

[١٧] ابن الأثير: الكامل، سبق ذكره، ج٢، ص٢٦٧.

[١٨] ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٥٠.

[١٩] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٥٠.

أما ابن كثير فقد التمس تفسيرًا تبريريًّا لرفع الحصار عن الطائف وذلك في قوله الباحث عن الحكمة وراء الحدث:

> قلت: وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يُؤخَّر الفتح عامئذٍ، لئلا يُستأصَلوا قتلًا؛ لأنه قد تقدَّم أنه عليه السلام لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى أن يُؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل، وذلك بعد موت عمه أبي طالب، فردوا عليه قوله، وكذَّبوه، فرجع مهمومًا، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة فيها جبريل، فناداه ملك الجبال، فقال يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام، وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، فإن شئت أن أُطبِق عليهم الأخشبَين؟ فقال رسول الله ﷺ بل أستأني بهم لعل الله أن يُخرِج من أصلابهم من يعبده وحده لا يُشرِك به شيئًا. فناسب قول «بل أستأني بهم» ألا يُفتَح حصنهم لئلا يُقتَلوا عن آخرهم، وأن يُؤخَّر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل.[٢٠]

وعاد النبي برجاله إلى الجعرانة، لتأتيه هناك امرأة من سبي هوازن، تزعم أنها أخته من الرضاعة، وأن اسمها الشيماء، فيسألها عن مُؤيِّدات صدقها، فتكشف له بجسدها عن عضة كان قد عضها لها، فيتعرف الرسول ﷺ على العلامة، فيبسط لها رداءه ويُجلِسها عليه، ويُخيِّرها بين البقاء عنده مُحبَّبة مُكرَّمة، أو أن يُعيدها إلى قومها مُمتَّعة، فتقول له: «بل تُمتِّعني وتردني إلى قومي ... فأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبُد وجارية، ونَعمًا وشاءً، وسمَّاها حذافة، وقال: الشيماء لقب.»[٢١]

وتعلم هوازن بعودة النبي، وتُدرِك أن الإسلام هو الوقاء الأمثل، فتختار له تسعة ممن بقي من أشرافهم، ليُعلِنوا أمامه إسلام هوازن ويُبايِعوه على السمع والطاعة، ثم يُفاتِحوه في مُصابهم قائلين: «يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهي مخازي الأقوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله.» وكان رحيمًا جوادًا كريمًا، فقال: «سأطلب لكم ذلك.» أما كيف؟ فقد سألهم رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: «يا رسول الله، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا،

---

[٢٠] نفسه: ص٣٥١.

[٢١] ابن سيد الناس: عيون، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٢.

بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا.» فقال: «إذا أنا صليت بالناس الظهر، قوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا. فسأُعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.»

وفعل الهوازنيون بتوجيهات الرسول ﷺ، ووافق جميع المسلمين اللهم إلا عيينة بن حصن مع غطفان وفزارة، والأقرع بن حابس التميمي ومعه تميم، وعباس بن مرداس زعيم سليم، إلا أنهم وافقوا جميعًا في نهاية الأمر،[٢٢] وعادت هوازن برجالها ونسائها وأطفالها مُؤمِنة مُسلِمة بعد كفران، لكن بعد أن ركبت رأسها فخسرت أموالها وشرف الكثير من نسائها.

ورغم نصر هوازن فإن الرسول القائد ﷺ ما كان ليغفل عن نقطة ضعف قد تكون قاتلة في صفوف رجاله، حيث بينهم من دخل تحت سيادة الدولة وسيدها، من سادة ورءوس وأشراف كبار، كان أحدهم لا يقبل برأس يعلو رأسه، فدخلوا على مضض مُرغَمين، يتحيَّنون فرص النكوص، وعبَّروا في أكثر من موقف عن مكنون صدورهم. أما الأخطر فهو ما يمكن أن يُسبِّبوه للدولة من مشاكل، ربما أدت لنكسات وهزائم، وهو الأمر الذي يمكن استنتاجه ببعض الظن؛ فمن المُحتمَل أن يكون ما حدث في المشهد الأول لوقعة حنين ترتيبًا مقصودًا من الطلقاء، من قريش ومن القبائل الكبرى كفزارة وسليم وتميم، فيهرب فرسانهم أمام هوازن؛ لإيقاع الارتباك بين جنود المسلمين وصفوفه، الذي يمكن لأفراده أن يهربوا بدورهم بغريزة القطيع. وهو أمر مُحتمَل تمامًا إذا أخذنا بالاعتبار حجم الجيش الإسلامي وعدد أفراد هوازن المقاتلين، وهو ما يزداد تأكيدًا إذا تذكرنا أن الكرَّة عادت على هوازن فقط بمئة أنصاري من بين الاثنَي عشر ألفًا، أخوال الرسول وناصِروه في كل موقع بخئولة حقة وإيمان صادق، ولولا صمود الأنصار في الوقعة لكانت النتائج مختلفة تمامًا، ولربما تغيَّر وجه التاريخ برمته. كان وعى القائد النفَّاذ يستدعى حلًّا سريعًا لرتق تلك الثغرات في الولاء للدولة، فقام يُوزِّع الأعطيات الهائلة من مغانم الهوازنيين الذين أسلموا على كبار الرءوس والهامات الصلبة الثرية أصلًا؛ ليفتح عيونهم على ما ينتظرهم وإشعارهم أن الإسلام لا ينتقص منهم ومن

---

[٢٢] البيهقي: دلائل، سبق ذكره. ج٥، ص١٩٢. انظر أيضًا ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٥٢.

مكانتهم، بل يزيدهم ثراءً على ثراء، ويفتح أمامهم أبواب الغنى الهائل على مصراعَيه، إزاء الطموحات المُتوثِّبة في الوعد النبوي بكنوز كسرى وقيصر؛ فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، فلم يقنع السيد القرشي وطلب لابنه يزيد، فأعطاه مثلما أعطى أباه، فطلب لابنه معاوية فأعطاه مثلهما. كما أعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، فسأله مثلها فأعطاه، وأعطى الحارث بن كلدة مائة من الإبل، كذلك لأسيد بن جارية والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدي وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ومالك بن عوف، وكلهم سادة قومهم وأشرافهم وأثرياؤهم، لكل منهم مائة من الإبل. وأعطى لسيد من السادة هو عباس بن مرداس زعيم سليم أربعين من الإبل، فسخط سخطًا شديدًا، وقام يُعبِّر عن واقع ما يحدث من سيادة وتسييد بقوله:

فأصبح نهبي ونهب العبيـ ـد بين عيينة والأقرعِ
وما كنتُ دون امرئ منهما ومن تضعِ اليوم لا يُرفَعِ

فقال النبي: اذهبوا فاقطعوا عني لسانه. فظلوا يُعطونه حتى رضي، ثم وزَّع الإبل خمسين خمسين على من هم أدنى في السيادة درجة،[٢٣] كل ذلك والأنصار تقف مشدوهة تتطلع.

ولا شك أنها تذكرت وتذاكرت مواقفها من البدء حتى المُنتهى، ودماء بعضهم لم تجف بعد على ثرى أوطاس بحنين، ثم تتذكر خروجها مع النبي في غزواته وطلوعها على العرب في سرايا، وقتل من يأمر الرسول بقتله من بينهم أو من بين أحلافهم، ثم لا شك يتذكرون يوم أحد، عندما فر الناس من حوله بخاصة المهاجرون، وكيف صمدوا للمشركين يصدونهم عن رسول الله، وكيف ضن النبي بطلحة عندما كان يهرب إلى مُعتلى الصخرة، ويقول ألا أحد لهؤلاء. فيكر أنصاري عليهم يمنعهم عن النبي فيموت شهيدًا، ثم يصعد النبي ومعه طلحة، فيقول النبي ألا أحد لهؤلاء. فيقول طلحة أنا لهم يا رسول الله. فيقول كما أنت يا طلحة. فينزل لهم رجل من الأنصار حتى يموت شهيدًا.

[٢٣] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١١٠. انظر أيضًا ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٥٥.

لا شك أيضًا يذكر الأنصار بيعة العقبة وعقدها، ويوم الهجرة عندما أتاهم النبي مهيضًا لاجئًا مع رجاله، فأعطوهم دورهم وشاركوهم قوتهم بل ونساءهم.

ولا شك أيضًا أن الحاضر قائم بكل تفاصيله، وأنه لولاهم عندما عطفوا عطفتهم على هوازن، ما بقي من الأمر شيء. وهنا تعلوا الأصوات، ويكثر اللغط، ويقول قائلهم:

نحن أصحاب كل مَواطن وكل شدة ثم آثر قومًا علينا وقسم فيهم قسمًا لم يقسمه لنا، وما نراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانيهم.

ويقول آخر:

يغفر الله لرسول الله، يُعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

ويزيد ثالث:

أما من قاتله فيُعطيه، وأما من لا يُقاتِله فلا يُعطيه.

هذا بينما بدأ الاحتجاج، وأخذ الناس يُكثِرون في الكلام، حتى قيل للرسول ما لا يصح من كلمات شديدة الاحتجاج، فهذا أبو موسى يروي: «كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى رسولَ الله أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟

فقال له: أبشر.

فقال الأعرابي: لقد أكثرت عليَّ من أبشر؟

بينما يقف رجل آخر على رأسه ويقول له: يا محمد، اعدل.

ليرد النبي: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟

فيُجاوِبه ذو الخويصرة من بني تميم غاضبًا: لقد رأيت يا محمد ما صنعت.

فيسأله: وكيف رأيت؟

فيرد بصراحة العربي: لم أرَك عدلت.

فهمَّ به عمر يقول: «يا رسول الله، ألا أقوم إليه فأضرب عنقه؟» لكن ليرد عليه النبي: ﷺ «دعه؛ إن له أصحابًا.»

بينما كان آخر يُردِّد بين القوم:

إن هذه القسمة ما عُدِل فيها،

وما أُريدَ بها وجه الله.

فيذهب رجل بالكلام إلى النبي، فيتغير وجهه حتى يصير شديد الحمرة، ليهتف بالناس: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟[٢٤]

وينتحي الأنصار جانبًا وهم يرون أوباش القبائل يُحيطون بالنبي في جمهرة عظيمة، تُطالِبه بوقف الأعطيات، يقولون له: يا رسول الله، اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم. والنبي يتراجع بين الأصوات الغاضبة، حتى يُلجئوه إلى شجرة يُعلِّق بها رداءه ويتراجع فتخلع الشجرة عنه رداءه فيصيح بهم: أيها الناس، ردوا على ردائي. أيها الناس، والله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم.[٢٥] ثم يأمر زيد بن ثابت بإحصاء ما تبقى ثم توزيعها على الناس بالعدل، فكانت سهامهم لكن رجل أربعة من الإبل وأربعون من الشياه.[٢٦] هذا بينما وقف حسان بن ثابت أمام الأنصار يُنشِد عتابه على رسول الله ﷺ قائلًا برقة مشاعر الخئولة:

زادت همومٌ فماء العين مُنحدِرُ	سحًّا إذا حفلته عَبرة دررُ
وأتِ الرسول فقل يا خير مؤتمن	للمؤمنين إذا ما عُدِّد البشرُ
علامَ تُدعى سليم وهي نازحة	قُدَّام قوم همُ آوَوا وهم نصروا
سمَّاهم الله أنصارًا بنصرهمُ	دينَ الهدى وعوان الحرب تستعرُ
وسارَعوا في سبيل الله واعترفوا	للنائبات وما خاموا وما ضجروا
والناس ألبٌ علينا منك ليس لنا	إلا السيوف وأطراف القنا وزرُ
فما ونينا وما خمنا وما خبروا	منا عثارًا وكل الناس قد عثروا[٢٧]

وهنا يُنادي المُنادي بالأنصار وحدهم ليجتمعوا في قبة رسول الله ﷺ ليقف فيهم خطيبا يقول:

> يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم؟ وجِدَة وجدتموهما على أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟

---

[٢٤] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص١٧٣، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧. انظر أيضًا الواقدي: المغازي، سبق ذكره، ج٣، ص٩٤٨.

[٢٥] ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص٤٥٩.

[٢٦] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١١٠.

[٢٧] ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٢.

قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل.
قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدَقتم وصُدِّقتم؛ أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقناك، وطريدًا فأويناك، وعائلًا فآسيناك. أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم فيَّ لعاعة من الدنيا، تألَّفت بها قومًا ليُسلِموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟
ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟
فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمةً وحظًّا.[٢٨] ثم يختتم الوحي أحداث حنين بقوله الصادق:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٥–٢٧).

أحداث ومعجزات

مع الكثرة العددية لجيش المسلمين إزاء هوازن وثقيف، عبَّر لسان النبي ﷺ عن واقع الحال عندما قال: «لن نغلب اليوم من قلة»، وصادق عليه قول الوحي ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾. وهو الإعجاب الذي ما كان ممكنًا أن يحدث لولا مقارنة المسلمين عددهم بعدد عدوهم، وهو ما يُجافي تمام المجافاة روايات جاءت بكتبنا الإخبارية تُؤكِّد أن عدد مُقاتِلي هوازن بلغ عشرين ألف مُقاتِل، وهو الأمر الذي يتناقض تناقضًا صارخًا مع عودة الكرة عليهم بمئة مقاتل أنصاري، ثم انكسارهم بعد ذلك أمام جيش المسلمين. ويبدو لنا أن قصة العشرين ألف هوازني كانت لونًا من المبالغة، لجأت إليه كتبنا الإخبارية في محاولة

[٢٨] نفسه: ص١٥٧.

لتبرير الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في بداية المعركة، ناهيك عن كوننا نعلم أن أقصى تعبئة تمكنت القبائل من حشدها في الخندق لم تتجاوز العشرة آلاف مقاتل. ولا ننسى بالطبع أن جيش دولة يثرب الإسلامية الذي ضم مُعظَم مُحارِبي القبائل الكبرى بما فيها قريش، لم يبلغ — رغم عمر الدعوة الطويل حتى هوازن — سوى اثنَي عشر ألف مقاتل، وإن كان يمكن بحسبة بسيطة تقدير عدد رجال هوازن قياسًا على عدد أسراهم من نساء وأطفال وبعض القلة من الرجال، حيث بلغ عددهم ستة آلاف، وبفرض هرب بعض النساء والأطفال دون الألفَين، فإن عدد الرجال المقاتلين لا يمكن أن يتجاوز الأربعة أو الخمسة آلاف بأي حال من الأحوال.

ولم يكن ثَمة حديث عن تدخُّل الملأ السماوي إزاء تلك الكثرة المزعومة في جند هوازن، ولم يبدأ حديث الملائكة إلا بعد انهزام المسلمين الذين ولوا الأدبار، ثم عادوا بنصرة الأنصار أخوال رسول الله ﷺ إلى القتال حتى حقَّقوا نصرهم العظيم، فقط عند هذه الفجوة يبدأ حديث الملأ السماوي وروايات المعجزات المُلغِزة.

ومع ما جاءت به الآيات الكريمة ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ فتح الباب لحديث المعجزات، ورغم القرار الواضح في الآيات عن رب العالمين الصادق صدق كماله بأنهم لم يروها، فقد قرر البعض التطوع بالشهادة أنهم رأوها، لتأكيد وجود الملأ الأعلى منذ بدء المعركة وقبل هزيمة المسلمين، ومن تلك الشهادات رواية تقول:

> إن مالك بن عوف النصري بعث عيونًا من رجاله فأتوه وقد تفرَّقت أوصالهم، فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضًا على خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.[٢٩]

ثم نموذج آخر مُجهَّل المصدر بدوره، لا نعرف أصحابه في رواية تقول عند هزيمة المسلمين وثبات الرسول وآل بيته المطلبي والطالبي:

> عمن شهد حنينًا كافرًا قال: لما التقينا نحن ورسول الله ﷺ، لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهشُّ سيوفنا بين يدَي رسول الله ﷺ، حتى إذا غشيناه فإذا

---

[٢٩] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٢.

بيننا وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا شاهت الوجوه فارجعوا. فهُزِمنا من ذلك الكلام.[٣٠]

ومثيل تلك المحاولة لقتل رسول الله يأتي الحديث منسوبًا إلى شيبة بن عثمان العبدري، الذي خرج من قريش مع رسول الله إلى هوازن يريد أن يغتاله في زحمة القتال، فيقول ابن كثير راويًا على لسان شيبة:

لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عُرِّي، ذكرت أبي وعمي وقتل حمزة إياهما، فقلت اليوم أُدرِك ثأري من رسول الله ﷺ ... ثم جئته من خلفه فلم يبقَ إلا أن أُساوِره سَورة بالسيف، إذ رُفِع شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق، فخفت أن يمحشني.[٣١]

هذا بينما يروي البلاذري الرواية ذاتها، لكن من منطق آخر، حيث يقول:

وكان شيبة بن عثمان العبدري شديدًا على المسلمين، وكان ممن أُومِن، فسار إلى هوازن طمعًا في أن يُصيب من النبي ﷺ، قال: فدنوت منه، فإذا أهله محيطون به، ورآني فقال يا شيب إليَّ. فدنوت منه فمسح على صدري ودعا لي فأذهب الله كل غل فيه، وملأه إيمانًا وصار أحب الناس إليَّ.[٣٢]

أما ذلك الراوي الذي كان طوال الوقت مُغرَمًا بالنمل، يرى فيه صورة الملائكة، فيروي لنا على لسان جبير بن مطعم قوله:

إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذا نظرت مثل البُجاد الأسود يهوي من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور وقد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة.[٣٣]

---

[٣٠] نفسه: ص٣٣١.

[٣١] الموضع نفسه.

[٣٢] البلاذري: أنساب، سبق ذكره، ج١، ص٣٦٦.

[٣٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٢.

أما السهيلي فشرح لنا اختيار النمل تحديدًا لتتلبسه الملائكة فيقول:

> ورآهم جبير على صورة النمل المبثوث، إشعارًا بكثرة عددها؛ إذ النمل لا يُستطاع عدها، مع أن النملة يُضرَب بها المثل في القوة، فيقال: أقوى من نملة. أنها تحمل ما هو أكبر من جِرمها بأضعاف، وقد قال رجل لبعض الملوك: قوتك قوة نملة. فأنكر عليه. فقال: ليس في الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة.[٣٤]

أما ابن سعد فيُخالِف الآيات وعلم الله الصادق، فيُؤكِّد رؤية الملائكة، وأن سيماءهم يوم حنين كانت عمائم حُمرًا قد أرخوها بين أكتافهم.[٣٥]
ويعود هنا حديث الحصيات المُبارَكات مرة أخرى في رواية يُورِدها ابن كثير تقول:

> فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمُتطاوِل عليها إلى قتالهم، فقال: الآن حمي الوطيس. ثم أخذ حصيات فرمى بهن في وجوه الكفار ثم قال: انهزَموا وربِّ محمد ... ما بقي أحد إلا امتلأت عيناه وفمه بالتراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الحديد، فهزمهم الله عز وجل، ثم أقبل على المشركين فرمى بها في وجوههم وقال: ارجعوا، شاهت الوجوه. فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو قذى في عينَيه.[٣٦]

وبين حديث المعجزات يأتي حديث آخر عن أحداث وقعت بعد هزيمة هوازن، وأسر رجالها وسبي نسائها، وفيهن أخوات النبي وعماته وخالاته وأمهاته من الرضاع، وذلك قبل إعادتهن إلى ذويهن بعد صلح هوازن وإسلامها، فيروي أبو سعيد الخدري قوله:

> أصبنا نساءً من سبي أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت الآية هذه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا

---

[٣٤] السهيلي: الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٤٢.
[٣٥] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٩.
[٣٦] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٠، ٣٣١.

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾، فاستحللنا بها فروجهن ... وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأَمة المشركة بهذا الحدث في سبايا أوطاس.[٣٧]

وبالفعل استحر إتيان نساء هوازن حرورًا، ثم أُعيدت النساء إلى أهلهن بعد أن أسلمت هوازن بنسائها، ليروي البيهقي واقعة طريفة تحكي:

إن عثمان كان قد أصاب جارية، خُطِبت إلى ابن عم لها كان زوجها، وكان ساقطًا لا خير فيه، فلما رُدَّت السبايا، ساقها فقدم بها المدينة في زمان عمر أو عثمان، فلقيها عثمان، فأعطاها شيئًا بما كان أصاب منها، فلما رأى عثمان زوجها قال لها: ويحك، هذا كان أحب إليك مني؟ قالت: نعم، زوجي وابن عمي.[٣٨]

حكاية تُحاوِل تبخيس شأن رجال هوازن «ساقطًا لا خير فيه»، الذين كانوا أزواجًا لنساء أتاهم المسلمون في غزوة حنين، ونكحوهن بقوانين السبي العربية التليدة.

[٣٧] نفسه: ص٣٣٨.

[٣٨] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص١٩٨.

الباب الرابع

قيام دولة العرب الموحدة

البراءة

إنما محمد أُذُن من حدَّثه شيئًا صدَّقه.

نبتل بن الحارث

الآن وقد تم إخضاع خيبر تمامًا لسلطان الدولة وتحجيمها إلى الأبد، وبعد فتح أم القرى وخضوع سادة العرب أهل الله القرشيين لدولة يثرب، وبعدما أصبحت هوازن مثلًا، فسُلِبت أموالها، ونُكِحت نساؤها، وأسلمت جميعًا راغمة لسلطان الدولة، وبعد أن كمنت ثقيف كثعلب في حجر، وبعد ما خرج عليها سيدها مالك بعدما تألَّفه الرسول بالعطايا، فأحكم عليها الحصار، يقطع عليها الطريق ويستولي على قوافلها، وبعدما تضخَّم حجم الجيش الإسلامي وضم أشاوس القبائل الحجازية جميعًا؛ عادت كنوز قيصر تُنادي العرب، ففي صبيحة يوم من أيام رجب من سنة تسع، أعلن مُنادي النبي في الناس التجهز لغزو الروم.

ويحكي راوي السيرة ابن هشام فيقول:

> ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ... وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يُحِبون المُقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنَّى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيَّنها للناس؛ لبعد الشُّقة وشدة الزمان

وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.[1]

ورغم كل تلك الانتصارات الساحقة، ورغم تفكيك الروابط القديمة بين القبائل المُتحالِفة وإدخالها جميعًا في حلف الدولة، وما أدَّى إليه ذلك من إضعاف شديد لصوت المُعارَضة التي أُطلِق عليه اصطلاح «النفاق»، بعدما تقلَّمت أظافرهم تمامًا؛ تعود الأخبار تُخبرنا بأن النفاق قد عاد إلى الظهور عندما دعا النبي إلى غزو الروم، فقام المنافقون يُثبِّطون هِمَم الناس، ويجتمعون في بيت سويلم عند جاسوم يقولون بعضهم لبعض: «لا تنفروا في الحر.»

ويقول ابن هشام إن هذا التباطؤ والتراجع عن الخروج إلى الروم كان «شكًّا في الحق وإرجافًا برسول الله ﷺ»، ولكن لأن الظروف قد تغيَّرت، ولم يعد بإمكان أحد أن يتطاول مرة أخرى على الرسول، فقد أخذوا بالاجتماع سرًّا لبحث شئونهم، فكان أن أرسل النبي ﷺ إليهم طلحة بن عبد الله في نفر من أصحابه، فحرَّق عليهم البيت وهم فيه،[2] ثم جاء الوحي يقول: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة: ٨١–٨٢). أما النبي فقد كان يُحدِّث أصحابه بينما البيت يُحرَّق على المجتمعين فيه: «في أصحابي اثنا عشر مُنافِقًا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.»[3]

وأحيانًا ما كان المسلمون يأتون النبي يستأذنونه في عدم الخروج إلى وقعة، لظروف خاصة ببعضهم فيأذن لهم، فلما جاءه بعضهم هذه المرة، تدخَّل الله بنفسه ولم يقبل عذرهم بل وجَّه لهم اتهامات مُباشِرة بالكذب، ثم نصح رسوله بألا يعذرهم ولا يقبلهم في جيشه حتى لا يُؤثِّروا في جنده الذين يميلون إليهم ويستمعون لرأيهم، فقال تعالى عز من قائل:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنْكَ

[1] ابن هشام: في الروض الأنف للسهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص١٧٣.

[2] نفسه: ص١٧٤.

[3] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص٢٦١.

لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ٤٢–٤٧).

وهكذا، وبينما يُنفِق أصحاب اليقين أموالهم لتأمين مِيرة المجاهدين لذلك الطريق الطويل، مثل عثمان بن عفان الذي تبرَّع بألف دينار،[٤] كان هناك آخرون يشكُّون في جدوى تلك الغزوة، ويشكُّون في نصر العرب على جيوش قيصر، فشكُّوا في الحق بتعبير ابن هشام، ويشرح ابن إسحاق الآيات السوالف فيقول:

> وكان الذين استأذنوه من ذوي الشرف، فيما بلغني؛ منهم عبد الله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافًا في قومهم، فثبَّطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيُفسِدوا عليه جنده، وكان في جنده أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم.[٥]

أما الوحي فقد استمر شارحًا لموقف هؤلاء فاضحًا لهم، حيث أبان بصدق الله تعالى أنهم ما تراجعوا إلا نقمة لأنهم لم يحصلوا على أموال وعطايا كالتي أعطاها النبي للمؤلفة قلوبهم، حيث يقول:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨).

وقد وضح موقف هؤلاء المنافقين، فيما ورد عنهم من أخبار تُشير إلى جُبنهم عن ملاقاة الروم بني الأصفر وتخوُّفهم ذلك، عندما رأوا النبي يقود جنده مُيمِّمًا شطر الروم فوقفوا يقولون لبعضهم: «أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لَكأنا بكم غدًا مُقرَّنين في الحبال إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.» فلما علموا أن قالتهم قد

---

[٤] ابن هشام: في الروض الأنف للسهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص١٧٤.

[٥] نفسه: ص١٨٩، ١٩٠.

بلغت النبي هرع وديعة بن ثابت بهم يُمسِك بناقة الرسول يعتذر قائلًا: «يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب.» فأنزل الله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.[٦] وهو الأمر الذي يُشير إلى تضاؤل شأن المُعارَضة إلى حد الرهبة والرعب والاعتذار بما لا يليق برجال الحرب وأسنان الشرف.

وخرجت جحافل المسلمين في ثلاثين ألف مُقاتِل وعشرة آلاف فرس حتى وصلت مشارف بادية الشام لتُحاصِر تبوك، فيخرج يوحنا بن رؤبة المنوب على أيلة من القيصر ليُصالِح الرسول على دفع الجزية، ويتبعه أهل جرباء وأذرح، ويكتب لهم النبي كتابًا بذلك، ثم أرسل خالد بن الوليد إلى دومة فأتاه بأكيدر الكندي فصالحه بدوره على الجزية، واكتفى من سفره الشاق بذلك وأخذ قراره بالعودة إلى يثرب، حيث تأكَّد أن هرقل عظيم الروم قد جمع جموعه في حمص.[٧]

ونعلم مع ذلك أنه مع ترك المنافقين المعلومين بيثرب، فقد وجد بين من خرجوا للجهاد منافقين جددًا، حيث يروي ابن إسحاق عن محمود بن لبيد أنه أصابهم عطش في الحجر، فدعا النبي ربه فأرسل سحابة أمطرتهم ماءً، وهنا يقول محمود بن لبيد:

> لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول ويحك؛ هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة.[٨]

لكن ليجد المنافقون في عودة النبي دون لقاء الروم، أو حتى تجاوز تبوك نحو الشمال، مجالًا للخوض. وهنا يُعلِمنا البيهقي السبب وراء خروج النبي إلى الروم، وأنها كانت مؤامرة يهودية لا يشير إلى أطرافها ولا أسمائهم ولا من هم، وأن الله قد أنقذه من تلك المؤامرة، وذلك في قوله: «ما روي في سبب خروج النبي ﷺ إلى تبوك وسبب رجوعه إن صح الخبر فيه ... أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يومًا، فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقًا أنك نبي، فالحقْ بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق

[٦] نفسه: ص١٧٨.
[٧] الموضع نفس. انظر أيضًا ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج٢، ص٢٧٧.
[٨] نفسه: ص١٧٦.

ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عز وجل آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٦–٧٧)، فأمره الله عز وجل بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث.»[٩]

ومن هنا يمكن فهم الحقيقة وراء مسجد ضرار وما دار حوله من أحداث، كانت مساجد رسول الله ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك معلومة مُسمَّاة، ويُعدِّدها ابن هشام فيقول إنها كانت كالتالي: «مسجد بتبوك ومسجد بذات الخطمي ومسجد بآلاء ومسجد بطرف البطراء من ذنب كواكب ومسجد بالشق — شق تارا — ومسجد بثينة حدران ومسجد بذات الزراب ومسجد بالأخضر ومسجد بذي الحيفة ومسجد بصدر حوحنى ومسجد بالحجر ومسجد بالصعيد ومسجد بالوادي — اليوم وادي القرى — ومسجد الرقعة من الشقة — شقة بني غدرة — ومسجد بذي المروة ومسجد بالفيفا ومسجد بذي خشب.»[١٠]

وبالمثل، لكن داخل يثرب، أقام بعض المسلمين مسجدًا وجاءوا النبي عندما كان يتجهز لغزو الروم كما سلف، فقالوا: «يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتُصلِّي لنا فيه.» وكان جواب النبي وعدًا جميلًا يقول: «إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدِمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلَّينا لكم فيه.»[١١]

لكن مع تواتُر النفاق في هذه المرحلة جاء النبي الخبر أن أصحاب ذلك المسجد هم من المنافقين، ونفهم من الروايات أنهم من الأوس تحديدًا، حيث يُفيدنا الثعلبي النيسابوري أنهم بنوه ليستقبلوا فيه أخطر زعمائهم الذي غادر المدينة مُخاصِمًا للرسول «أبو عامر بن النعمان بن صيفي» المعروف باسم الراهب، لكن النبي أسماه بالفاسق، حيث كان أبو عامر قد ترهَّب في الجاهلية ولبس المسوح واعتنق الحنيفية، ولما التقى بالنبي اختلف معه حول صحيح الحنيفية، فغادر المدينة مُغاضِبًا له، ثم تُفيدنا المصادر أنه قبل غزو النبي للروم بقليل أرسل أبو عامر لأهله وهو أوسي، وقال لهم: «أعدوا العدة

[٩] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص٢٤٥.

[١٠] ابن هشام: في الروض الأنف للسهيلي، سبق ذكره، ج٤، ص١٨٠.

[١١] الموضع نفسه.

والسلاح وابنوا لي مسجدًا، فإني ذاهب إلى قيصر وآتٍ بجند لنُخرِج محمدًا وأصحابه من المدينة.» ويزعم الثعلبي أنه كانت قد نزلت فيه آيات تقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾.[١٢]

ويحكي لنا البيهقي ما حدث بشأن ذلك المسجد الذي وعد النبي أصحابه بافتتاحه لإيواء المحتاجين، فيقول: «إن النبي ﷺ أقبل من تبوك حتى نزل بذي أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار … فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي … فقال: انطلِقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، واحرقاه. فخرجا سريعًا حتى دخلاه وفيه أهله فحرَّقاه وهدماه وتفرَّقوا عنه.»[١٣] لقد باتت السياسة إزاء المنافقين قد أخذت شكلها العنيف الرادع كما هو واضح.

وقد جاء الوحي يُعقِّب على إحراق المسجد في آيات كريمة صريحة تقول:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٧–١١٠).

وبحرق مسجد ضرار يعود النفاق إلى الانكماش مرة أخرى، ولا يجد المنافقون كل مرة سوى أن يتجهوا إلى سيد المدينة وسيد الخلق يحلفون بالله أنهم ما أرادوا ما وصله من حديث لكنهم أرادوا خيرًا وحسنًا، أو أنهم ما قالوا ما سمع، أو يُقسِمون بأغلظ الأيمان أنهم إنما كانوا هازلين، وأدركوا أن جهاز الدولة الرقابي قد دخل بيوتهم وتصنَّت أحاديثهم وعلم أسرارهم، حتى قال نبتل بن الحارث أخو بني عمرو بن عوف:

إنما محمد أُذُن،
من حدَّثه شيئًا صدَّقه.[١٤]

---

[١٢] الثعلبي: عرائس المجالس، سبق ذكره، ص١٤٠.

[١٣] البيهقي: دلائل، سبق ذكره، ج٥، ص٢٥٩، ٢٦٠.

[١٤] ابن هشام: في الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٩٠.

لكن ليتدخل الوحي مرة أخرى شارحًا مُوضِّحًا مُبيِّنًا:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٦١).

ولكن، ووسط تلك الأحداث التي كدَّرت صفو الرسول ومدينته، يأتي حدث جديد، يُضيف للدولة رصيدًا، يفرح له الرسول والمؤمنون، حيث يحكي ابن كثير:

> أن رسول الله ﷺ لما ارتحل عن ثقيف، سُئل أن يدعو عليهم، فدعا لهم بالهداية، وقد تقدَّم أن رسول الله ﷺ حين أسلم مالك بن عوف النصري، أنعم عليه وأعطاه وجعله أميرًا على من قومه، فكان يغزو بلاد ثقيف ويُضيِّق عليهم حتى ألجأهم إلى الدخول في الإسلام، وتقدَّم أيضًا فيما رواه أبو داود عن صخر بن العيلة الأحمس، أنه لم يزَل بثقيف حتى أنزلهم من حصونهم على حكم رسول الله ﷺ، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية ... ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا ... ثم أجمعوا أن يُرسِلوا رجلًا منهم هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير ... ومعه بضعة عشر رجلًا.[١٥]

وكان فرح المغيرة بن شعبة الثقفي عظيمًا لما التقى وفدهم على أبواب المدينة، فأخذهم ليُعلِمهم بروتوكول الدولة، وكيف يدخلون على رسول الله ﷺ، وكيف يُؤدُّون له التحية، لكنهم عندما دخلوا على الرسول لم يفعلوا سوى فعل العربان، وحيَّوه تحيتهم الجاهلية الاعتيادية، وأمر النبي فضُرِبت لهم قبة في مسجده تكريمًا لهم، وجلس النبي في مجلسه على مسافة يسمع منهم ويقولون له، وكان يسعى بينهم خالد بن سعيد بن العاص، ولما قدَّم لهم طعامًا رفضوا تناوله توجسًا وخيفة، إلا بعد أن أكل منه خالد بن سعيد، ولما انتهت المفاوضات كتب خالد بينهم الكتاب.

وإبان المفاوضات حاولوا تأجيل هدم اللات فلم يرضَ الرسول إطلاقًا، بل أعلمهم أنه سيُرسِل معهم أبا سفيان صخر بن حرب، وولدهم المغيرة بن شعبة ليهدماها، ثم سألوه أن يُسقِط عنهم الصلاة.

---

[١٥] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٥، ص٢٦، ٢٧.

لم يُدرِك الثقفيون أن واجبات الصلاة الخمس تمرين سريع للتأمل، تتضمن ترديدًا لآيات القرآن حتى تعتاده آذانهم، ثم إنها تحوي الشهادة للرسول بالنبوة في كل مرة، وتُعوِّد المُلتزِم بها الانتظام في نظام صفوف صارم. كل ما رأوه فيها إرغامًا لأنفهم العربية المُتأَبِّية المُتكبِّرة على السجود، ولم يُدرِكوا أنها كانت إخضاعًا لسلوكهم اليومي لمُؤسَّسة دقيقة مُرتَّبة تخرج بهم عن عشوائية القبلية وتشظيها، إلى المنظومة المُوحِّدة، ولم يقبل النبي أي تفاوض بشأن الصلاة، وأجاب بحسم: «لا خير في دين لا صلاة فيه.» فكان ردهم المُختزَل الذي يبدو على مضض: «سنُؤتيكها.» أبدًا لم يقولوا سنؤتيها لله تعالى، بل استمروا ليقولوا بجرأة شديدة: «سنؤتيكها وإن كانت دناءة.» ثم أصروا ألا يكونوا كبقية الأعراب؛ فهم أهل مدن وحضارة وأنفة وكبرياء، واشترطوا على النبي أنهم لن يدفعوا الضرائب (الصدقة)، ولن يشتركوا في معاركه (الجهاد)، فوافقهم، ثم قال بعد ذلك للمسلمين: «سيتصدقون ويُجاهِدون إذا أسلموا.»[١٦]

واستأذن الثقفيون النبي أن يسبقوا رسله المُزمَع ذهابهم معهم لهدم اللات، «فلما جاءوا قومهم تلقوهم، فسألوهم ما وراءكم؟ فأظهروا الحزن، وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف، يحكم بما يريد وقد دوَّخ العرب ... فألقى الله في قلوبهم الرعب فرجعوا وأنابوا.»[١٧]

ولحق بهم ولدهم المغيرة ومعه أبو سفيان وهدموا اللات وأخذوا ما بها من جوهر وحُلًى وذهب وفضة.[١٨] بينما كان النبي قد أمَّر على ثقيف عثمان بن أبي العاص أميرًا منوبًا من قِبله، وكان أحدثهم سنًّا.[١٩]

ويمر من الشهور ثلاثة، رمضان وشوال وذو القعدة، ويأتي موسم الحج، لكن الموسم هذه المرة لم يكن كالمرات السوالف، حيث كان لا بد أن تُشرِف الدولة بنفسها عليه، فبعث رسول الله أبا بكر أميرًا منوبًا من قِبله على حج سنة تسع للهجرة ليُقيم للناس حجهم.

ويُفاجئ الأمر قريشًا، فحتى سيادة الحج والكعبة قد ذهبت إلى دولة يثرب. نعم إن أبا بكر قرشي، لكن معنى أن يأتيها من يثرب أميرًا على الحج، هو معنًى يسلب قريشًا

---

[١٦] نفسه: ج٥، ص٢٧.

[١٧] نفسه: ج٥، ص٣٠.

[١٨] ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج٢، ص٢٩٣.

[١٩] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٥، ص٢٨.

وضعها السيادي الباقي في إقامة الشعائر الدينية للعربان، وهنا تعترض قريش هاتفة: «إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعُمار هذا البيت، فلا أحد أفضل منا.» لكن ليأتيهم الرد: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.[٢٠]

لقد بات المطلب الآن بعد انصرام عام على فتح مكة، إسلام الجميع دون مُوارَبة، حيث أكَّدت كتب السير أن «الناس من أهل الشرك كانوا على منازلهم من حجهم.»

ثم تأتي الضربة القاصمة في نقض النبي ﷺ لما كان بينه وبين المشركين من عهد ينص على «ألا يُصَد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهدًا عامًّا بينه وبين الناس من أهل الشرك»؛ لضمان استمرار التجارة وسيولتها، وقد جاء ذلك النقض عندما أرسل النبي ﷺ، علي بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر، ومعه أوامر الوحي في الآيات المعروفة باسم «براءة» وقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمِنى؛ أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته ... وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أُذِّن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة.»[٢١] وكان أبرز نصوص وثيقة براءة يقول:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (التوبة: ٢٨).

كان معنى ذلك خراب ديار قريش إلى آخر الدهر، فمعنى ذلك توقُّف التجارة ودمار الأسواق، وزاد الأمر نكاية ما جاء مع سورة براءة من أمر إلهي بإلغاء العمل بنظام النسيء، وكان النسيء تحريكًا للأشهر الحرم القمرية، لتدور مع الأشهر الشمسية، حتى تتوافق رحلتا التجارة مع موعد المحاصيل والرياح الموسمية في بحر الهند، وهي الرياح والمحاصيل التي تسير وفق المجريات الشمسية (الزمن الميلادي)، وجاءت الآيات تُؤكِّد:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ (التوبة: ٣٧).

وهكذا تم تثبيت الأشهر القمرية جميعًا، وهو ما قال المسعودي بشأنه شارحًا: «عندما ظهر الإسلام، كانت الأشهر الحرام قد عادت إلى بدئها على ما كانت عليه في

---

[٢٠] ابن هشام: في الروض، سبق ذكره، ج٤، ص١٨٦.

[٢١] نفسه، ص١٨٧، ١٨٨.

أصلها، وذلك قول النبي ﷺ: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض.»[22]

نعم، كان تثبيت الأشهر الحرم وسلخها عن المصالح المادية ارتفاعًا بها وتكريمًا لها وتوقيرًا؛ لجعلها رمزًا لوحدة البيت الجامع للعرب المُتوحِّدين في الدولة الواحدة، لكنه كان ضربًا واضحًا للتجارة والأسواق، بل وتراجعًا بالعرب جميعًا عن مركز دولي مُتميِّز حقَّقوه من ذلك النظام التجاري الديني، فأمسكوا بعنان تجارة العالم، وبدأت قريش تشك فعلًا في أهداف الدولة الجديدة، وصوَّرت لها أحلامها المريضة أن المقصود دمار فعلي، وانتقام مما سبق وقدَّمت أيديها، وتقف تقول:

> لتُقطَعن عنا الأسواق، فلتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نُصيب فيها من المرافق.[23]

لكن لتُفاجأ بسوء ظنها، وتبدأ في رؤية ما ينتظرها حقًّا، عندما يرد عليها الوحي الكريم:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٨).

أما كيف سيتحقق ذلك وهم يريدونه مكاسب عينية ملموسة، تُعوِّضهم عن خراب تجارتهم وبوار أموالهم؟ فهو ما يشرحه ابن هشام مُؤيَّدًا بآي الله الكريم، في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي من وجه غير ذلك ... ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ... مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أي ففي هذا عوض عما تخوَّفتم من قطع الأسواق، فعوَّضهم الله بما قطع عنهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية.[24]

ماذا تقصد الآيات؟ إن أهل الكتاب في الجزيرة قد انتهى أمرهم إلى الذبح أو الجلاء أو الجزية، فأي أهل كتاب؟! وهنا توجَّهت الأنظار بعيدًا، إن الآيات تطلب منهم تعويض خسائرهم هناك؛ فعند الإمبراطوريتَين كنوز عظيمة، وهنا تفهم قريش سر كل ذلك

---

[22] نفسه: ص١٨٩.

[23] الموضع نفسه.

[24] المسعودي: مروج الذهب، سبق ذكره، ج٢، ص٥٧.

التضيق، لقد بات عليهم التحول عن التجارة إلى القتال، لقد بدأ المستقبل الجديد يفرش ظله على الواقع فيُزيح القديم، وجاءت الآيات تُؤكِّد الجهاد كبديل أفضل من التجارة، وتُوجِّه أنظارهم نحو الشمال.

لقد جاءت القرارات الأخيرة لتُخِل تمامًا بنظام التجارة العظمى التي كانت قريش تُشرِف على إدارتها، ومع إسلام العرب وتتالي ذلك الإسلام بعد أشهر في وفود تُشهِر إسلامها، جعل هناك استحالة في تقديم آفاق غنائم جديدة داخل جزيرة العرب. لقد آن أوان تحقُّق الوعد المُغلَّظ بالأيمان الذي أطلقه النبي في مكة عندما كان مَهيضًا:

والذي نفسي بيده لتملكُن كنوز كسرى وقيصر.

وجانب آخر، يُدرِكه الوعي النفاذ؛ أن الطريقة الوحيدة التي كان يمكن بها الحفاظ على وحدة القبائل، هي تقديم هدف مألوف لها، البحث الدائم عن الغنائم، وهو ما قامت عليه الدولة النبوية ذاتها حتى الآن، الهدف أصبح ذلك العالم المفتوح أمامهم على مصراعَيه. لقد أصبح مطلوبًا من العرب أن يتحولوا عن مُجرَّد سادة تجارة العالم؛ ليُصبِحوا سادة هذا العالم نفسه. أما بقية العربان الذين ارتبطوا بأسواق مكة، فقد باتوا يُعانون من الخراب نفسه، لم يعد أمامهم سوى الانخراط في الدولة للحصول على نصيب من الغنائم المُنتظَرة. لقد جاءت وثيقة الوحي براءة؛ لتدفع الجميع دفعًا إلى اعتناق الإسلام وإلى التوحيد وإلى التوجه خارج الجزيرة.

أما ختام المسك فكان موت رأس المُعارَضة والنفاق، عبد الله بن أُبي بن سلول، الذي خفتت بعده أصوات المُعارَضة تمامًا.

عام الوفود

والله، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله.

إربد بن مقيس

قال محمد بن إسحاق:

لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام:

حدَّثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تُسمَّى سنة الوفود.

قال ابن إسحاق:

وإنما كانت العرب تربَّص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش؛ لأن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا يُنكِرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتُتِحت مكة ودانت له قريش، ودوَّخها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل أفواجًا، يضربون إليه من كل وجه.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر).[1]

هكذا ارتأت كتب السير الإسلامية والأخبار الأسباب الواضحة لقدوم الوفود العربية من بلاقع الجزيرة وفيافيها لتُعلِن لسيد العرب خضوعها، وكان الإعلان عن إغلاق مكة دون المشركين، وتوجيه العسكرية العربية نحو الباب المفتوح شمالًا، مَدعاةً أخرى واضحة أوضحناها لقدوم تلك الوفود الكبرى. أما النبي بكرمه الذي يليق به، وعطاياه للوفود ما أفاء الله عليه، ومن خُمسه المُقرَّر وحيًا، فكانت عاملًا آخر ودافعًا غير منكور في كتبنا الإخبارية لقدوم الوفود تُعلِن انضمامها لدولة الإسلام. وبين كل وفد كان ينتقي رجلًا يتوسم فيه الشخصية القيادية والقادرة على فهم الأوضاع والمُتسِمة بالطاعة للسلطة النبوية، فيجعله أميرًا من قِبله على قومه. وللقرار بمنح الأعطيات وقطع الإقطاعات رواية أولى دفعت إلى سلوك ذلك الخط في تألُّف العربان، فيقول محمد بن إسحاق صاحب السيرة التأسيسية إن أول الوفود جاء بشموخ الأنف العربية وكان وفد القبيلة الكبرى تميم، وعلى رأسها عطارد بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، والحتحات بن يزيد، أسماء جميعها ذات شرف ومنعة وسيادة في قومهم، وبصلف العربان دخلوا يثرب إلى مركزها الإداري مباشرة، إلى المسجد، فلم يجدوا سيد المدينة، فكان أن وقفوا يُنادون الرسول من وراء حجراته:

اخرج إلينا يا محمد.

لم يتحضر بعد الفكر ولا اللسان، ولا أدرك العربان أن خطابهم مع السيد يجب ألا يكون كخطابهم لبعضهم البعض، وهو ما جاء من بعد تنبيهًا للوفود وتقريعًا لأجلاف تميم في وحي يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ٤-٥).

---

[1] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٥، ص٣٧.

لكن تميم ما كانت لتفهم لغة التمدين بسرعة، وظل غرورها الأجلف يركب حسها الغليظ، وأنفتها تمنعها من إعلان الطاعة بهدوء ومباشرة، إنما جاءت تُؤجِّل ذلك الإعلان ما أمكن، وتُعلِنه وهي عزيزة مُتعالِية في وهمها، ويتمثل ذلك في قول الوفد التميمي لسيد الخلق: «يا محمد، جئناك نُفاخِرك فأذنْ لشاعرنا وخطيبنا.»

لم تفهم تلك العقول مدى التحولات الكبرى، وأدرك النبي مغزى كل تلك المناورة؛ إنها لا تريد الخضوع دون إثبات عزتها، وتبسَّم سيد الخلق، فرد بهدوء الواثق المُطمئن: «لقد أذنت لخطيبكم فليقل.» ليقوم عطارد بن حاجب يُعدِّد مُمكِنات تميم وعظمها يقول:

> الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برءوس الناس وأولي فضلهم؟
> فمن فاخرنا فليُعدِّد مثلما عدَّدنا، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا وإنا نُعرَف بذلك.
> أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا،
> وأمر أفضل من أمرنا.

ويجلس عطارد يلبس أثواب التكبُّر الأنف، ويُصبِح المطلوب ردًّا مُناسِبًا يكسر ذلك الكبرياء ويُرغِم تلك الأنوف، فلا يرد عليه النبي بنفسه؛ حتى لا يُكسِبه قيمة لا تليق به، إنما يُشير إلى ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجي، ويقول له: «قُم يا ثابت فأجِب الرجل.» ويقوم ثابت ليقول بهدوء هادر المعاني:

> الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسَّع كرسيه علمه، ولم يكُ شيء قط إلا من فضله،
> ثم كان من قدره أن جعلنا ملوكًا،
> واصطفى من خيرته رسولًا،
> أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حسبًا،
> فأنزل عليه كتابًا وائتمنه على خلقه،
> فكان خيرة الله من العالمين،
> ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوي رحمه أكرم الناس أحسابًا وأحسن وجوهًا وخير الناس فعالًا.

وينتقل ثابت بن الخزرج، أصحاب الحرب والحلقة إلى موجة أعلى في خطابه ليُردِف مُهدِّدًا مُنذِرًا مُتوعِّدًا:

ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن!
فنحن أنصار الله ووزراء رسوله،
نُقاتِل الناس حتى يُؤمِنوا، فمن آمن بالله ورسوله مُنِع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات.
والسلام عليكم.[٢]

وتفهم تميم الرسالة، وتتهاوى العزة، لكن ليرأف بهم النبي الكريم ﷺ فيقول ناقلًا الحديث إلى مستوًى آخر؛ تخفيفًا عنهم وتهدئة لروعهم: «اقبلوا البشرى يا بني تميم.» لكن ليرد الذين تفاخروا منذ قليل بمالهم وعددهم: «يا رسول الله، لقد بشَّرتنا، فأعطِنا.» وهكذا انتكس الرجال وارتكسوا عما قالوا، ووجدوا أنه إذا لم يكن من الطاعة بد، فليعودوا بمكاسب، ويستجيب الرسول، «فلما فرغ القوم أسلموا، وجوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.»[٣]

أما بنو عبد القيس فأرسلوا وفدًا عارفًا أقدار الناس، ومن أعلى من النبي قدرًا؟ لذلك ما إن هبطوا عن ركائبهم حتى هرعوا يتسابقون إلى الرسول ليأخذوا بيده يُقبِّلوها، فاستحقوا أن يصفهم النبي بقوله: «هم خير أهل المشرق.»[٤]

وتتوالى الوفود، ويقدم وفد أسد للمدينة ويقف حضرمي بن عامر رأس الوفد ليقول للنبي:

أتيناك نتدرع الليل البهيم،
في سنة شهباء،
ولم تبعث إلينا بعثًا.

---

[٢] نفسه: ص٣٨، ٣٩.
[٣] نفسه: ص٣٥، ٤١.
[٤] نفسه: ص٤٤.

يريد أن يقول إنهم أتوه طوعًا لا كرهًا، لترد عليهم الآيات ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ (الحجرات: ١٧).

ثم وفد عبس، ووفد فزارة، ووفد مرة «فأجازهم بعشر أواقٍ، عشر أواقٍ فضة»، ثم وفد ثعلبة وقد أجاز كل منهم بخمس أواقٍ فضة ثم وفد محارب فأجازهم بدورهم بالعطايا، ثم وفد كلب، ووفد عقيل بن كعب الذين أقطعهم النبي أرض عقيق بني عقيل وفيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتبًا في أديم أحمر، ثم وفد جعدة، وأقطعهم الرسول ﷺ ضيعة بالفلج وكتب لهم بذلك كتابًا، ثم وفد قشير بن كعب «فأقطعه الرسول ﷺ قطيعة وكتب له كتابًا»، ثم وفد بني البكاء وقد أجازهم بدورهم فأحسن جوائزهم، ثم وفد كنانة ووفد أشجع ووفد باهلة ووفد هلال بن عامر، وربيعة عبد القيس وتغلب، وكانت تغلب نصارى جاءوا النبي يلبسون صلبان الذهب، فصالحوه، على أن يُقِرهم على دينهم فأقرهم، وأعطى المسلمين منهم عطايا.[٥] أما وفد عامر بن صعصعة فقد جاء على رأسه عامر بن الطفيل وإربد بن مقيس. وعامر من القبائل الكبرى الشامخة، وما إن وقف عامر بن الطفيل أمام الرسول حتى دخل في المفاوضة مباشرة وبسرعة قائلًا: «يا محمد، ما لي إن أسلمت؟» فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين.» قال: «أتجعل لي الأمر من بعدك؟» قال: «ليس ذاك ولا لقومك.» قال: «أفتعجل لي الوبر ولك المدر؟» قال: «لا، ولكني أجعل لك أعنة الخيل، فإنك امرؤ فارس.» وهو من رد على العربان الذين دعوه للإسلام:

> والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش؟[٦]

فيغضب عامر بن الطفيل، ويُخرِجه الغضب عن جادة الصواب، فيهدر صارخًا:

> أوليست لي (أي الخيل)؟
> إذن،
> لأملأنها عليكم خيلًا ورجالًا.[٧]

---

[٥] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج١، ج٢، من ص٤٠–٥٦.

[٦] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٥، ص٥١، ٥٢.

[٧] ابن سعد: الطبقات، سبق ذكره، مج١، ج٢، ص٥١.

وخرج مع رفيقه إربد ليتبعهم النبي بدعوته: «اللهم اكفنيهما.» وتحكي كتب السير أن الدعوة لحقتهم فمات عامر في الطريق، أما إربد فوصل قومه، فاستقبلوه يسألونه عما عند محمد وما انتهت إليه المحادثات، ليرد عليهم:

> والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله. فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل ليبيعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.[٨]

وتتتابع الوفود فتأتي شيبان وطي ونجيب وخولان وجعفي وصداء ومراد وزبيد وكندة والصدف وخشين وسعد هزيم وبلى وبهراء وعذرة وسلامان وجهينة وجرم والأزد والحارث بن كعب وحمدان وسعد العشيرة وعبس والداربين والرهاويين وغامد والنخع وبجيلة وخثعم وحضرموت وأزد عمان وغافق ويارق ودوس وثمالة والحدان وأسلم وجذام ومهرة وحمير ونجران وجيشان والسباع.

وهكذا استتمت جزيرة الجزيرة جميعًا وأوعبت طاعتها أمام النبي الكريم، تُؤكِّد أن التاريخ على وشك استكمال حلقته الانتقالية الكبرى؛ أن الوحدة العربية للجزيرة قد صارت واقعًا وحقيقة، وأن الدولة المركزية قد تسنَّمت أمر العرب وحشدتهم على أيديولوجية واحدة مُوحَّدة.

لكن لم يمر عام الوفود دون مُكدِّرات عكَّرت صفوه ونصره؛ فبين تلك الوفود جاء ذلك الوفد الغريب الشأن العجيب الأمر، وفد بني حنيفة من أهل اليمامة، وبين رجالهم رجل يبدو له شأن اسمه مسيلمة بن ثمامة، نزلوا دار بنت الحارث من الخزرج، واستلفت النظر وأوجست منه المدينة، وهم يرون وفده يُحيط به، يسترونه بالبُرد والثياب، وهو يسير إلى المسجد، ليقف أمام النبي وبيد النبي قضيب من عسيب النخل، ليقول للنبي رسالة برقية مُوجَزة:

> إن شئت،
> خلَّيت بينك وبين الأمر،
> ثم جعلته لنا بعدك.

---

[٨] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٥، ص٥٣.

لكن ليرد سيد الخلق هادئًا مُستصغِرًا شأن ذلك المُتكبِّر الكبير في قومه: «لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتكه.»[٩] فينصرف مسيلمة مع قومه، لتعلم المدينة أن الرجل كان في قومه نبيًّا، وأنه أعلن فيهم نبوته، وهذا سر سيرهم به متحوفًا بالاحترام مستورًا بالثياب، وإنه ما جاء يُعلِن ولاءً بل جاء يتفاوض على تقسيم الأمر دُولًا بين محمد وبينه، حيث أعلن في أهله من حنيفة اليمامة أنه قد أُشرِك مع محمد في النبوة والحكم (الأمر)، وأخذ يُرسِل لهم آيات مسجوعة يزعمها وحيًا، وشهد للنبي بالرسالة، لكنه أراد منه شهادة مماثلة، وقد وقفت وراءه حنيفة جميعًا، وأرسل بعد عودته بلاده للنبي الصادق رسالة تقول:

من مسيلمة رسول الله،
إلى محمد رسول الله،
سلام عليك. أما بعد،
فإني قد أُشرِكت في الأمر معك،
فإن لنا نصف الأرض،
ولقريش نصف الأرض،
ولكن قريشًا قوم يعتدون.

وتصل الرسالة الآبقة بإفكها إلى رسول الله الأمين، فيرد عليه من فوره ببرقية مُوجَزة صارمة المعاني هادئة الكلم تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم.
من محمد رسول الله،
إلى مسيلمة الكذاب (!)،
السلام على من اتبع الهدى (!).
أما بعد،
فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده،
والعاقبة للمتقين.[١٠]

---

[٩] نفسه: ص٤٦.

[١٠] نفسه: ص٤٧.

وتسلم بلاد العرب وتدخل في طاعة الدولة الواحدة، ويرغب بعضها الآخر من الكتابيِّين في البقاء على دينهم على أن يخضعوا للدولة ويدفعوا الجزية، فيقبل النبي ﷺ ذلك منهم، لتظل حنيفة وبلاد اليمامة وسط ذلك المحيط العربي المُتوحِّد ترفض الانضواء، بل ويتضخم أمرها تحت زعامة سيدها المُتنبِّئ مسيلمة الكذاب.

كانت سنة الوفود هي السنة التاسعة للهجرة، وكانت سنة قحط شديد، وهو دافع يُضاف إلى مجموع الدوافع التي حثَّت الوفود تدفعها دفعًا إلى يثرب، تطمع في حكمة قيادة يثرب إزاء الأزمة القاحطة النازلة بهم، لكن ذلك الظرف ذاته كان بدوره وراء الحركات الانشقاقية التي نشطت في ذات العام، يُمثِّلها مسيلمة في اليمامة، والأسود العنسي في اليمن.

وقد وضح أن مسيلمة بن حبيب كان يطمح إلى مشروع اتحادي وليس وحدويًّا، فهو يطلب مشاركة حنيفة في أمر السيطرة على قبائل العرب، فلم يُدرِك مسيلمة أنه يسير عكس اتجاه السير الصحيح لخط التاريخ نحو توحُّد الجزيرة جميعًا، كلا ولا فهم كيف يمكن أن تتوارى القبيلة داخل إطار الدولة؛ ومن هنا قام يطرح رؤية إقليمية ضيقة محدودة، مُعبِّرة عن موقف قبلي يُعاكِس الحتمية وضرورتها، ومُفصِحة عن موقف قبلي إقليمي تجزيئي يريد أن يقلب وجهة التاريخ إلى القديم، وهنا بالتحديد كان مقتل الحركة جميعًا بعد ذلك.

أما اليمن التي كانت تُعاني بشدة من التسلط الفارسي على مُقدَّراتها، فقد كانت إبان تطوُّر أطوار الدعوة الإسلامية في وادٍ آخر؛ كانت تخوض ثورة كبرى ضد باذان الفرس، ويظهر بين الثوار ضد الفرس ذلك الفارس الأسطوري «الأسود العنسي» الذي قاد تحالفات قبائل اليمن ليكتسح بهم نفوذ الفرس، ويتمكن من تصفية بيت باذان ودخول صنعاء والاستيلاء على اليمن، بل وطرد الفرس من اليمن وتطهيرها من العسكر الكسروي. وفي تلك اللحظة الحاسمة وصلت رسل النبي ﷺ إلى اليمن مع عُماله عليها، لكن الثوار يتمسكون بإقليمية اليمن باعتبارها دولة قديمة عريقة، ذات تاريخ مستقل إقليمي له خصوصية، ليقول عبهلة بن كعب الذي لُقِّب بالأسود العنسي لوفود يثرب وعُمال الرسول المنوبين من قِبله:

> أيها المُتورِّدون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفِّروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه.[١١]

---

[١١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص١٢٦.

وقام عبهلة يدفع المأزق الإقليمي نحو مزيد من التعميق والجفاء، ليعود باليمن إلى عبادة الرحمن القديمة، رب السماء[١٢] العريق في حضارات الجنوب الحضرمي القحطاني، رافعًا إياها كأيديولوجيا وطنية خالصة من فرز مجتمع اليمن وتاريخه، مُعارِضًا بها «الله» رب الشمال العدناني.

أما النبي ﷺ فقد وقف من تلك الحركات موقفًا مُتأنِّيًا يعتمد الصبر الهادئ؛ فاليمن قبائل كبرى عسكرية مُنظَّمة، كذلك اليمامة لم يكن أمرها بأقل شأنًا، والإسلام بحاجة إلى قواته ورجاله من أجل الهدف الأعظم، من أجل ميراث الأنبياء السوالف في امتداد بوادي الجزيرة نحو الشمال؛ ومن هنا نفهم السر وراء استخدامه سياسة الإلهاء بالمراسلات مع تلك الزعامات القوية، لإطالة زمن حالة اللاحسم؛ ليتيح لعُماله هناك فرصة الانقضاض من الداخل على تلك الزعامات مع من تابعهم من مسلمي تلك المناطق، وطال أمر تلك السياسة، ولم يتم القضاء على تلك الانشقاقات إلا بعد وفاة الرسول ولحوقه بالرفيق الأعلى، بعد أن أدَّى حجة الوداع، وترك الناس على الواضحة غير المُلتبِسة.

وفي تلك الحجة بدرت من النبي أقوال إلى شعوره بدنو أجله، «عن أبي الزبير عن جابر: أن رسول الله ﷺ وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا»،[١٣] ثم ما كان من آيات تحمل روح الختام، من قبيل ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر).

الأيام الأخيرة للرسول العظيم

عن ابن طاووس عن أبيه أن الرسول ﷺ قال:

> نُصِرت بالرعب، وأُعطِيت الخزائن وخُيِّرت بين أن أبقى حتى أرى ما يُفتَح على أمتي، وبين التعجيل،
> فاخترت التعجيل.[١٤]

---

[١٢] ارجع في ذلك إلى كتابنا الحزب الهاشمي، سبق ذكره.

[١٣] ابن كثير: البداية، سبق ذكره، ج٥، ص١٨٩.

[١٤] نفسه: ص١٩٧.

كان الشعور بدنو الأجل يتصاعد ويعلو، والرسول الكريم تزيد به أوجاعه، لكن سيد الخلق يُقاوِم الأوجاع، ويستمر في سياسة الدولة، وفي صفر بعد حجة الوداع بشهرَين، يُؤذِّن في الناس بغزو القياصرة في بلاد الشام، ويُؤمِّر على الناس أسامة بن زيد بن حارثة، ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بأن يُوعِبوا مع أسامة باتجاه فلسطين، بما فيهم وزيراه أبو بكر وعمر، ويتجهز الناس صدعًا بأمر رسولهم ونبيهم وقائدهم، لكن ليقف التاريخ في مَواقفه الناقلة المُحوِّلة، لتُرهِف السمع إلى الصحابة يُسجِّلون في مسامع الرواة، أنه في أول شهر ربيع الأول يطلب النبي عبده أبا مويهبة؛ ليتحامل عليه ويأمره باصطحابه إلى مقابر أصحابه، الذين ماتوا في حروب إنشاء الدولة، ويذهب معه إلى البقيع مُتحامِلًا على نفسه؛ ليقف وسط المقابر يقول للموتى:

> السلام عليكم يا أهل المقابر.
> ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المُظلِم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى (؟!).

ويلتفت إلى أبي مويهبة يقول له:

> إني قد أُوتِيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة.

ليُقاطِعه عبده المُخلِص:

> بأبي أنت وأمي فخُذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة.

لكن ليرد عليه المصطفى، لهفي عليه:

> لا والله يا أبا مويهبة،
> لقد اخترت لقاء ربي والجنة.

ثم يروي أبو مويهبة أنه وقف يستغفر لأهل المقابر، ثم عاد أدراجه ليبتدئ وجعه يظهر عليه ويلحظه الناس.[١٥]

---

[١٥] ابن هشام: في الروض، سبق ذكره، ج٤، ص٢٤٦، ٢٤٧.

وهنا نُنصِت إلى أم المؤمنين الحميراء سيدة النساء عائشة بنت أبي بكر تقول:

رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه. فقال: بل أنا والله يا عائشة، وارأساه. قالت: ثم قال: ما ضرَّكِ لو متِّ قبلي، فقمت عليكِ وكفَّنتك وصلَّيت عليك ودفنتك؟! قالت: قلت: والله لَكأني بك لو فعلتَ ذلك، لرجعتَ إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسَّم رسول الله ﷺ وتتامَّ به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعز به وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يُمرَّض في بيتي، فأذِنَّ له … فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلَين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر (تُؤكِّد الروايات أن ذلك الرجل الذي أغفلت عائشة اسمه كان علي بن أبي طالب)، عاصبًا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتي.[١٦]

ورغم اشتداد الوجع، فقد لحظ سيد الخلق ﷺ أن الناس يتلكَّئون في طاعة أوامره، في بعثة أسامة على رأس الجيش إلى الروم، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد عاصبًا رأسه، وصعد حتى جلس على المنبر ثم قال:

إن عبدًا من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

وفهم أبو بكر المقصود فنشج بالبكاء يقول: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فيُسكِته الرسول، ثم يقول مُناديًا:

أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبل، وإنه لَخليق للإمارة، كما كان أبوه خليقًا بها.

وعاد إلى بيت عائشة، وخرج أسامة بالجيش حتى نزل بالجرف على بعد فرسخ واحد من المدينة، فضرب هناك عسكره، ليبلُغهم أن الوجع قد اشتد بنبيهم، فتوقَّفوا هناك ينتظرون ما يُسفِر عنه الأمر.[١٧]

وهنا ننقل، فقط مُجرَّد نقل دون أي انحياز، من الشيخ شرف الدين الموسوي رؤيته لما يحدث في تلك الساعات الفاصلة من الزمان، فيقول بشأن أبي بكر وعمر وسائر

---

[١٦] نفسه: ص٢٤٦، ٢٥٩.

[١٧] نفسه: ص٢٦٠.

القوم: «وقد تعلم أنهم إنما تثاقلوا عن السير أولًا، وتخلَّفوا عن الجيش أخيرًا؛ ليُحكِموا قواعد ساستهم، ويُقيموا عمدها ترجيحًا منهم لذلك على التعبد بالنص، حيث رأوه أولى بالمحافظة وأحق بالرعاية؛ إذ لا يفوت البعث بتثاقلهم عن السير، ولا بتخلُّف من تخلَّف منهم عن الجيش. أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لا محالة إذا انصرفوا إلى الغزوة قبل وفاته ﷺ وكان — بأبي وأمي — أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفوا الأمر من بعده لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب على سكن وطمأنينة، فإذا رجعوا وقد أُبرِم عهد الخلافة وأُحكِم لعليٍّ عقدها، كانوا عن المُنازَعة والخلاف أبعد. وإنما أمَّر عليهم أسامة وهو ابن سبع عشرة سنة ليًّا لأعنة البعض، وردًّا لجماح أهل الجماح منهم، واحتياطًا من الأمن في المستقبل من نزاع أهل التنافس لو أمَّر أحدهم كما لا يخفى، لكنهم فطنوا إلى ما دبَّر ﷺ فطعنوا في تأمير أسامة، وتثاقلوا عن السير معه فلم يبرحوا من الجرف حتى لحق النبي بربه، فهمُّوا حينئذٍ بإلغاء البعث وحل اللواء تارة، وبعزل أسامة تارة أخرى، ثم تخلَّف منهم عن الجيش وفي أولهم أبو بكر وعمر.»

ويحكي لنا ذلك الشيخ ما حدث والرسول بين الحياة والموت، عن عبد الله بن عبد الرحمن: «فتثاقَل أسامة وتثاقَل الجيش بتثاقُله، وجعل رسول الله ﷺ في مرضه يثقل ويخف، ويُؤكِّد القول في تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له أسامة: بأبي أنت وأمي؛ أتأذن لي أن أمكث أيامًا حتى يشفيك الله تعالى. فقال: اخرج وسر على بركة الله. فقال: يا رسول الله، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال، خرجت وفي قلبي قرحة. فقال: سر على النصر والعافية. فقال: يا رسول الله، إني أكره أن أُسائِل عنك الركبان. فقال: نفِّذ ما أمرتك به. ثم أُغمي على رسول الله ﷺ وقام أسامة فتجهَّز للخروج. فلما أفاق رسول الله ﷺ سأل عن أسامة والبعث، فأُخبِر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، لعن الله من تخلَّف عنه. وكرَّر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يدَيه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أسيد بن حضير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول أم أيمن يقول له: ادخل فإن رسول الله يموت. فقام من فوره فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ورسول الله قد مات في تلك الساعة.»[١٨]

[١٨] عبد الحسين شرف الدين الموسوي: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمي، كربلاء، ١٩٦١، ص٩٠، ٩٣.

ويستمر الشيخ شرف الدين في قراءته لتلك السويعات الفاصلة في تاريخ الدنيا، ليرى أن استبعاد أبي بكر وعمر لم يُفلِح، وعادا للمدينة والرسول في النزع الأخير ومعه علي بن أبي طالب، ليُورِد لنا ما أخرجه البخاري بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس قال:

> لما حُضِر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي: هلمَّ أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده. فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا؛ منهم من يقول قرِّبوا يكتب لكم النبي كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم ﷺ قوموا. — قال عبد الله بن مسعود — فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

لكن الشيخ يُؤكِّد أن أصحاب السنن والأخبار، قد تصرَّفوا في قول عمر «إن النبي قد غلب عليه الوجع» فنقلوه بالمعنى؛ لأن لفظه الثابت: «إن النبي يُهجِر.» لكنهم هيَّئوا العبارة اتقاءً لفظاعتها في حق سول الله.[١٩]

وبعد ...

فقد حاولنا السعي وراء أعتاب سيد الخلق المصطفى ﷺ وسيرته كما أخبرنا بها الواقع المُدوَّن في مصادره الموثوقة، نصطفي أهم الأحداث المتعلقة بحروب دولته التي أنشأها وأقامها لعرب الجزيرة، ليتغير بها وجه العالم، وتتسق وجهة التاريخ مع خط سيرها المنطقي. وجعلنا مادة الوثائق مادة للعلم بقواعده الصارمة دون تدخُّل عاطفي أو وجداني، بغرض القراءة الأقرب إلى واقع الأحداث، ولا نزعم أننا فعلنا سوى المحاولة القابلة للصواب لنحوز الأجرَين، والقابلة أيضًا للسقوط في خطأ الإنسان بكل ما له وما عليه، وهو الخطأ الذي سنحوز به على ثواب الأجر الواحد، لكن الذي لا مُشاحَّة فيه أنه لا يصح أبدًا أن نضع ذلك العبد الإنسان العظيم المصطفى ضمن عظماء العالم، كما يفعل البعض، فأين هؤلاء من ذلك الإنسان المُتميِّز على العالمين، ولا جدال أنه بعد ما سردناه وقرأناه في عملنا هذا يجب أن نُخفِّف من غلوائنا، ونتحفظ قليلًا في إطلاق الصفات على

---

[١٩] نفسه: ص١٥٥، ١٥٨.

قادة ورجال لم يصلوا أبدًا إلى قامة ذلك السيد الرائع، الذي توافقت خطواته مع خطوات التاريخ، واتسقت رائعته العظمى عبر سيرها التطوري الهادئ لإقامة الدولة وتأسيس أيديولوجيتها، مع السنن الكونية، فكان عكس كل السابقين الذين حُكِي لنا عن كسرهم لقواعد الكون ونواميسه بالمُعجِزات والمُلغِزات، ليُثبِتوا نبوتهم. لقد اتسق نبي الإسلام مع كل السنن الكونية دون خلل؛ فكان مُؤسِّسًا للعقل في النبوة وللنبوة في العقل، وخاتمًا للنبوات، وبادئًا لدور الإنسان على الأرض، وصانعًا لكرامة عربية جديدة.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فداك أولادي وأموالي ونفسي. صلَّى الله عليك وسلَّم، وعليك صلاتي وسلامي، وتسليمي، ولك ولرب العالمين إسلامي.

المصادر[1]

(١) القرآن الكريم.
(٢) الكتاب المقدس.
(٣) القاموس المحيط.
(٤) المنجد.
(٥) كتب الحديث الشريف:

(أ) البخاري.
(ب) أبو داود.
(ج) الترمذي.
(د) مسلم.

المصادر مرتبة «ألف باء» حسب اسم المؤلف

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.
(٧) أمين «أحمد»: فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربية، ط١٤، القاهرة، ١٩٨٧.
(٨) ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٢.

[1] جميع المصادر بهذه القائمة أساسية ودخلت بشهاداتها في بحثنا كلها.

(٩) «البجاوى» محمد، ومحمد أبو الفصل: أيام العرب في الإسلام، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣.
(١٠) الديار بكري: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د.ت.
(١١) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
(١٢) البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
(١٣) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
(١٤) الثعلبي النيسابوري: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة القافية، بيروت، د.ت.
(١٥) الجاحظ: الرسائل، جمع ونشر حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣.
(١٦) ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلزة شتينر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
(١٧) ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط، ١٩٦٤.
(١٨) حميد الله «محمد»: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٥.
(١٩) ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
(٢٠) ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، د.ت.
(٢١) ابن خياط «خليفة»: الطبقات، تحقيق أكرم العمري، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٦٧.
(٢٢) دلو «برهان الدين»: مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، الفارابي، بيروت، ١٩٨٥.
(٢٣) الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ط١، ١٩٦٠.
(٢٤) زيعود «د. على»: قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
(٢٥) سالم «د. سالم عبد العزيز»: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠.

(٢٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت. وطبعة دار صادر، تحقيق أوجين متنوح، بيروت، ١٩٥٨.

(٢٧) السقاف «أبكار»: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

(٢٨) ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣هـ.

(٢٩) السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.

(٣٠) ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

(٣١) الشريف «أحمد إبراهيم»: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

(٣٢) شلبي «د. أحمد»: السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٨٧.

(٣٣) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١.

(٣٤) الشيباني: الاكتساب في الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحة، تحقيق محمد عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨.

(٣٥) الشيباني: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢.

(٣٦) صالح «أحمد عباس»: الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام، مجلة الكاتب، القاهرة، ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤.

(٣٧) الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٢، د.ت.

(٣٨) الطائي «حاتم»: ديوانه، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، د.ت.

(٣٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

(٤٠) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

(٤١) عبد الرحمن «عبد الهادي»: جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨.

(٤٢) علي «جواد»: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الحرية، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

(٤٣) علي «جواد»: تاريخ العرب في الإسلام، دار الحرية، ط١، بيروت، ١٩٨٣.
(٤٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.
(٤٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٩٨٦.
(٤٦) القمني «سيد محمود»: دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع، أكتوبر ١٩٨٦.
(٤٧) القمني «سيد محمود»: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠.
(٤٨) القمني «سيد محمود»: حروب دولة الرسول (الجزء الأول: بدر وأحد)، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٣.
(٤٩) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨.
(٥٠) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
(٥١) مدكور «د. إبراهيم بيومي»: في الفلسفة الإسلامية.
(٥٢) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محيي عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت.
(٥٣) مروة «حسين»: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت، ط٦، ١٩٨٨.
(٥٤) المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦.
(٥٥) الموسوي «عبد الحسين شرف الدين»: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمى، كربلاء، العراق، ١٩٦٦.
(٥٦) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥.
(٥٧) الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مرسدن جونز، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٦، وأيضًا نشر مؤسسة الأعلامي، بيروت، د.ت.
(٥٨) اليعقوبي: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٤، ١٩٧٤.
(٥٩) أبو يوسف: الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩.

